سبع معارك فاصلة في القرون الوسطى

جوزيف داهموس



الألف كتاب (الثانى) ٤١

سبع معارك فاصلة
فى العصور الوسطى

تأليف

جوزيف داهموس

ترجمة

د. محمد فتحى الشاعر

كلية الآداب – جامعة المنوفية

الطبعة الثانية



فهرس

تصــــدير

متى تكون المعركة فاصلة ؟ يقول فليتشر برات Fletcher Pratt لكى تكون المعركة فاصلة « لابد أن تشير بلا أدنى ريب الى احدى علامات التحــول التى لولاها لتغيرت الأحــوال ولربما اختلفت اختــلافا هائلا ولسار الحسم فى الاتجاه الآخر » (١) ٠ ونظرا لأنه أغفــل ذكر معركة هيستنجز Hastings بين المعارك التى اعتبرها فاصلة ، وهى المعركة التى أورد ذكرها معظم المؤلفين الآخرين ، فاننا نستطيع أن نقرر أن مسألة كون معركة فاصلة أو غير فاصلة انما هى مسألة ذاتية فى أغلب الأحــوال ٠

ومن الممكن أن يعتبر الصرب معركة كوسوفو Kossovo التى حــدثت سنة ١٣٨٩ م معــركة فاصلة لأن الأتراك وضعوا حــدا للطموحات الصربية فى اقامة امبراطورية فى البلقان ٠ وربما حكم على تلك المعركة مواطنون أوربيون حكما مختلفا ، أو فكروا مليا فى السؤال الذى طرحه الناسك بولس على أنطونيوس فى القرن الرابع الميلادى ، عندما سأل فجأة بعد سنوات طويلة فى العزلة الصحراوية ، « ما هو حال الجنس البشرى ٠٠٠ وامبراطورية من تلك التى تسيطر على العالم » (٢) ٠ فبالنسبة الى بولس لا يوجد شىء يتعلق بالانسان يمــكن اعتباره حاسما على نحــو تام ، وهذا افتراض يبدو أن المؤرخ الحديث أوتــو مينشين ــ هيلفين Otto Maenchen-Helfen كان مستعدا لقبوله ٠ فعنــد حديثه عن هؤلاء العلماء الذين أخذوا على عاتقهم تبرير كتاباتهم التاريخية المفصلة علق قائلا : « هل لى أن أشير الى أنى لم أتمكن من معرفة لماذا يلقى تاريخ باجا كاليفورنيا Baja California مثلا احتراما أكثر مما يلقاه الهن مثلا فى البلقان فى الستينيات من القرن الخامس ؟ » (٣) ٠

ان المعارك السبع التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب تستحق كلها اهتماما كبيرا ، نظرا للنتائج التى تمخضت عنها مباشرة ٠ وثمة معارك أخرى فى العصور الوسطى ربما كان لها نتائج حاسـمة بقدر مماثل ، مثلما حدث فى معركة تور tours (٧٣٢ م) ، ومعـركة ليجهانو Leghano (١١٧٦ م) ، ومعركة أجينكورت Angincourt (١٤١٥ م) أو غيرها ٠ بيد أن المعارك السبع المختارة تستحق أن يرد ترتيبها بين أكثر المعارك الفاصلة أهمية ، كما يغطى اختيارها الوقت الزمنى للعصور الوسطى من شالون Chalon (٤٥١ م) ، الى أنقره (١٤٠٢ م) ٠

١ ـ الحرب فى العصور الوسطى

لكى نقوم بدراسة تمهيدية لموضوع تاريخ الحرب فى العصور الوسطى ، لابد للمرء من الرجوع الى عصر اضمحلال روما · اذ ان معظم دول أوربا فى العصور الوسطى ظهرت لأول مرة على امتداد الحدود الشمالية لتلك الامبراطورية وتأثرت عاداتها وثقافاتها ، ونظمها الاجتماعية بنفوذ روما الى حد ما ، ويدخل ضمن ذلك أساليبهم فى شن الحروب · وقد ساعد أسلاف كثير من شعوب تلك المنطق فى الدفاع عن حدود الامبراطورية ابان قرون تدهورها · فمنذ القرن الثانى الميلادى استعانت روما لأول مرة بتجنيد من لم يتمتعوا بحق المواطنة من الذين عاشوا داخل حدود الامبراطورية ، ثم من الشعوب الوافدة حديثا من خارج حدودها · وأدخل ماركوس أورليوس Marcus Aurelius عادة توطين آلاف من الجرمان داخل الامبراطورية حيث طلب منهم الدفاع عن الحدود · وفيما بعد جلب الامبراطور جوليان قبائل بأكملها ، ومنحهم وضع المحالفين Statu of Foederati من الناحية القانونية مع تحملهم مسئولية حماية المناطق التى عاشوا بها على الحدود ضد الشعوب الأجنبية من غيرهم · وبحلول القرن الرابع كان عدد الجنود غير الرومانيين قد زاد لدرجة أن التعبير اللاتينى barbarus ، الذى يعنى أحد البرابرة ، اكتسب الدلالة على الجند ·

ومن المؤكد بصفة عامة أن أعظم مآثر روما فى التاريخ هو أنها حفظت الكثير من التراث الحضارى للعالم القديم ، وعلى وجه الخصوص العالم اليونانى ، وسلمته الى الغرب · فاذا كان لروما (وبلاد اليونان) تأثير على الفكر ، واللغة ، والقانون ، والدين ، والفن ، والعلم الطبيعى ـ ونعنى بذلك حضارة دول المستقبل فى غرب أوربا ـ فانها تركت أيضا بصماتها على فن الحرب الذى مارسته تلك الدول الناشئة · وهى بالتأكيد فعلت ذلك ولكن بقدر محدود فحسب · واذا كان لدى روما الكثير لتقدمه الى تلك الشعوب شبه المتحضرة ، فانها فى مجال الحرب كانت على قدم المساواة تقريبا · فأفضل جندى فى عالم يوليوس قيصر عندما فتح بلاد الغال (٥١ ـ ٥٨ ق·م) كان جندى المشاة من المواطنين الذين شكلوا

الفرق الرومانية المشهورة • وبحلول القرن الرابع الميلادى ، كان هذا المحارب السابق مجرد ذكرى ، اذ كان أكثر المحاربين فعالية فى هذا العصر المتأخر ، هو الفارس الذى يحمل السلاح ، وهو نوع من الجنود لم تكن روما قد استخدمته أبدا ، والواقع انها اعتمدت على الشعوب غير الرومانية لتمدها بالفرسان عندما دعت الحاجة • ان هذا الفارس قدر له أن يسود ميدان المعركة فى معظم العصور الوسطى •

ولقد أدركت روما بمرارة تفوق الفارس المسلح فى أغسطس ٣٧٨م، فى موقعة أدريانوبل Adrianople عندما أباد فرسان القوط الغربيون Visigoths « البرابرة » جيشا رومانيا ، وأردوا امبراطورها قتيلا على أرض المعركة • اذ كان تحرك القوط الغربيين من الأراضى السهلة الواسعة والخالية من الأشجار شمال البحر الأسود الى نهر الدانوب هربا من قبائل الهن Huns الذين طاردوهم بصفة مستمرة ، والذين انطلقوا من آسيا وأخضعوا بالفعل أبناء عمومتهم القوط الشرقيين Ostrogoths وعندما وصل القوط الغربيون الى نهر الدانوب ، منحهم الامبراطور فالنز Valens مكرها اذنا بالعبور والاقامة فى أراضى اقليم تراقيا Thrace وهناك قاموا بثورة بسبب سوء معاملة الموظفين الرومان لهم ، ثم قضوا على الجيش الرومانى فى أدريانوبل مستخدمين أسلحة وخيولا « بربرية » وليست رومانية • ومن النتائج المهمة لهذه المعركة زيادة عناصر « البرابرة » فى جيوش روما على حساب العناصر الرومانية •

وتشير معركة أدريانوبل الى الانهيار الشديد والسريع للامبراطورية فى الغرب (أما القسم الشرقى من الامبراطورية ، والمعروف باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية ، أو بيزنطة ، فقد استمر لألف سنة أخرى) — وهؤلاء القوط الغربيون الذين قضوا على الجيش الرومانى فى أدريانوبل ، هم الذين قادهم ملكهم الشهير آلارك Alaric ، ونهبوا مدينة روما سنة ٤١٠ م • وبعد موت آلارك بوقت قصير تحركوا غربا وأقاموا ممالك « البرابرة » ، فى جنوب فرنسا « بلاد الغال » ، وفى اسبانيا عندما سحبت روما قواتها من حصونها الدفاعية على امتداد الحدود الشمالية للتصدى لتحدى آلارك والقوط الغربيين ، وانهارت تلك الحدود ، وعبرت أفواج من الوندال Vandals ، والسوف Sueves ، ومن البورجونديين Burgundians والألن Alans ، والفرنجة Franks ، والانجلز Angles ، والسكسون Saxons « البرابرة » الحدود وأقامت لأنفسها امارات على الأراضى التى كانت تسيطر عليها روما من قبل.

ووافقت أغلبية تلك الشعوب على الاعتراف بالسيادة المطلقة لروما ، وقبلت الوضع القانونى كمحالفين حفاظا على ماء وجه روما · ان ذلك لم يكلفهم شيئا وانما ضمن لهم الحصول على القمح الرخيص من الأقاليم الافريقية التابعة لروما · كما حقق لهم قدرا من الاستقرار أيضا فى عالم كانت أحواله فى تغير مستمر · والواقع أن كثيرا من الشعوب اتحدت معا سنة ٤٥١ م ـ القوط الغربيون ، الفرنجة ، والبورجنديون ـ ضد عدو فرض اقترابه طرح أحقادهم جانبا على الفور ·

كان الهن هم ذلك العدو ، وهم الذين شقوا طريقهم بالقوة فى الأراضى الواقعة شمال البحر الأسود حوالى سنة ٣٧٥ م ، وأقاموا امبراطورية مترامية الأطراف مركزها فى المجر ، وخلال سنوات قلائل أجبروا جيرانهم من القبائل الجرمانية على قبول سيطرتهم · ومن عاصمتهم على نهر ثيس Theisis حصلوا على الاتاوات من روما ومن القسطنطينية · على أن الالتزامات التى فرضوها على القسطنطينية كانت أكبر بكثير ، واستمرت فى الازدياد حتى سنة ٤٥٠ م ، عندما تحدى مارقيان Marcian الامبراطور البيزنطى ، أتيلا Attila ملك الهن ، وأعلن انتهاء دفع الاتاوة · ودفع هذا التحدى أتيلا الى قيادة جيشه الضخم من الهن غربا تجاه بلاد الغال · وفى سنة ٤٥١ م ، عند شالون Chalons واجه أتيلا الجيش « الرومانى » وحلفاءه من القوط الغربيين ، والفرنجة ، والبورجنديين ، والألن ، فى احدى المعارك الفاصلة فى التاريخ · وكانت هذه المعركة بمثابة تهديد خطير كان من الممكن أن يفضى الى القضاء السريع على مراحل الحضارة الرومانية التى كانت فى طريقها الى التطور لولا الهزيمة المنكرة التى تعرض لها أتيلا وجماعته وعودتهم الى المجر ثم ظهر أتيلا للمرة الثانية فى العام التالى ، فى شمال ايطاليا فى تلك المرة ، بيد أن الخطر الهنى انتهى بعد وقت قصير ، وتركت الأمم الجرمانية لتقيم دولا خاصة بها بحرية كاملة تقريبا ·

واتضح أن دولة الفرنجة فاقت الدول التى قامت حديثا نجاحا · فعلى عكس الشعوب الجرمانية التى عبرت الى داخل حدود الامبراطورية مثل القوط الغربيين ، والوندال ، لم يبتعد الفرنجة عن مواطنهم الأصلية أو يهاجروا الى أراض بعيدة اذ لم يبتعدوا كثيرا تجاه الغرب عن موطنهم الأصلى شرق نهر الراين · وتحت حكم ملكهم المشهور كلوفس Clovis بسطوا السيطرة الفرنجية على الجزء الأكبر مما يعرف الآن باسم فرنسا · وحدثت خطوة مهمة ابان ظهور كلوفس الا وهى اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكى · وحقق له هذا الاجراء ولاء الهيئة الكهنوتية للكنيسة فى بلاد الغال ، وهى المؤسسة المنظمة الوحيدة التى ظهرت فى غرب أوربا ·

وينسب جريجورى أسقف مدينة تور Tours الورع ، الى اله المسيحيين الانتصارات التى حققها كلوفس فى اجبار الشخصيات المهمة فى بلاد الغال على الاعتراف بحكمه وسلطانه · وبرغم مساعدة السماء المضافة الى ذكائه ، فان كلوفس احتاج الى محاربين وأسلحة لانجاز ما فعله · كانت أيام كلوفس فترة يكتنفها الغموض ، بيد أن هناك مبدأين عامين مقبولين بشكل معتدل يتعلقان بفن الحرب ويمكن ذكرهما : أولهما نوعية الحرب التى خاضها كلوفس ورجاله ، وكذلك الأسلحة التى استخدموها ، مما لم يختلف كثيرا عن الحالة عند جيرانهم ، وثانيهما ، أن تلك الحرب وما بها من أسلحة ظلت دون تغيير حتى النصف الثانى من القرن الثامن ·

شكل جماعة خدام كلوفس قلب جيشه · وضمن كلوفس ولاء هؤلاء الرجال بمشاركتهم ثمار فتوحاته وبالقضاء على أى شخص حاول الاعتراض على سلطته · وكانت تلك الجماعات المسلحة شائعة ابان عصور الاضطراب عندما ضاعت هيبة السلطة الرومانية ، وكان ملوك الجرمان مجرد أسماء فحسب · اذ افتقر هؤلاء الملوك الى الثروة ، والجهاز الادارى والقوة المفروضة على الشعب التى تمكنهم من الحكم بفعالية ، اللهم الا اذا كانت سلطتهم فى مناطق محدودة ·

وفيما يتعلق بنشأة تلك الجماعات الحربية ، يستطيع المرء أن يجد مفتاحا فى فرقة الزملاء Comitatus القديمة ، وهو اجراء نسبه تاكيتوس Tacitus المؤرخ الرومانى الى الجرمان على عهده · اذ اعتاد شباب أى قبيلة على اسلام أنفسهم لقيادة محارب يعجبون به ، « ويدافعون عنه ويتولون حمايته ، وينسبون الأعمال البطولية للفرد منهم الى فضله وشرفه ! » (١) وهناك نمط بدائى أكثر اقترابا من فرقة الزملاء ، وجد فى الجماعات المسلحة التى بدأت الشخصيات الرومانية البارزة فى تجنيدها ، عندما أخذت السلطة الرومانية فى الضعف ، من أجل حماية أنفسهم وممتلكاتهم الزراعية · وعرف قادة تلك الجماعات المسلحة باسم الكونتات Counts (الكلمة اللاتينية Comes ، وتعنى رفاق كفاح) ، أو الأدواق dukes (الكلمة اللاتينية dux ، وتعنى قائد) ، وكونوا العمود الفقرى للسلطة الملكية فى العصر الميروفنجى (٤٥١ ـ ٧٥٢ م) ·

وبالاضافة الى فرقة الزملاء ذكر تاكيتوس أيضا عادة الجرمان فى الاحتياج الى قوات مسلحة من كل الرجال الأقوياء البنية · اذ كان مبدؤهم القتال ، اذا لم تكن مسئوليتهم الوحيدة وفقا لأحوال القبيلة · ومن هذا التراث يستطيع المرء أن يتتبع الاشارات الى القوات المجندة ، التى وجدها العلماء فى وثائق القصر الميروفنجى وربما تكون الاشارة عن

حالة تجنيد عامة ، بالرغم من ندرة ذلك ، اذ ان تجنيد معظم الناس على هذا الوضع كان يفتقر الى الخبرة والاحساس بالنظام مما قلل من فائدتهم • ومع ذلك ، فان قوات مجندة ومنتقاة يمكن أن تكون مفيدة فى الدفاع عن أسوار مدينة أو فى القيام بواجب الحراسة ، أو فى المساعدة فى محاصرة مدينة ، أو فى تولى حراسة الأسرى • ولا شك أن الرجال الذين عملوا فى مثل هذه الخدمة العسكرية ورثوا وظائفهم عن آبائهم وأجدادهم الذين عملوا بالمثل فى الامبراطورية السابقة •

وقد وضـــع الأفراد المحظوظون من تلك الجمـاعات فى العصر الميروفنجى خوذا على رؤوسهم وارتدوا قمصانا مدرعة ، على الرغم من أن تلك الملابس الوقائية لاتضاهى مثيلتها التى لايمـــكن أن تصاب بأذى والمستخدمة فى عصر الاقطاع • وحمل المحاربون تروسا أيضا • وأما عن الأسلحة فانهم اختاروا مجموعة منوعة من الرماح والحراب ، والسيوف ، والبلطات ، والأقواس والسهام ، والسكاكين ، التى اختلفت فى النوع والحجم ، وفقا لظروف القتال سواء كانوا مشاة ، أو على ظهور الخيل • وأثارت هذه النقطة سؤالا مثيرا للجدل والخلاف يتعلق بفن الحرب فى هذا الوقت ، وأعنى بذلك هل ركبت جماعات كلوفس ، وأبنـــاؤه ، وأحفاده ، الخيول لمجرد هدف الانتقال أم أنهم حاربوا وهم على ظهور الخيـــل ؟

ان الدليل غير كاف وغير مقنع • فبعض الوحدات الفرنجية التى خدمت فى الجيش الرومانى فى أوائل القرن الخامس الميلادى حاربت على ظهور الخيل • بيد أن الدليل يشير الى أنه حتى سنة ٧٣٢ م ، قام جيش شارل المطرقة Charles Martel قائد الفرنجة بالذهاب الى محاربة المسلمين المغاربة على ظهور الخيل ، ثم ترجل جيشه عندما وصل الى ميدان المعركة ، وهزم الأعداء ثم ركب الخيل ثانية ، وطارد فلولهـــم وهو على ظهور الخيل • ومن المحتمل احتفاظ الملوك الميروفنجيين ببعض الخيول ، نظـــرا لأنهم كان لديهم أتبـــاع فى خـــدمتهم من الألن والسارماتيين Sarmatians ، والقوط ، وكلهم لهم تاريخ طويل فى استخدام الخيول فى الحرب ويرجع تأخر الفرنجة فى الأخذ بطريقة اســـتخدام الخيول فى الحرب الى أنماط حياتهم فى موطنهم الأصلى حيث أعاقتهـــم الغابات الكثيفة عن استخدام الخيول •

وعلى الرغم من أن معركة تور هى المعركة الوحيـــدة الكبرى التى حدثت طوال العصر الميروفنجى ، فان هناك عددا كبيرا من المعارك الصغرى دار حول المدن الكبرى والصغرى • ففى تلك الأماكن كان العدو يأمل فى الحصول على الغنيمة ـ وتركزت قوة العدو على المدن المحصنـــة •

وتشير المصادر الى آلات المنجنيق (آلة تستخدم لدك أسوار المدن) (*) المحمولة على عربات ضخمة ، والمغطاة بسقيفات من الخشب لحماية ما بداخلها من القذائف ، ومن السلالم المصنوعة من الحبال ، من الواقعين تحت الحصار ، الذين كانوا يلقون مراجل من الزيت والقار المغلي ، على الذين يحاصرون أسوار المدن • وهناك اشارة أيضا الى استخدام الحرفة البحرية فى تلك العصور • وربما يرجع ذلك الى عصور الامبراطورية عندما تولت روما الحفاظ على الأمن فى انهار بلاد الغال أو تركت ذلك لمقدرة السكان •

وفى سنة ٧٥٢ م ، أعلن بيبين القصير Pepin the Short ابن شارل المطرقة ، نفسه ملكا ، وأسس الأسرة الكارولنجية وهى الأسرة الفرنجية الحاكمة الثانية وحملت هذه الأسرة اسم شارلمان بن بيبين ، الذى أثبت أنه أشهر شخصيات تلك الأسرة وفوق كل ذلك فان انجازاته العسكرية الموفقة كانت سببا فى اضفاء لقب « الكبير » عليه ، اذ قضى على اللومبارديين Lombards ، والآفار Avars ، وأخضع الساكسون Saxons الأشداء ، وشيد امبراطورية بلغت حدودها من الدانمارك الى كرواتيا Croatia ، ومن روما الى جبال البرانس حتى أراضى اسبانيا •

وفيما يتعلق بفن الحرب ، فقد شهد عصر شارلمان انطلاقة فى الاتجاه الى جعل الفارس المسلح سيد ميدان المعركة دون منازع • فلم يكن أمام شارلمان من خيار سوى الاعتماد الكلى على الفرسان نظرا لأن جيوش أعدائه الثلاثة ــ المسلمين المغاربة فى اسبانيا ، واللومبارديين فى ايطاليا ، والآفار فى شرق أوربا ــ تكونت بصفة أساسية من الفرسان • واذا ما كان شارلمان راغبا فى القضاء على الأعداء الذين طوقوا مملكته ، فلم يكن أمامه من خيار سوى تجنيد فرسان مملكته ، ومشاركتهم فى القتال وفقا لشروطهم •

وهناك تفسير شخصى للاتجاه نحو استخدام الفرسان على أنه تطور أرجعه العلماء الى أوائل القرن الثامن الميلادى • هذه هى المقدمة لاستخدام الخيول فى الحرب • واستمر التفكير فى منشأ الخيل وبداية ظهورها فى أوربا على وجه التحديد بيد أنه لاريب فى أهميتها بشأن التأثير القوى على فن الحرب • وفى هذه المرحلة أثبت الفارس المسلح أنه محارب لايقهر باستخدامه الرمح ، والقوس ، والسهام ، والسيف • غير أنه نظرا لافتقاره الى قاعدة ثابتة لكى يعمل عليها ، فلم يكن شديد الدقة ، كما لم يتمكن من استخدام أسلحته بقوة كاملة • اذ كان الجواد الذى يمتطيه

(*) ما بين قوسين ايضاح من المترجم •

بمثابة القاعدة التى يعمل عليها . وما أن وجد الفارس نفسه مشدودا باحكام الى ظهر جواده حتى استطاع أن يقذف برمحه بأقصى سرعة ودقة ، واستطاع أن يسدد طعنة قوية بسيفه واستطاع أن يقف فى ركاب جواده ، وأن يسدد ضربة قاضية باستخدام أقصى قوته فى استعمال دبوس مشوك لكسر الدروع mace ، أو فأس الحرب battle-axe .

ولم يحدث ذلك فى يوم وليلة ، بل انه ابان عصر شارلمان استمر جزء كبير من جيشه يتكون من المشاة . ومن الجدير بالذكر أن مجموعة الشرائع فى عهده الزمت كل الرجال الذين لديهم اقطاعات ـ ممتلكات زراعية منتجة بقدر كاف للوفاء بحاجاتهم أن يعملوا كفرسان ، وأن يزودوا أنفسهم بالترس ، والرمح ، والخنجر ، والقوس وجعبة السهام ، والسهام . وعلى الأرجح لم يمض وقت طويل قبل أن تختفى الحاجة الى القوس والسهم عندما اكتشف الفارس أن أسلحته الأخرى أكثر فعالية بكثير وأسهل فى الاستعمال .

ان ظهور الفارس المسلح فى مركز التفوق بلا منازع فى ميدان القتال فى القرن التاسع الميلادى لم يعمل على تطوير فن الحرب فحسب ، وانما غير بدرجة كبيرة من البنية الأساسية والاجتماعية للمجتمع . والأمر الأساسى الذى يفسر هذا العبء الثقيل الذى ألقى على عاتق المجتمع هو التكاليف الباهظة للحصان الواحد التى قدرت فى ذلك العصر بما يعادل قيمة أربعة وعشرين ثورا تقريبا ، فى وقت كان ينظر فيه الى المزارع الذى يمتلك ثورا واحدا على أنه سعيد الحظ .

ان المشكلة الخطيرة التى واجهت الملك أو الاقطاعيين الكبار هى من أين يجدون الوسائل التى تمكنهم من تحويل جيوشهم أو الجماعات الحربية من الأتباع من جنود من المشاة الأرخص نسبيا الى الفرسان الذين كانت تكاليفهم باهظة .

ونظرا لأن هذا العصر كان عصر اقتصاد زراعى لم يستطع الملك فيه سوى تحقيق دخل حكومى قليل من المكوس ، والضرائب الأخرى من التجارة ، فانه كان مضطرا الى اللجوء الى الأرض ليحصل على الموارد المالية ليجهز فرسانه . وفعل ذلك بتوزيع قطع من ممتلكاته الزراعية على محاربين مختارين فى بداية الأمر ، ومن دخل تلك الأراضى الزراعية ، أمكن الحصول على الحصان ، والمستلزمات الحربية والأسلحة . وعندما أوشكت الأراضى الزراعية على النفاد ، اتجه الملك الى الكنيسة ، كما فعل شارل المطرقة ، وأصر على أن يسلم الأساقفة ورؤساء الأديرة الاقطاعات الزراعية للمحاربين ليتمكنوا من الحصول على ما يحتاجون اليه . وفى مدى سنوات قلائل ، فرض على كل الرجال الذين يمتلكون قدرا معينا من

الأراضى الزراعية ، كما ورد ذكره فى مجموعة القوانين ، أن يتقدم بحصان كامل العدة ، والمعدات ، والأسلحة ، عندما يستدعيه الملك ، أو سيده الاقطاعى .

وعلى ضوء التأكيد على الأرض باعتبارها المصدر الذى يجهز الفرسان المسلحين كانت النتيجة الحتمية لذلك هى ظهور الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض ، التى هيمنت على كل جوانب الحياة تقريبا ابان فترة توازن العصور الوسطى . وعلى حين استمرت الشهرة السياسية والاجتماعية لهذه الطبقة فترة طويلة ، بعد أن فقدت مبرر وجودها ــ وهو القدرة على تجهيز الفرسان المسلحين وقيادتهم فى المعركة ــ فان دورها ظل واضحا طوال الفترة من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر ، وهى الفترة التى يطلق عليها عصر الاقطاع . وابان تلك القرون ظلت قوة الملك أو السيد الاقطاعى تحسب وفقا لقدرته على الحصول على فرسان تابعين له بالاضافة الى ما يستطيع أن يقدمه اليه أتباعه الاقطاعيون من فرسان .

على أن التفوق العسكرى ابان عصر الاقطاع ، وما له من تأثير على المجتمع فى العصور الوسطى ، انما كان مرده فى المقام الأول التكاليف الباهظة ، لمعدات الفارس الحربية ، وأسلحته وجواده . وتكونت أسلحته الهجومية من الرمح ، والدبوس الثقيل لكسر الدروع والسيوف . وكان الفارس يضع على رأسه قلنسوة مخروطية الشكل من الصلب . وفى العادة كان لها امتداد طولى فوق الأنف لحماية الوجه . وفيما بعد وضعت لوحة معدنية من خلفه لحماية الجزء الخلفى من الرقبة . واستعمل قميص به حلقات معدنية يصل حتى الرقبة . وحمل الفارس ترسا أخذ حجمه فى الصغر كلما ازدادت ملابسه الحربية قوة . وبنهاية القرن الثانى عشر أصبح شائعا استخدام خوذة على شكل قدر اسطوانى الى حد كبير وبه شقوق طولية للعينين . وفى ذلك الحين أيضا ، أصبح قميص الفارس الذى به الدروع طويلا لقدر كاف حتى أصبح قسمين فى النهاية لغطاء الساقين حتى انه وصل الى الحذاء . وحمت أيضا أطواق من الحديد قدميه . وكان الحديد يحمى هؤلاء الفرسان بشكل كامل فى القرن الثانى عشر لدرجة أن الأتراك أطلقوا عليهم « الناس الحديد » . بيد أن تلك التعديلات تكلفت أموالا باهظة للغاية ، لذلك هبطت أعداد الفرسان ثقيلى العدة على نحو مطرد ، وبدأت تظهر طبقة من الخيالة خفيفة العدة نسبيا ، أطلق عليها اسم « المساعدون Sergeants » .

وكان الحصان أساسيا بالنسبة لفعالية الفارس فى ميدان المعركة بنفس درجة معداته الحربية وأسلحته . ويستطيع الفارس أن يتحدى أى

عدد وهو على ظهر جواده المفضل . غير أنه اذا ترجل من على صهوة جواده استطاع أى جندى متواضع من المشاة أن يطعنه أو يحتفظ به من أجل الفدية . وكما ارتدى الفارس معدات حربية ثقيلة ليحمى نفسه ، فانه فعل ذلك قدر استطاعته مع حصانه . اذ كسا جسد جواده بدروع مرنه ذات زرد ، وكانت تقترب من الأرض شريطة الا تعوق سرعة حركته . ولسوء الحظ فان ذلك لم يكن كافيا أبدا لحماية بطن الحصان من طعنة خنجر أو سكين ، أو سن مدبب لرمح غرزه العدو بالأرض . لقد أثبت جواد الفارس أنه نقطة ضعف قاتلة فى بعض الأحوال .

وثمة عامل آخر فى الاقطاع الحربى ساهم فى ايجاد طبقة أرستقراطية متعالية من ملاك الأراضى . هذا العامل هو القلعة . اذ ظهرت القلاع في العصر الكارولنجي ، وازداد عددها ابان سنوات الاضطراب فى أواخر القرن التاسع ، وفى القرن العاشر ، عندما تدهورت أحوال الامبراطورية الكارولنجية وفقد الملوك معظم سلطتهم . وفى انجلترا برز للوجود الكثير من القلاع فى عهد ستيفين Stephen الضعيف (١١٣٥ ـ ١١٥٤ م) . وفى عدد القلاع وازدياد شهرتها اشارة الى وجود من يملك أكثر مما يحكم بصفة عامة .

كانت القلاع الأولى مبانى صغيرة قوية تستخدم كمأوى ضد هجمات العدو يحميها سور من الحديد القوى المدبب ، أو من الأعمدة الخشبية ومحاطة بخندق مائى ، وغالبا ما كانت تقام فوق تل للعمل على زيادة قوتها ولسهولة التعرف عليها . وفى القرن الثانى عشر حلت القلاع المبنية من الأحجار محل القلاع الخشبية نتيجة للتجربة التى استفاد منها المسيحيون ابان الحروب الصليبية عندما عرف الفرسان المسيحيون الجديد عن القلاع المنيعة فى سوريا . وكان النمط العادى للقلعة هو المبنى الذى له سور خارجى حوله خندق moat-bailey ، وتكون بصفة أساسية من كومة عالية من الأحجار ، وفناء . وعلى الكومة العالية من الأحجار يقام الحصن ، والذى عرف باسم البرج الضخم أو المعقل donjon or keep الذى بلغ ارتفاعه أحيانا مائة قدم أو يزيد ، وفناء يحميه سور ضخم عال ، وخندق مائى عميق يحيط بالسور ، وجسر متحرك فوق الخندق المائى ، للتحكم فى الدخول الى الحصن أو الخروج منه . وحتى انتشار البارود والمدفع الضخم المثبت فى القرن الخامس عشر ، استطاعت أسوار القلاع أن تتحدى جهود أى مهاجم افتقر الى الوسائل التى تمكنه من فرض حصار لفترة طويلة ، وتعريض المحاصرين للموت جوعا . وفى عصر كانت فيه وسائل النقل صعبة ، والخدمات المطلوبة للفارس وجندى المشاة محدودة ، فان فرض الحصار الطويل لم يكن من السهل تحقيقه .

ورغم الاهتمام الشديد الذى حظيت به الطبقة الأرستقراطية وكذلك الفارس فى الكتب والصور التى تصف عصر الاقطاع ، لم يتلاش شأن جندى المشاة تماما ٠

والحقيقة أن مكانته انخفضت انخفاضا شديدا ، على امتداد الحروب ٠ واستطاع الفارس طرده تقريبا من ميدان المعركة ، على حين انخفضت مكانته الاجتماعية أكثر عندما تولت طبقة ملاك الأراضى المراكز القيادية ٠ وبالرغم من ذلك ظل جندى المشاة محتفظا ببعض الأهمية ٠ اذ كان يستخدم فى حماية قلعة ، وفى المساعدة فى الدفاع عن المدن المسورة ، وبخاصة فى ايطاليا ، وفى الأراضى المنخفضة Low Countries ، وساعد فى نقل المعدات وكل ما يلزم لطبقة الفرسان وكان متوقعا أن يقود فرسا آخر على استعداد لتقديمه للفارس عندما يفقد فرسه الأول ٠ ويستطيع جندى المشاة التغلغل بين صفوف الفرسان المعادين ، ويطعن خيولهم أو يشل حركتهم ، وفى استطاعته قتل أو أسر أى فارس يقابله يفقد حصانه ، ومع ذلك ظلت هذه المهام أعمالا اضافية ٠

ان تاريخ الجيوش المكونة من المشاة الذين كانوا على استعداد لشن الهجوم فى القرن الخامس عشر الميلادى لايعود بنا الى هؤلاء الجنود الذين انتشروا بين صفوف الفرسان ، وانما الى جنود المشاة الذين حاربوا دائما باعتبارهم مقاتلين محترفين ٠ ووجدت تلك النوعية فى ويلز Wales واسكتلندا ، وسويسرا حيث أعاقت الأراضى الجبلية استخدام الفرسان ، أو فى بلاد الأراضى المنخفضة ، وفى شمال ايطاليا ، حيث احتاجت المدن المسورة الكبيرة والصغيرة منها الى وجودهم للحماية وأعمال الحصار ٠ فبفضل جهود المشاة استطاع الملوك الانجليز مد نفوذهم على ويلز ، وهو الأمر الذى لم ينجحوا أبدا فى تحقيقه مع الشعب الاسكتلندى ٠ ان ممرات جبال الألب فى سويسرا مكنت سكان المناطق الجبلية من الحاق سلسلة من الهزائم الشنيعة بالجيوش الاقطاعية لأسرة هابسبورج Hapsburgs ، والحصول على استقلالهم ٠ ان جنود المشاة فى اقليم فلاندر Flanders حالوا دون تحقيق طموحات الفرنسيين فى الاستيلاء عليه مرارا وتكرارا كما حدث فى موقعة كورتراى Courtrai سنة ١٣٠٢ م ، وفى ايطاليا كان لجندى المشاة الفضل فى تحقيق انتصار مدن شمال ايطاليا على فردريك بربروسا Frederick Barbarossa الامبراطور الرومانى المقدس ، فى موقعة ليجنانو Legnano سنة ١١٧٦ م ٠

وتفاوتت أنواع الأسلحة التى استخدمها هؤلاء المشـــاة الى حد ما وفقا للفترة التاريخية ، والبلد ، والمنطقة • وبعض هذه الأسلحة كان لا مثيل له فى مكان آخر مثل فأس الحرب الدانمركية التى لها مقبضان واستخدمها الأنجلو سكسون نقلا عن الغزاة الدانمرك • وكان السلاح الواحـد الذى يضم رمحا وفأسا للمعركة halberd شائعا بين أهالى سويسرا ، وهو نوع من الرمح طوله حوالى عشرين قدما ، ويحمل مجموعة منوعة من الأدوات الملحقة المدمرة فى طرفه ، خطاف ليجذب به الفارس أرضا من فوق جواده ، ورمح ، وفأس معركة يستطيع أن يصوبه جندى المشاة القوى بأقصى قوة ينجم عنها تحطيم درع أفضل الفرسان من حيث العدة القتالية • واشتهر أهالى ويلز بأقواسهم الطويلة التى استخدموها بدقة وقوة فائقة • ويدعى جيرالد من ويلز Gerald of Wales مؤرخ شعب ويلز الذى اتصف باطالة الحديث عن الأمور غير المهمة أنه شاهد أطراف سهم انطلق من القوس الطويل ، وقد انغرز لمسافة أربع بوصات فى باب مصنوع من خشب البلوط • وتحدث أيضا عن فارس تسمر جسده بجواده بسهم اخترق أطراف قميصـه الحربى وسرواله القصير ، وفخذه ، وصهوة فرسه ، الى أن اســتقر جزء من السهم فى خاصرة جواده •

وهناك القوس والنشاب ، وهو أشد فتكا بالرغم من أنه أقل دقة وأكثر صعوبة فى اطلاقه • ويرتبط هـذا السـلاح فى العادة بالقوات المرتزقة من أهالى جنوة ، الذين كانوا من بين أول المواطنين فى أوربا الذين حاربوا لقاء أجر • وتنطلق قذيفة هذا السلاح بقوة مروعة وتشوه أى شخص تشويها شديدا ان لم تقتله • انه كان سـلاحا وحشيا للغاية لدرجة أن الكنيسة أصدرت قانونا كنسيا بتحريم استخدامه • ثم يأتى دور الرمح حيث يتم دفن طـرفه الغليظ فى الأرض ، أو يغـرس فى الأرض بالضغط عليه بالقدم ، عند ذلك يمكن لهذا الرمح أن يبقر بطن أى جواد مهاجم • وبصرف النظر عن تلك الأسلحة الخاصة فهناك الأسلحة الشائعة مثل السكاكين ، والخناجر ، والسيوف الطويلة ، وبلطات الحرب، والسيوف المعقوفه عريضة الشفرة ، والقبضة الحديدية ، والرماح ، وكلها مجموعة أسلحة جندى المشاة • ومن أجل الوقاية استخدم جندى المشاة ما يمكن أن يحميه ، مثل الخوذة عندما كان ذلك متاحا ، واســتخدم تروسا وقميصا به دروع ، وقفازات حديدية •

وعلى الرغم من أن جنود المشــاة اسـتطاعوا تحدى تكبر الطبقة الارستقراطية الاقطاعية وفرسانهم فى أماكن من بلاد الأراضى المنخفضة وسويسرا ، فان هذه المنطقة المغرورة التزمت فى النهاية بالسلوك الحسن عند ظهور حاكم قوى • ان الظروف التى ساهمت فى اضعاف الدولة فى

أوائل العصور الوسطى بدأت تعمل لصالح الدولة بعد نهاية عصر الاقطاع . ففى نهاية القرن الحادى عشر ، وبعد أن أشبع الفايكنج والمجريون رغباتهم أو تم استيعابهم ، بدأت أوربا تنعم بحالة استقرار وسلام نسبى وانتشرت الصناعة والتجارة ، وازدادت المدن الكبرى والصغرى فى العدد ، وفى الكثافة السكانية ، وبدأ قدر متزايد من تدفق رأس المال يعمل على تنشيط اقتصاد غرب أوربا ـ وفى وقت قصير استطاع الملوك جمع دخول حكومية كبيرة الى الحد الذى مكنهم من تمويل معظم تكاليف الحرب، وانتزاع توجيه الحرب من أيدى الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض الذين اعتمد عليهم الملوك من قبل . فعلى سبيل المثال ، سمح هنرى الثانى ملك انجلترا لأتباعه الاقطاعيين بدفع مبلغ محدد عرف باسم البدلية ، بدلا من تأدية الخدمة العسكرية . ومن هذه المبالغ استطاع هنرى الثانى استئجار قوات مركزية ، وتعيين قادة لها وفقا لاختياره . ولقد عبرت الكنيسة ، وكذلك الصليبيون عن تأييدهم لظهور الملوك نظرا لأنهم هم الذين لبوا دعوة البابوات بصفة عامة لقيادة الجيوش المحاربة ضد غير المسيحيين . وبفضل ازدياد قوة الحكومات الملكية ، عقدت الكنيسة الآمال الكبرى على اقامة عالم مسيحى ينعم بالسلام .

كان وليم دوق نورماندى أحد الحكام الأول الذين تعاملوا مع أتباعهم الاقطاعيين بحزم ، وهو المشهور بوليم الفاتح لانتصاره فى موقعة هيستنجز سنة ١٠٦٦ م التى على أثرها صار ملكا على انجلترا . وبعد ذلك بوقت قصير وضع لويس السادس ، ملك فرنسا أسس سلطة ملكية قوية استخدمها حفيده فيليب الثانى أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣ م) فى مد سلطته الى معظم فرنسا . وكان أروع انجاز حققه فيليب هو حرمان حنا ملك انجلترا الذى كان تابعا اقطاعيا له ، ويحكم غرب فرنسا ، من تلك الأقاليم ، وهى نورماندى ، واقطاعات أخرى شمال نهر اللوار . وفى سنة ١٢١٤ م شدد فيليب قبضته على تلك الأقاليم ، بعد أن هزم أتو الخامس ملك ألمانيا ، وحليف حنا فى موقعة بوفين . وبعد ذلك بمائة عام تقريبا ، كان فيليب الخامس يأمل فى استكمال العمل الذى بدأه فيليب الثانى ، وطرد الانجليز كلية من فرنسا ، غير أنه منى بهزيمة منكرة فى موقعة كريس سنة ١٣٥٦ م . واستغرق ذلك الأمر قرنا آخر من الصراع قبل أن يتم انجازه فى حرب المائة عام (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣ م) .

وكما ذكر من قبل ، فقد كانت الكنيسة أحد عوامل ظهور السلطة الملكية . ففى القرن الحادى عشر ، أوشكت البابوية أن تنزلق فى مستنقع النزاع السياسى الايطالى ، وناضلت من أجل انتزاع قدميها بمساعدة الملك الألمانى . ثم أخذت على عاتقها مهمة قيادة أوربا لشن

الحملات العدوانية ضد المسلمين والتى عرفت باسم الحروب الصليبية بهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة فى فلسطين . ولم يشترك ملك واحد فى الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ م) . اذ كان الاقطاع فى أوج قوته فى تلك الفترة ولم يكن الملوك فى العادة يزيدون قوة عن أتباعهم الاقطاعيين الذين لديهم تطلعات قيادية . بيد أن ملكى فرنسا وانجلترا توليا قيادة الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ ـ ١١٤٩ م) . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، أصبح من عادة الملوك قيادة جيوش بلادهم بناء على مطالبة البابا الملحة .

ولا توجد مشكلة استحوذت على جهد واهتمام البابوية منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية العصور الوسطى مثل تنظيم الحملات الصليبية ضد تركيا . ولمعرفة الخلفية التاريخية لتلك الحملات ، على المرء أن يرجع الى ظهور الاسلام والدولة التى أقامها محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) كدولة دينية سنة ٦٣٠ م عندما فتح مكة المكرمة . ثم حمل الخلفاء (الراشدون) (*) بعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) الدعوة الاسلامية الى خارج حدود الجزيرة العربية . وعند نهر اليرموك أحرزوا نصرا حاسما سنة ٦٣٦ م على الجيش البيزنطى ، وسيطروا على سوريا ، وفتح لهم الطريق الى فتح مصر وشمال أفريقيا بسرعة . وبعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) (*) وضع شارل المطرقة حدا للتوسع الاسلامى عندما هزم المسلمين المغاربة فى موقعة تور سنة ٧٣٢ م .

وفى ذلك الحين ، وبرغم امتداد الدولة الاسلامية من نهر الهندوس الى بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ومصر ، وشمال أفريقيا ، وعبر آسيا الى جنوب غرب فرنسا ، فان غرب أوربا ظل فى حالة من القلق غير الحاد . ان الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية هى التى زودت الغرب المسيحى بالشعور بالأمن وعزلته عن أى هجوم خطير من قبل المسلمين اذ ان سيطرتها على الأناضول Anatolia ، والقسطنطينية جعلها تتصدى بصفة مستمرة لمحاولات المسلمين الوصول الى البلقان . وفى سنة ١٠٩٥ م أرسل الامبراطور البيزنطى طلبا ملحا للبابا أوربان الثانى Urban II للمساعدة ضد الأتراك السلاجقة ، الذين استولوا على الجزء الأكبر من الأناضول . ان الغرب قد أخذ على عاتقه مهمة الحملات الصليبية تحت قيادة البابوية لتدعيم أركان

(*) ما بين قوسين من عند المترجم .

الدولة البيزنطية الى حد ما ، وبصراحة أكثر لطرد المسلمين من بيت المقدس وبيت ولحم ٠

حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحا كبيرا اذ لم تقتصر نتيجتها على الاستيلاء على بيت المقدس فحسب ، وانما تلا ذلك بعد فترة قصيرة قيام سلسلة من الامارات المسيحية التى امتدت على طول ساحل سوريا الى الشمال ٠ ومع ذلك ، فان مجرد نظرة الى الخريطة تكفى لتحذير أى فرد من غرب أوربا أنه ليس من الواقع فى شىء أن يفكر فى السيطرة على تلك الأراضى اذا ما اتحد المسلمون ٠ ان صلاح الدين هو الرجل الذى استطاع توحيد معظم المسلمين ، وأظهر ضعف مركز المسيحيين ـ ان انتصاره الساحق على جيش الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧ م وما تلاه من فتحه بيت المقدس ، كان أروع أعماله فى حياته ٠

كان نجاح صلاح الدين فى فتح بيت المقدس ، ومن ثم انهائه تقريبا الوجود المسيحى فى سوريا ، دافعا للملوك الثلاثة الذين يقودون أوربا ـ ريتشارد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وفريدريك برباروسا ملك المانيا ـ الى القيام بالحملة الصليبية المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ ـ ١١٩٢ م) ٠ وتبع ذلك حملات صليبية أخرى دون تحقيق نجاح كبير ، ومات لويس التاسع سنة ١٢٧٠ م ابان حدوث ما عرف باسم الحملة الصليبية الأخيرة ٠ وواصلت الحركة الاسلامية موقفها الهجومى ، بظهور الأتراك العثمانيين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فى الوقت الذى ذهب فيه كل ما يتعلق بنوايا الفتح المسيحى لسوريا ، أدراج الرياح ففى ذلك الحين أصبح شغل البابوية الشاغل وكذلك أوربا المسيحية هو عرقلة تغلغل الأتراك فى البلقان ٠ وتحت الحاح البابوية المستمرة ، أعد غرب أوربا جيشا ضخما سنة ١٣٩٦ م تقدم بحذاء نهر الدانوب ، والبهجة تعلو وجوه الجميع لتوقعهم احراز نصر مبين ، الى أن وصلوا الى مدينة نيقوبوليس Nicopolis ٠ وفى ذلك المكان استطاع بايزيد السلطان التركى وجيشه تمزيق الجيش المسيحى شر ممزق ٠ ان بايزيد الذى عرف باسم الصاعقة ، كان يتطلع الى الاستيلاء على مدينة القسطنطينية اذ ان استيلاءه عليها يعطيه السيطرة الكاملة على جنوب شرق أوربا وأكبر المدن فى العالم الغربى ٠ وكان فى استطاعة بايزيد الاستيلاء على القسطنطينية فى ذلك الحين لولا الخان المغولى ، تيمور الأعرج (تيمولانك) حيث فقد بايزيد جيشه فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ م على يد تيمور ، وبعد ذلك بوقت قصير مات أسيرا فى مدينة سمرقند عاصمة تيمور ٠

ان معركة أنقرة تحمل علامتين مميزتين للعصور الوسطى : فعلى الأرجح أنها اعتمدت على عدد من المحاربين ، الذين كانوا بلا ريب من الفرسان يفوق بكثير عدد قوات أى معركة قبل العصور الحديثة ، وأنها كانت احدى المعارك الكبرى الأخيرة التى لم يلعب فيها البارود والمدافع الضخمة دورا بارزا • ووصل تأثيرهما الى العصر الجديد ، الذى كان فجره على وشك البزوغ •

٢ ـ معركة شالون

من بين الصور التاريخية التى تثير اهتمام المرء ، لوحة جصية للفنان رفائيل Raphael تحمل عنوان « البابا ليو الكبير وأتيلا » حيث يظهر البابا محاطا بالكرادلة وبعض رجال الكنيسة الآخرين فى مواجهة ملك الهن وجماعته من المحاربين ، كما يظهر والدخان والدمار الذي خلفه أتيلا Attila ، الذي كان يتوعد به روما وامتلأت خلفية اللوحة ببعض مبانيها المشهورة ، بما فيها مدرج روما القديم ، الكولوسيوم Colosseum • وفي الصورة تظهر يد ليو مرفوعة ، ويبدو بوضوح أنه يأمر ملك الهن بالعودة من حيث أتى • على أن أروع الشخصيات التى ظهرت فى الصورة بطرس الرسول وبولس الرسول وهما يحومان فى السماء فوق البابا ليو ، وفى أيديهما سيفان يهددان أتيلا بالموت اذا ما حاول أن يتحدى أمر البابا ، والعبرة من هذه الصورة أن أتيلا ارتد على أعقابه ، متأثرا اما بالموقف الصلب الذي سلكه الحبر المقدس أو بسيفي الرسولين ، وأنه انسحب ومعه جيشه الى المجر •

واذا تساءلنا عن مدى صحة الأحداث المترابطة مع الحياة الواقعية المعبرة عن الماضى والتى تكون عرضة لرفضها ، فان بهذه القصة شيئا من الصحة ، اذ ان البابا ليو الكبير قابل أتيلا بالفعل • ومن المحتمل أن هذه المقابلة تمت فى أواخر صيف ٤٥٢ م ، على بعد حوالى ستين ميلا شمالى روما بالقرب من شاطىء بحيرة جاردا Lake Garda حيث كان ملك الهن معسكرا • ولم يرافق ليو فى هذه المهمة أحد من الكرادلة ـ اذ لم يتم التعرف عليهم وعلى قبعاتهم الحمراء الا بعد ذلك بكثير ـ وانما رافقه اثنان من أشهر رجال السناتو المشهورين : هما تراجيتيوس Trygetius وأفينوس Avienus • كما أن طبيعة مباحثاتهم مع أتيلا ليست معروفة ولم يذكر البابا ليو شيئا عن المحادثة كما ذكر المؤرخ المسيحى بروسبير Prosper الذى كتب تقريرا عما حدث بعد هذه الحادثة بسنوات قلائل • أما الرسولان والسيف فقد أضيفوا فيما بعد لزخرفة أحداث القصة • ومع ذلك تبقى حقيقة أن أتيلا عاد الى المجر فور اجتماعه بالبابا ليو •

كان أتيلا أشهر القادة « البرابـرة » الذين أنزلوا الخراب والدمار بالامبراطورية الرومانيـــة ابان فتــرة تدهورها • ولقــد فعل ذلك ملوك برابرة آخرون • على أن كلمة برابرة كانت تستعمل على نطــاق واسع بمعنى غــير الرومانيين أو شــبه المتحضرين ـ وكان ألاريك Alarik ملك القــوط الغربيين أول رؤســاء القبــائل الجرمانية العــديدين الذين « اجتاحوا » مدينة روما سنة ٤١٠ م • وبعــد ذلك بخمس وأربعين عاما قام الملك الجرمانى جزريك Gaiseric الوندالى ، الذى حــكم شمال أفريقيا غربى مصر ، بنهب المدينة الخالدة Eternal City مرة ثانية • وجاء أودواكر Odovacer بعد أتيلا ، الذى يحتمل أن يكون جرمانيا سكيريان Scirian • وكان أقل رعبــا كقائد من البرابرة • وعلى الرغم من أنه حظى بشهرة راسخة على أنه الرجل الذى عــزل رومولوس أوغســـطولوس Romulus Augustulus آخر « الأباطرة الرومان » فى الغرب • وبعد أودواكر جاء ثيودوريك الذى جعل ايطاليا قاعدة لمملكة القوط الشرقيين القوية الشكيمة التى اقتطعها من الامبراطورية التى كانت تحتضر • هؤلاء وملوك آخرون من البرابرة حظوا بشهرة فى فترة تدهور الامبراطورية الرومانية أكثر من أتيلا الذى ينتمى الى قبائل الهن • وبالرغم من ذلك استمرت شهرة أتيلا على أنه أشد الأعداء تخريبا ، واثارة للفزع حيث تعرضــت لأفعاله الامبراطورية الرومانية المنهارة •

والشىء الذى أعطى أتيلا هذه السمعة المخيفة هو ميــل الكتاب فى العصور الوسطى الى الاشارة اليه على أنه «سوط الله» Scourge of God اذ رأوا الله غضــب على البشر فســلطه عليهم لانغمــاس الانســان فى الرذيلة • ولئن كانت بعض الكوارث من عمــل الطبيعــة فانهــا لم تكن لتثير من الخراب والدمار ما أحدثه أتيلا والهن • حقيقة أن أتيلا لم يحتل مدينة روما قط ، غير أن قدومه كان كفيلا باثــارة ذعر الرومان اذ خطر ببالهم على نحو أشد من تفكيرهم فى ألاريك ، على سبيل المثال الذى « نهب » مدينة روما فعلا • فقبل كل شىء لم يكن أتيلا مسيحيا كما كان ألاريك الأريوسى المذهب الذى كان مســيحيا لا يؤمن بمذهب الكنيســة الكاثوليكية • بيد أن الطوائف المسيحية التى لاتدين بمذهب الدولة كان ينظر اليها على أنها أفضل بكثير من الوثنيين من أمثــال أتيلا • كما أن الروايات التى قدمها المعاصرون عن الهن جعلت الشعب المتحضر يرتعش خــوفا ، حتى ان أتيــلا وجيشــه دفعوا شــعوبا مختلفة وكثيرة الى نبذ عداواتهم المتبادلة وحمل السلاح فى موقعة شالون Chalons • ففى هذه الموقعة كانت كل الشعوب من نهر الفولجا Volga الى المحيط

الأطلسي اما متحـــالفة مع ملك الهن العنيـد أو ضـده ، كما ذكر المؤلف ادوارد جيبون في كتابه ، « تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ·

قليل من الرومان هم الذين شاهدوا الهن ، بيد أنهم سمعوا عنهم ، وعن أســاليبهم الوحشية ، من المسافرين والعبيد الذين ســقطوا في أيديهم ، ويقول عنهم جوردين Jordanes انهم كانـــوا من ذرية الساحرات والأرواح النجسة ، ولا عجب حينئذ أنهـــم كانوا « قبيلة من الأقزام الأشرار الضعاف النفوس ، والمجردين من الانسانية ولم تكن لهم لغة خاصة بهم ، وانما مجرد أصوات شبيهة بصوت البشر » (١) · وكان مظهرهم مخيفا لدرجة أن الشعوب القوية كانت تهرب في فزع تجنبـــا للقائهم ، « لأن لونهم الداكن كان يبعث على الخوف ، وكان الفرد منهم عبارة عن كتلة من اللحم لا شكل لها وليس لها رأس ، وبدلا من العينين يوجد ثقبان صغيران ·· ومع أنهم كانوا يعيشون كما يعيش البشر فانهم كانوا وحوشا في قسوتهم ··· » (٢) ·

ووردت هذه الأوصاف عن الهن في كتابات أحد القوطيين في القرن السادس الميلادى ، وهو مؤرخ قليل البراعة في أحسن الأحوال ، عاش في زمن كان فيه خطر الهن مجرد ذكرى كئيبة · أما ما يمـــكن الاعتماد عليـــه في وصف الهن فهو ما كتبـــه جنـــدى يونانى يدعى أمينوس مارســيلينوس Ammianus Marcellinus الذى دون تاريـخ الامبراطورية الرومانية في الفترة ما بين ٣٥٣ م الى ٣٧٨ م · ومات امينوس حوالى سنة ٤٠٠ م · ومع ذلك لم تكن انطباعاته عن الهن مســـتمدة من العلاقات الشخصية وذكـر أن موطن هذا العنصر البشرى المتوحش في شرق بحر آزوف Azov · والشيء الذى يفسر مظهرهم الجسماني البغيض وجود عاهات تقليدية ، « اذ كانت وجنتا كل طفل بها آثار تجاعيد عميقة من آثار الكى بالحديد الساخن عند مولدهم · ونتيجة لوجود تلك الندبات المتصلبة فانهم كانوا يكبرون دون أن تنبت لأحدهم لحية ، ودون أن يكون لهم جمال الخصيان · وكان لكل منهم أطراف قوية ومكتنزة ، ورقبة غليظة ، وأما الوجه فكان قبيحا بصورة بشعة ومشوها للحد الذى قد يحسب المرء أنهم من الحيوانات ذات الساقين » ·

ويؤكد أمينوس للقارىء أنه على الرغم من بشـــاعة منظـر هؤلاء الهن ، « فان لهم التكوين الشكلى للبشر » · ولم يستعمل الهن النار في اعداد طعامهم ، كالشعوب المتحضرة كما لم يعيشوا في بيوت ، وتجنبوا بناء المقابر للأشخاص العاديين وكانوا بدوا رحلا · « ولم يحدث أن حرث فرد واحد حقلا في أراضيهم ، أو لمس مقبض محراث · ولم يكن لأى منهم محل اقامة ثابت ، وعاشوا دون مأوى ، أو قانون ، أو أسلوب حياة متفق

عليه • وظلوا يهيمون على وجوههم من مكان لآخر ، كاللاجئين ومعهم عرباتهم التى اتخذوها مكانا للمعيشة » • وصنعوا ملابسهم من الكتان أو من جلود فئران الحقول ، ولم يغيروا ملابسهم أبدا ولكنهم ، « عندما يرتدون رداء طويلا يشد بحزام حول الخصر Tunic ، باهت اللون فانهم لايغيرونه الى أن يتحول الى خرق بفعل الزمن ثم يتساقط قطعة بعد قطعة » • « وكان الرجال يقضون معظم أوقات حياتهم على ظهور الخيل يمارسون شراء وبيع حاجياتهم البسيطة ، ومن مأكل ومشرب ونوم ابان تنقلاتهم ، بل ويمارسون ادارة شئونهم التى تسمح بها ظروفهم وهم على ظهور الخيل أيضا •

ومن الممكن الاعتماد على وصف أمينوس للهن فيما يتعلق بالأسلحة التى استخدموها وطريقتهم فى القتال ، ونظرا لأنهم كانوا يقضون معظم حياتهم على ظهور الخيل ، فانهم كانوا فرسانا مهرة لأنهم « كانوا معتادين على خفة الحركة والسرعة والمواقف المفاجئة ، كما كانوا يقسمون أنفسهم فجأة الى جماعات متناثرة ويهاجمون ويندفعون هنا وهناك دون نظام محدثين مذبحة مروعة • ووصفهم أمينوس بأنهم « أشد المحاربين جميعا اثارة للرعب لأنهم يحاربون من مسافات بعيدة مستخدمين القذائف التى بها عظمة بدلا من طرفها المدبب فى العادة وهذه العظمة الحادة مربوطة بالرمح بمهارة فائقة ثم ينقضون بسرعة ليقطعوا المسافة التى بينهم وبين العدو ويقاتلون وجها لوجه بالسيوف دون مبالاة » •

ان استهتار الهن بالمسئولية الأخلاقية ضاعف من شراستهم • « واذا ما عقدوا هدنة كان لا يؤمن لهم جانب ، وكانوا يميلون بشدة الى انتهاز أى فرصة دون مراعاة المشاعر • وكانوا يجهلون كلية الفرق بين الصواب والخطأ كالحيوانات الجامحة ، وكانوا مخادعين ، ويجنحون الى المراوغة عند محادثتهم • ولم يعتنقوا دينا أو يوقروا عقيدة » • على أن الشيء الذى ساعد على تفاقم تلك الغرائز الدنيئة ، ودفعهم للعمل هو ، « شغفهم الذى لا نهاية له بالذهب » • وباختصار كتب أمينوس ، « ان هذا الجنس من البشر الذى لم تعقه أى روابط والذى كان يتحرق شوقا مدفوعا بالرغبة اللا انسانية الى انتزاع ممتلكات الآخرين شق طريقه العنيف بعمليات السلب والنهب والقتل التى شملت الشعوب المجاورة له » (٣) •

ولسوء الحظ فانه منذ أن دون المؤرخون الأول الأوصاف المزعجة عن سلوك الهن وتصرفاتهم فى القرنين الرابع والخامس للميلاد لم يظهر أى شيء مكتوب له أهمية تذكر يمكن أن يخفف من كآبة الصورة التى تركوها عنهم • وساعدت الاكتشافات الأثرية الى حد ما على تقديم قدر

ضئيل من الأدلة الواضحة عن نوع الحياة التي عاشها الهن عندما كانوا يعيشون شرق بحر قزوين ٠

على أن أقوى العوامل التى حددت سمات الهن وطرق معيشتهم كان بلا شك مناخ الأراضي التى عاشوا فيها ٠ فنتيجة للأمطار القليلة التي كانت تسقط في أواسط آسيا ، ونعني بذلك أراضي السهول الواسعة الخالية من الأشجار والممتدة شرق جبال الأورال الى منغوليا ، وضع المؤرخون فى الماضى شعوب تلك المنطقة فى قائمة البدو الرحل ٠ ولم يكن لهؤلاء القوم مواطن دائمة ٠ كما أن بحثهم عن الطعام اللازم لهم ولسلالاتهم جعلهم فى حالة تنقل مستمر من مكان الى آخر ٠ بيد أن اكتشاف هذه الأماكن المهمة نسبيا فى بلاد الهن دفع العلماء الى تطوير وجهة نظرهم الأولى عن الهن واعتبروهم شعبا شبه بدوى ٠ ويبدو أن الهن شغلوا مساحات دائمة ، وعلاوة على ذلك ، تحركوا في نطاق منطقة شاسعة ٠ وفي الربيع كانوا يسوقون قطعانهم شمالا تجاه المراعي التي كانوا بها فى العام السابق ، وعندما يقترب الربيع يعودون ثانية الى محل اقامتهم الشتوى الذى اعتادوه ٠ مما يعد سمة هامة للحياة البدوية الحقيقية ٠

ومنذ فجر التاريخ اعتمدت حياة البدو وأشباه البدو على تربية الحيوانات ولايمكن استثناء الهن من ذلك ٠ فاقتنى الهن قطعانا كبيرة من الخيول والأغنام بالاضافة الى الماشية ٠ وأمدتهم الخيول بوسيلة الانتقال واستخدموها فى زمن الحرب ، كما كانت موردا هاما للحوم والألبان ٠ وكانوا يسلقون قطعا غليظة وقصيرة من لحوم الخيول في مراجل ضخمة ويعتمدون على لبن الفرس كشراب لهم فى مسيرهم ٠ وأمدتهم الأغنام بالطعام ، والملبس والمأوى واللبن ، واللحم والجلود والمنسوجات الصوفية أو اللباد لخيامهم والجلد لصناعة أحذيتهم ٠ وأحيانا كانوا يمارسون الألعاب الرياضية وصيد الأسماك ، وقد أفلحوا في زراعة الدخن ، برغم قلة الأمطار وقصر مدة فصل الزراعة ٠ ان أيديهم لم تلمس محراثا على الاطلاق اذ لم يتم اكتشاف شفرة محراث واحدة فى الأرض التى كانوا يعيشون فيها ٠ وهذا هو مبلغ نجاحهم فى هذا الميدان، ويبدو أن أمينوس مارسيلينوس محق فى قوله ٠

ورغم أن اقتصاد الهن كان قائما على الاكتفاء الذاتى فانهم مارسوا نوعا من التجارة مع الشعوب على امتداد حدودهم ٠ وكانت صادراتهم الأساسية الخيول والعبيد ٠ اذ قاموا بتربية الخيول ، وأسر العبيد ابان اغاراتهم وفى زمن الحرب ٠ ولم يكن لديهم حاجة لاستخدام العبيد ٠ أما الذهب الذى حصلوا عليه مقابل بضائعهم أو حصلوا عليه أثناء

اغارتهم ، فكانوا يشترون به النبيذ والحرير ، أو ربمـــا اكتفوا بترك مدخراتهم من الذهب تتكدس كما فعل الآفار Avars ، والمجريون •

وفى رحلتهم البطيئة الى المراعى الشماليـة وفى عودتهم الى مأواهم الشتوى نقل الهن الأطفال الصغار والمسنين والعجزة فى عربات لها أربع عجلات • وعندما يتطلب الأمر سرعة أكثر ، كما كان يحدث عند الاغارة كانوا يستخدمون عربات ضخمة ذات عجلتين ، وعندما يرغبون فى اســتخدام أقصى سرعة كانـوا يمتطون صهوة خيولهم • ان سرعة هذه الخيول تركت انطباعا قويا عند المراقب الغربى ، هذا بالاضافة الى قدرة تلك الحيوانات على التحمل والجلد بشكل يفوق العادة • ولا شك أن الأحوال فى بلاد الهن جعلت خيولهم تتمرس على تحمـــل الظروف التى لايمكن للخيول الغربية تحملها ، كما ذكر فيجيتيوس Vegetius الكاتب الرومانى فى القرن الرابع الميـلادى ، فقـد لاحظ فيجيتيوس ، « أن الحصـــان الرومانى كان يفوق الحصـان الذى يستعمله الهن فى الذكاء والهيئة ، الا أن الحصان عند الهن كان أكثر صبرا ، وقدرة على الاعتماد عليه ،وعلى تحمله للمشـــاق • وفى الحقيقة كانت خيول الهن حيوانات بشعة المظهر ، لها رؤوس كبيرة ، وأعين بارزة ، وتتدلى شعور أعناقها حتى الرجلين الأماميتين وضـلوع قفصها الصـــدرى كبـيرة ، وحوافرها مفرطحة ، ومع ذلك لم تخل من مسحة من الجمال برغـم قبح مظهرها » (٤) •

وبناء على ما سبق ذكره ، فيبدو أن ما ذكـره أمينوس عن براعة الهن العسكرية الفائقة كان صحيحا • فقـــد تفوقوا كفرســـان وكرماة بالسهام • وتعلموا تلك المهارات ومارسوها منـذ الصبا • فبالاضـافة الى القوس والسهم حمل المحارب من الهن سـيفا ورمحا ، وربما أنشوطة Lasso وهو سلاح كان شائعا بين شعوب السهول الواســعة الخالية من الأشجار Steppe وكان هذا السلاح منفصلا عنـد الألن Alans • واعتمد الهن على قطع من الجلد محشوة بالصـــوف كغطاء للحماية هذا فى حالة اذا لم يتمكنـوا من الاســتيلاء على حديد أو شرائه من الشعوب المجاورة لهم والأكثر منهم تحضرا • وكان الفــرد منهم يحمل ترسا مصنوعا من الأغصـــان الصغيرة المجدولة ، والمغطـاة بالجلد •

ويرجع الكثير من الميزات التى تفوق بهـــا الهن على أعدائهم الذين دخلوا معهم فى قتال الى سرعة خيولهم ، وقدرتها على التحمل • فكانت المسافات الطويلة بسـيطة بالنسـبة اليهم ، وكانوا فى العادة يصلون أسرع مما يتوقع أعداؤهم الذين كانوا يصـابون بالاضطراب • وعند

اقترابهم من عدوهم كانوا يحدثون ضـــجة مخيفة ، ثم يطلقون وابلا كثيفا من السهام وبعده ينقضون على العدو فى معركة وجهـــا لوجه • ولقد برع الهن شأنهم شأن المحاربين فى المناطق السهلة الواسعة الخالية من الأشجار فى العالم فى المناورة بالانسحاب السريع • ولم يستعملوا مهمازا أو ركابا بالصورة التى نعرفها ، لكنهم استخدموا نوعا من السروج الخشب الذى كان يساعدهم على البقاء على مطاياهم فى أمان •

وعلق كل من جوردين Jordanes وأمينوس على أساليب حياة الهن الفاسدة ، بيد أنهما لم يذكرا شيئا عن المعتقدات الدينية والتقاليد كما أن جهود علماء الآثار لم تقدم الا القليل لتوضيح مشكلة دياناتهم • لقد كان منهم عرافون ، ورجال تنبؤ بالفال الحسن أو السيىء واستخدموا التعاويذ ، وصنعوا الأوثان من الأحجار الكريمة ، والأحجار ، والطباشير ، وثمة دليل على أنهم قدموا القرابين من الحيوانات لآلهتهم • على أن العلماء توصلوا الى تحديد اله كان يعبده الهن ، وهو عبارة عن سيف مقدس كان يرمز الى اله الحرب • ولكننا لا نعرف أسماء آلهتهم التى كانت على شكل انسان أو حيوان ، كما لم يتجرأ عالم على القول بأن لهم كهنة •

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى ، عندما استعد أتيلا للاتجاه بجيشه غربا الى بلاد الغال ، اعتقد أمينوس ومعاصروه أن ما يدور بخلد الهن مجرد شن غارة من غارات البدو الرحل مادام أن الطعام أكثر وفرة شمال البحر الأسود عنه فى أى مكان فى الأراضى المنبسطة شرق بحر قزوين • وعلى الرغم من استخدام الغالبية للعربات الكبيرة أو الخيام المصنوعة من اللباد كمساكن ، فان الشخصيات الطموحة والثرية عاشت فى ديار مصنوعة من الخشب • وظلت تربية الحيوانات هى المصدر الرئيسى للطعام ، فقاموا بزراعة بعض الدخن وشربوا نوعين من الشراب يشبهان الجعة والميد meâd عند الجرمان • واستهلكوا أيضا كميات كبيرة من النبيذ ، وكان البائعون الجائلون يقومون بتهريبها من جنوب نهر الدانوب • ولم يشجع قادة الهن التجارة مع الرومان ، وقيدوها بالسوق السنوى الذى كان يعقد على نهر الدانوب والذى كان يعقد بعد سنة ٤٤٧م فى مدينة نيس Naissus (Nis) • على أن السلع التى احتاجها الرومان بشدة من الهن كانت العبيد والخيول •

ولا ريب فى وجود طبقات اجتماعية عند الهن شرق بحر قزوين ، وهو الأمر الذى ظهر بوضوح فى وصف الكتاب الغربيين عندما تحدثوا عن أتيلا وشعبه فى المجر • فبعد الملك وممارسته لمركز السلطة العليا وجدت طبقة أرستقراطية قامت على المولد والخدمة العسكرية وكون قادة تلك الطبقة نوعا من مجلس الدولة الذى قدم المشورة للملك • وجد الملك

حرسه الخاص من بينهم • وتغمت الطبقة الارستقراطية بحق اختيار الغنائم والعبيد • وفى عهد أتيلا ، نعم أونجيبوس Onegsius أحد أفراد الطبقة الارستقراطية بمركز مشابه لرئيس الوزراء أو الوزير • وشغل مكانة الشرف فى المناسبات الرسمية ، وعاش فى منزل يلى فى الحجم منزل أتيلا •

ونظرا لانخفاض المستوى الثقافى لشعب الهن لم توجد حدود فاصلة بين الطبقة الأرستقراطية وطبقة العامة من الرجال والنساء • وكان معظم شعب الهن ينتمى الى الطبقة الأخيرة • وكانت الغالبية العظمى من الهن أحرارا • وكانت ثقافتهم البدوية الترحالية تقف عائقا ضد امتلاك الرقيق على نطاق واسع • وكانت أدواتهم الاجتماعية ساذجة للغاية ، وكانوا يفضلون الذهب على العبيد ، اذ كانوا على استعداد لمقايضة العبد بالذهب • والعبد الوحيد الذى ذكره بريسكوس Priscus معلم ومؤرخ القرن الخامس الميلادى كان المهندس المعمارى الرومانى الذى كلفه أونيجيسيوس ببناء حمام حتى يستطيع أن يستمتع بمظاهر الرفاهية الرومانية • وكان هذا الرومانى يأمل فى الحصول على حريته مقابل براعته •

ولم يدفع الهن ضرائب ، اذ ان الاحتياجات البسيطة لحضارتهم البدوية لم تجعل هذا الأمر ضروريا ، كما أن افتقارهم الى النظام الادارى جعل تحصيل الضرائب أمرا مستحيلا • وكان على كل فرد من الهن أن يحمل الأسلحة التى أعدها لنفسه ، وبعد انتهاء الحرب لم يكن هناك حاجة الى الموارد المالية • ومع ذلك فبالرغم من أن الأساليب البدوية تركت للهن حرية شخصية أكثر مما يسمح بها أى مجتمع راسخ ووطيد ، فان تلك العادات البدوية نفسها تفسر فشل الهن فى اقامة مجلس يضم الرجال الأحرار يضع السلطة المطلقة للقبيلة فى أيدى الغالبية كما كان الحال عند الجرمان •

لم يعرف أمينوس ومعاصروه شيئا عن نشأة الهن أكثر من أنهم شعب قد أتى من البلاد غير المعروفة خلف بحر قزوين وأنهم عاشوا فى الاقليم الواقع شرق الدانوب ، وهى أراض لم يكن يعرفها كتاب العصور الوسطى الأولى • اذ اعتاد الكتاب القدامى الاكتفاء بالاطلاق على أى شعب يعيش خلف الدانوب لفظ السكيثيين Scythians

وبحلول القرن الخامس الميلادى كان الكتاب البيزنطيون يفرقون بين الهن والبرابرة الشماليين ، وكان هذا هو كل شيء : اذ كانوا لا يعرفون شيئا يتعلق بموطن الهن القديم فى آسيا • ولم يقدم لغة الهن شيئا يفيد فى حسم هذا الأمر ، كما لم يتمكن علماء اللغات من تقديم شيء يفيد فى هذا المجال • ولنا أن نتساءل اذا ما كان لهؤلاء الهن علاقة مع الهسيوج نو

Hsiung No الذين هاجموا الصين ابان القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ومن أجل ذلك بنى الصينيون السور العظيم • وأيا كان الحال فمن المرجح أنهم من الشعوب المغولية الآسيوية • ولذلك فانهم أبنـاء عمومة للآفار والمجريين الذين تبعوهم فيما بعد من الأراضى المنبسطة الخالية من الأشجار خلف بحر قزوين الى جنوب روسيا •

ظهـر الهن حـوالى سـنة ٣٨٥ م فى السهول الواقعـة شـمال البحر الأسود • وهناك دخلوا فى معارك ضد الألن والشعوب الآسيوية الأخرى (٥) الذين أخضعوهم لسيطرتهم بعد سنوات عديدة من الاغارات المتبادلة • ونجح بعض الألن فى أن يشقوا طريقهم غربا ، حيث شاركوا العديد من القبائل الجرمانية فى اجتياح بلاد الغال وخضع معظم الألن لسلطة الهن وانضموا اليهم فى اخضـــاع شعب القوط الشرقيين الذين عاشوا غرب الألن تماما • ونجح بعض القوط الشرقيين فى الهروب غربا ليلحقوا بأبنـاء عمومتهم القوط الغربيين الذين كانوا فى طريقهم تجاه الدانوب كى يفلتوا من خطر الهن •

ومنذ ذلك الحين فحسب أصبح العالم الرومانى على علم بوجود هؤلاء الهن • ذلك لأن الهن أكثر من غيرهم من الشعوب المتبربرة ، كانوا مسئولين فيما عرف بالتسرب التدريجى للشعوب الجرمانية شبه المتحضرة الى داخل الامبراطورية عبر نهرى الراين والدانوب • وصار هذا النشاط حركة قوية وكانت نذيرا بنهاية العالم القديم فى الغرب • وفى سنة ٣٧٥ م حصـــل القوط الغربيون Visigoths على موافقة فالينز Valens الامبراطور الرومانى سريع الفهم والادراك على أن يعبروا نهر الدانوب الى داخل أراضى الامبراطورية وبذلك جعلوا هذا النهر حصنا قويا فى وجه الهن • وبعد ذلك بعامين اتحد هؤلاء القوط وكذلك القوط الشرقيـــون Ostrogoths وانضم اليهم الألن ، واستطاعوا جميعا القيام بثورة ، وقضوا على فالينز وجيشه الرومانى فى موقعه ادريانوبل Adrianople (٣٧٨ م) ، ولم تفق الامبراطورية من هذه الكارثة أبدا •

على أن المخاوف التى انتابت كثيرا من الرومانيين سنة ٣٧٦ م من أن يتعقب الهن القوط الغربيين عبر نهر الدانوب لم تتحقق • كما أن التاريخ العام للامبراطورية الرومانية من سنة ٣٧٦ م الى ٤٥٠ م أعطى للهن أهمية قليلة • وفى خلال تلك الفترة التى امتدت حوالى خمسة وسبعين عاما شغلت التاريخ شعوب متبربرة شمالية أخرى أولا : كان هناك القوط الغربيون ولفترة من الوقت قنع هؤلاء القوط بالبقاء فى الأراضى المهجورة فى تراقيـــا ومؤزيا Moesia التى كان قد حددهـــا لهم الامبراطور ثيودوسيوس خليفة فالينز ، غير أن ذلك لم يكن لفترة طويلة • فعندما

مات ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م ثاروا مرة أخرى ، وفى هذه المرة تحت قيادة الأريك Alaric أشهر قادتهم . ولأكثر من عقد من الزمان قاد الأريك شعبه والحلفاء الألن عبر بلاد اليونان واقليم ايلليريا Illyrium ينهبون ويسلبون فى الوقت الذى كانوا فيه يبحثون عن موطن لهم . وحينما كان ستيليكو Stilicho القائد الوندالى يقود الجيش الرومانى فى الغرب على قيد الحياة لم تكن هناك فرصـــة فى التوغل فى أراضى ايطاليا ، حيث كان ألاريك يأمل فى أن يقود شعبه الى هناك . ولكن فى ســـنة ٤٠٨ م أعدمه هونوريوس Honorius الامبراطور الرومانى الضعيف الذى كان يخشاه . وفى سنة ٤١٠ م احتل الأريك وأتباعه من القوط الغربيين روما ، وأباحوا نهبها لمدة ثلاثة أيام ، ثم تحركوا جنوبا . وعندما مات الاريك ، خلفه أثولف Athaulf زوج ابنته ، الذى قاد القوط الغربيين ثانية الى شمال ايطاليا وعبر الجزء الغربى من جبال الألب الى بلاد الغال ، وفى آخر الأمر أقام أول الممالك الجرمانية فى اقليم أكويتين Aquitaine . وفى سنة ٤١٥ م عبروا جبال البرانس الى أسبانيا .

وهناك قبائل جرمانية أخـرى كانت فى طريقها الى داخـل حـدود الامبراطورية . ولم يجدوا مقاومة تذكر لصدهم لأن ستيليكو كان قد سحب القوات الرومانية من حـدود نهر الراين وبريطانيا ابان محاولاته لابعاد الاريك عن ايطاليا .

وبناء على ذلك ففى عامى ٤٠٥ ـ ٤٠٦ م عبرت أعداد من القبائل الجرمانية نهر الراين . وكان الوندال من بين تلك القبائل الجرمانية . ونهبوا كل ما صادفهم فى طريقهم عبر بلاد الغال حتى وصلوا الى اسبانيا . وبعد ذلك بعدة سنوات أقاموا مملكة قوية فى شمال أفريقيا . وكانت مملكة الوندال فريدة فى رفضها لقبول الترتيبات الأمنية التى لجأت اليها القبائل الجرمانية الأخرى بشأن الاعتراف بسيادة روما (٦) . ومع ذلك فان الشىء الذى كان أكثر خطورة من هذا التحدى هو ذلك الأسطول الذى شيدوه واستخدموه فى السيطرة على غرب البحر المتوسط . ومكنهم هذا الاسطول من نقل القمح بحرا من أفريقيا ، وكانت روما فى حاجة اليه لاطعام سكانها ، كما مكنهم هذا الاسطول من اجراء المقايضات لصالحهم مع القبائل الجرمانية المحالفة Foedrati فى الشمال .

ومن القبائل الجرمانية التى كانت تصنع التاريخ ابان للفترة بين ٣٧٦ م و ٤٥٠ م بعد أن استدعى ستيلكو الفرق الرومانية من بريطانيا : الانجليز Angles ، والسكسون Saxons التى بدأت فى العبور الى الجزيرة البريطانية فى أعداد متزايدة عندما وجدوا أن المواطنين الأصليين غير قادرين على صدهم . ولكنهم لم يكملوا فتحهم لبريطانيا الا فى نهاية القرن السادس الميلادى . كما أن الفرنجة الصاليين Salian Franks

الذين كان الامبراطور جوليان Julian قد سمح لهم بشغل المنطقة التى تقع بين ميوز Meuse ، وشيلدت Scheldt ، مدوا سيطرتهم حتى السوم Somme ، وكذلك الألمان Alemanni والفرنجة الريبوريون Ripaurian Franks والبرجنديون Burgundian عبروا أيضا نهر الراين ، وقام الأخيرون بشق طريقهم حتى وصلوا الى وادى الرون ٠

وأين كان الهن فى ذلك الوقت وماذا كانوا يفعلون ؟ ربما انضم قليل منهم الى القوط الغربيين فى موقعة أدريانوبل سنة ٣٧٨ م على الرغم من أن هذا الافتراض مشكوك فيه ٠ ومن المحتمل أنهم ابتعدوا بأنفسهم عن شئون الامبراطورية ، واكتفوا فى ذلك الحين بنهب جيرانهم واسترقاقهم ٠ واذا كان الهن قد عبروا اقليم الدانوب للمشاركة فى نهب وسلب اقليم تراقيا Thrace بعد مأساة ادريانوبل فانهم عادوا على الفور الى موطنهم شمال نهر الدانوب ٠ ويوجد سجل تاريخى عن اغارات عبر ذلك النهر ٣٨٤ م ولكنها كانت على القوط الغربيين وليست على الرومان ، اذ كان ثيودوسيوس قد عهد الى القوط الغربيين بالدفاع عن ذلك الاقليم ، فى مقابل منطقتى مؤيزيا Moesia ، وداكيا Dacia الشاسعتين اللتين تنازل عنهما ثيودوسيوس ، وكان القوط الغربيون بمثابة « درع لا يقهر ضد اغارات الهن » (٧) ٠

ومما يثبت الدور الرئيسى للهن فى مواجهة الامبراطورية الرومانية ابان نصف القرن التالى لمعركة أدريانوبل اعداد القوات العسكرية وتجهيزها للدفاع عنها اذ احتاج الأباطرة الشرعيون الى فرسان الهن بدرجة ملحة ، وكذلك الأباطرة الانتهازيون الذين زعموا أحقيتهم للعرش الامبراطورى ٠ ففى سنة ٣٢٨ م نجح الامبراطور ثيودوسيوس فى الحاق الهزيمة بماكسيموس Maximus المدعى بأحقيته فى العرش بفضل مساعدة الهن والقوات المساعدة من البرابرة الآخرين ٠ واحتفظ ستليكو بقوات من الهن فى جيشه ابان حملاته ضد الاريك كما فعل أيضا عندما تصدى لمنافسه أيوجينوس Eugenius الذى ادعى أحقيته فى العرش بل ان روفينوس Rufinus ، « الرجل القوى » فى القسطنطينية ابان عهد الامبراطور أركاديوس Arcadius غير المقتدر ، احتفظ بحرس شخصى من الهن ٠ ووصل الأمر الى أن سمح روفينوس لآلاف من الهن بالعبور الى تراقيا ، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، حيث استقروا فى أراض منحتها لهم الحكومة الامبراطورية ٠

وفى السنوات الأخيرة من القرن الرابع الميلادى ظهرت مملكة الهن شيئا فشيئا من بين القبائل المنتشرة والمستقلة الى حد كبير ، وظهرت لأول مرة شمال البحر الأسود ٠ وهناك فى هذا الاقليم الخصب كان من السهل

على رؤساء القبائل الأقوى والأكثر طموحا أن يمارسوا قدرا من السلطة • ولا شك أن نموذج القبائل الجرمانية المجاورة الذين قبلوا قيادة شيخ القبيلة أو الملك أثر على قبول الهن التدريجى للنظام نفسه •

ويعتبر أولدين Uldin أول ملك للهن ورد ذكره عند الكتاب الرومان • واستنتج العلماء أن سلطته كانت اسمية الى حد كبير • وقدم هذا الملك المساعدة للرومان ، كما قدمها الى ستليكو ، ثم قاد الغارات عبر نهر الدانوب كلما سنحت الفرصة لذلك ، على ما يبدو ، أو بناء على مقترحات شيخ القبائل • ومن الواضح أنه كان يفتقر الى السلطة فى اجبار القـادة الآخرين على عدم التعامل مبـاشرة مع الامبراطورية أو مهاجمتها • وفى سنة ٤٠٨ م انتهز أولدين فرصة الموقف الحرج الذى واجه ستليكو والامبراطورية نتيجة لتحييد الاريك وقاد الهن عبر الدانوب الى اقليم تراقيا • بيد أنه عاد مسرعا الى المجر طلبا للنجاة عندما علم أن العديد من رؤساء قبائل الهن قد قبلت الأموال الامبراطورية ورفضوا تقديم العون لهم •

وهناك القليـل من الروايات القوية عن الهن ابان العشرينيـات والثلاثينيات من القرن الخامس فقبل هذا التاريخ بوقت طويل استطاع الألن التخلص من سيطرة الهن والقيام بعمل منفرد حيث عبروا نهر الراين الى بلاد الغال • هذا فى الوقت الذى تضاءلت فيه اغارات الهن فى تلك الفترة • ويوحى كل ذلك بعدم وجود قيادة قوية وليس معنى هـذا أن السلطة المركزية للهن قد انتهت بدليل أن أيتيوس Aetius قائد القوات الرومانية فى الغرب سنة ٤٢٥ م استطاع تجنيد عدة آلاف من الفرسان الهن للعمل تحت قيادته •

وظهر ملك جـديد للهن ابان تلك الفترة التى اكتنفهـا الغموض اسمه روجا Ruga ، غير أنه ليس هناك ما يبين بوضوح ما اذا كان خليفه للملك أولدين ، أو أحد رؤساء القبائل • وفى حين لا نجد سوى القليل عن هذا الحاكم فقد لاحظ العلماء أنه انتهج سياسة حافظ عليها الهن من بعده وقامت على التعامل مع الامبراطورية الرومانية على أنها امبراطوريتان منفصلتان ، امبراطورية غربية وأخرى شرقية • ولا ريب أن هذه السياسة كانت معقولة • وأنها حدت من وطأة الرومان على الهن ، كما أنها مكنت الهن كذلك كلما سنحت الفرصة ، من أن يفرضوا الحقوق الممنوحة لهم على هذا الجزء من الامبراطورية أو ذاك بسهولة أكثر • ومن ثم أمد روجا Ryga أيتيوس Aetius بالفرسان ابان الفترة التى كان أيتيوس يدير فيها الشئون العسكرية والسياسات الامبراطورية فى القسم الغربى من الامبراطورية • وأما بالنسبة لأباطرة القسم الشرقى فلم يقتصر الأمر على

رفض روجا تقديم مساعدة لهم ، وانما حرم على رؤساء قبائله تقديم أى عون لهم • وفى الوقت نفسه طلب اعانة سنوية قدرها ثلاثمائة وخمسون رطلا من الذهب من ثيودوسيوس الثانى الامبراطور الشرقى • وعندما التحقت جماعة من الهن بخدمة الامبراطور الشرقى متحدية أوامر روجا ، شرع فى مهاجمة القسطنطينية غير أن المنية وافته سنة ٤٣٤ م قبل أن يأمر جيشه بالسير •

أحدث موت روجا موجة عامة من الفرح وتعشمت العاصمة خيرا اذ ان روجا لم يترك ابنا قادرا على خلافته واعتقدوا أن قوة الهن ستخمد ، وسيكون هناك عودة الى حد كبير الى السياسة الايجابية التى انتهجها الهن قبل اعتلاء روجا العرش •

غير أن توقعات القسطنطينية تمخضت عن خيبة أمل شديدة لأن بليدا Bledo وأتيلا Attila وهما ابنا مونديك Mundiuch شقيق روجا توليا السلطة كملكين مشتركين دون أية صعوبة تذكر • ووافقت القسطنطينية على الحاكمين الجديدين ، ووافقت على عقد معاهدة جديدة معهما دون تردد ، ودون اجراء مفاوضات مطولة • وضمنت هذه المعاهدة استعادة كل الذين هربوا الى بلاد الهن مقابل فدية قدرها ثمانية صوليديات Solidi عن كل شخص • وتعهدت القسطنطينية بألا تعقد أية معاهدة مع أى شعب من الشعوب المتبربرة يكون فى حالة حرب مع قبائل الهن ، كما تعهدت الامبراطورية مع الهن أيضا على اقامة أسواق موسمية على نهر الدانوب • وأخيرا زادت الاعانة السنوية التى كانت تقدمها القسطنطينية الى الهن من ثلاثمائة وخمسين رطلا من الذهب الى سبعمائة رطل • وأصبح واضحا أن الحاكمين الجديدين اهتما بادارة أمور الدولة بقبضة من حديد • وذلك عند عودة اثنين من أبناء أحد رؤساء القبائل كانا يعملان فى خدمة القسطنطينية ، اذ تعرض كل منهما لعقوبة الاعدام صلبا على الفور •

واستمر الأخوان أتيلا وبليدا يشتركان فى مسئولية الحكم لمدة زادت على عقد من الزمان • وكان بليدا هو الأكبر سنا ويبدو أنه حقق لنفسه مركز الصدارة على أخيه ، على الرغم من أن قوة شخصية أتيلا حققت له عنصر التفوق حتى قبل سنة ٤٤٥ م (أو ٤٤٦ م) ، عندما قال باغتيال أخيه •

وفى الوقت نفسه ما أن فرضت المعاهدة الجديدة على القسطنطينية حتى كرس الأخوان جهودهما لفرض سيطرتهما على القبائل المختلفة بالاضافة الى الشعوب الجرمانية التى دانت بالاعتراف بالحكم الهنى • وكان شعبا الجيبيد Gepids والقوط الشرقيون Ostrogoths من أهم

الشعوب التى اعترفت بالحكم الهنى • وكذلك قبائل الروجيان Rugians والهيرول Heruli والسكريان Scirians والتركيلنجى Turciling والســـويفى Sueves وآخرون • على أن اللومبارديين Lombards كانوا القبيلة الوحيدة الكبرى فى شمال الدانوب التى نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها على الرغم من أن أتيلا نفسه لم يكن يعرف حدود امبراطوريته على وجه الدقة ، فان المؤرخين يعتقدون أنه مارس سلطة فعالة على الشعوب فى النمسا ، والمجر ، ورومانيـــا ، وجنوب روسيا ، وجزء من بانونيـــا Panonia جنوب نهر الدانوب وكان مركز قيادته فى المجر فى مكان ما بين نهر الدانوب وأنهار ثيس Theiss • ونظرا لأن المبانى كانت مشيدة من الخشب فقد فشـــل علماء الآثار فى الكشـــف عن أية آثار لعاصمته •

ان أتيلا ، الرجل الذى حكم هذه الامبراطورية الضخمة والذى تاقت نفسه الى احتلال كل أوربا ، احتل مكانه جنبا الى جنب مع جنكيزخان وتيمور لانك كأحد الثلاثة الغزاة الذين أثاروا الفزع ، والذين أنجبتهم شعوب آسيا • ولم تتبق سوى صور وصفية موجزة لأتيلا • فلم يكتب بريسكوس Priscus المؤرخ المعاصر سوى القليل عنه على النقيض من كتابات المؤرخ جوردين الذى كتب بعد موت أتيلا بقرن من الزمان • ففى تاريخه عن القوط قدم الصور التالية عن ملك الهن : « انه رجل ولد ليهز أركان الأمم ، انه سوط لكل البلاد ، استطاع أن يرعب كل الجنس البشرى بفضل الاشاعات المثيرة للذعر التى ذاعت عنه • وكان متكبرا فى مشيته يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشما ، لدرجة أن قوة الاعتداد بنفســه تجلت فى حركات جسمه • والواقع أنه كان مولعا بالحرب • ومع ذلك كان لديه المقدرة على كبح جماع نفسه أثنـاء العمل ، وربما فى تقبل النصيحة ورءوفا بالمتوسلين اليه ، وكان لين الجانب مع هؤلاء الذين ارتضوا حمايته لهم • وكان قصير القامة عريض المنكبين ، كبير الرأس ، صغير العينين ، وكانت لحيته خفيفة مقاربة الى اللون الرمادى • وكان افطس الأنف ، وتميل بشرته الى اللون الداكن مما يدل على أصله » (٨) •

ولا تختلف هذه الصورة الوصفية جوهريا عن الصورة التى قدمها المؤرخ بريسكوس الذى شاهد أتيلا سنة ٤٤٨ م عندما ذهب مع وفد من القسطنطينية الى بلاد ملك الهن • وقدم بريسكوس مفتاحا لقدرة أتيلا على ممارسة تلك القوة الخارقة على شعبه وعلى كثير من الأمم الأخرى أيضا • وكتب عن كيفية محافظة أتيلا على عزلته عن الآخرين فلم يكن يسمح الا لأفراد أسرته وأكثر المستشارين تقربا اليه بالاقتراب منه وكان يصر على الالتزام التام بمراعاة مظاهر التشريفات الملكية • وكانت عاداته فى تناول الطعام وارتداء الملابس تميزه عمن حـــوله • فعلى الرغم من أن طبقتـــه

الارستقراطية كانت تأكل وتشرب في أوان من الذهب فانه كل يتناول طعامه في طبق من الخشب ، « وكانت ملابسه بسيطة للغاية اذ لم يكن يهتم سوى بنظافتها ، ولم يكن هناك سيف بجواره ولم يكن هناك أبزيم كالذى يستعمل فى أحذية البرابرة ، ولم يكن لفرســه لجام ، كما كان يفعل السكيثيون الآخرون • وكان مثلهم يتزين بالذهب أو الجواهر أو غير ذلك من الأشياء الثمينة » (٩) •

وكان تصرف أتيلا مخالفا لرؤساء قبائله ابان الاحتفال فى أعقاب الوليمة التى شارك فيها بريسكوس وأعضاء الوفد الرومانى أتيلا ورجال البلاد • فعندما ، « دخل أحد المهرجين أدخل السرور على قلب كل فرد بمظهره ، وبملابسه وبصوته والكلمات التى ينطقها باختلاط (لأنه كان يخلط ما بين لغة الهن والقوط واللغة اللاتينية) ولم يستطع أحد أن يمنع انطلاق الضحكات العالية باستثناء أتيلا ، فانه ظل ساكنا ولم تتغير تعبيرات وجهه ، ولم يبدر عنه ما يشـــير الى احســـاسه بالسرور لا بالكلام ولا بالحركة » (١٠) •

ولم يبد أتيلا دليلا مقنعا على دهائه فى أى مكان أكثر مما قدمه فى تعامله مع الشعوب الخاضعة له ، اذ نجح فى أن يكفل لنفسه احترامهم وتعاونهم بمعاملته لقادتهم باحترام وبزيارتهم بنفسه طلبا للمشورة • وكان أردريك Ardaric ملك الجيبيد ، ووالمر Walamer أحد ملوك القوط الشرقيين من بين أكثر المستشارين الذين كان يثق بهم • وكان رعاياه من الألمان ملزمين بالمشـــاركة بالرجال المسلحين فى حالة التهديد بالخطر فحسب • ومع ذلك لم يتمتع الرعايا الآخرون مثل السلاف بنفس قدر الامتيازات ، اذ كان من الممكن معاملتهم باحترام أقل دون خطر • كما كان من واجبهم دفع نسبة من انتاج مزارعهم وماشيتهم وقطعانهم •

وهناك دليل آخر على ذكاء أتيلا ، ما لم يكن قصة مخترعة ، وهى رفضه تغيير عادات شعبه خشية أن يؤدى ذلك الى ذوبان شخصية شعبه فى الشــــعوب الأكثر عددا من حوله كالجرمان والسلاف • وعلى عكس ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذى نظر نظرة احترام للثقافة الرومانية فان أتيلا لم يبد سوى احتقاره للحضارة الرومانية • والشىء الذى أعجبه فى الامبراطوريات جنوب الدانوب والراين هو ثراؤها فكان ما طلبه منها هو الذهب •

وفيما يتعلق بالقيم الروحية والفكرية ظل أتيلا على مثال زملائه الهن وكان واضحا أنه لا يبدى رغبة فى أن يتغير •

وفى علاقاته مع الامبراطوريتين الشرقية والغربية استمر أتيلا فى انتهاج سياسة أسلافه ، اذ تعامل مع كل منهما كدولة منفصلة عن الأخرى ،

ونجح فى منعهما من التعاون سويا ضده واستطاع بذلك فقط أن يفرض على كل منهما تقديم التنازلات ، والحصول على الذهب منهما • ولكى يحد من حركة الامبراطورية الشرقية فانه ضاعف من طلبه للذهب وطارد أباطرتها بالسفارات المستمرة من أجل الحصول على الذهب • ومنذ سنة ٤٥٩ م دفع الامبراطور الغربى الذهب ليس كاعانة سنوية رسمية وانما على شكل راتب لأتيلا باعتباره قائدا من قواد الجيش وهو منصب شرقى (١١) • ولم يغب ذلك عن بال المعاصرين واعتبر بريسكوس ذلك مجرد ستار لاخفاء دفع الاعانة السنوية • ومع ذلك فانه كان أقوى سلاح فعال استغله أتيلا فى تعامله مع الامبراطورية الغربية وهى سياسة آتت أكلها ، اذ كانت الامبراطورية في حاجة اليه لامدادها بالقوات المساعدة للمحافظة على بقائها •

وكان أيتيوس Aetius القائد الفعلى للجند هو الرجل الذى إنتهج سياسة الاعتماد بصفة أساسية على القوات المساعدة من الهن لحماية حدود الامبراطورية الغربية ، ففى سنة ٤٢٥ م استخدم جيشا من الهن للمساعدة في المحافظة على عرش الامبراطور فالينتينيان الثالث Valentinian III بعد وفاة الامبراطور هونوريوس Honorius • وفي سنة ٤٣٣ م ، استطاع بمساعدة الأصدقاء الهن اجبار فالينتينيان ووالدته بلاسيديا Placidia الوصية على العرش أن يعترفا به كقائد للجند • ومنذ تلك السنة وحتي وفاته سنة ٤٥٤ م كان ايتيوس الحاكم الحقيقى للامبراطورية الغربية والموجه الأول للسياسة الامبراطورية •

ويعرف ايتيوس بلا مبرر الى أحد ما بأنه « آخر الرومان » ، وهو من مواليد اقليم مؤيزيا السفلى Lower Moesia • وكان والده من أهالى ذلك الاقليم • أما والدته فكانت ايطالية وهى السبب فى وضعه فى قائمة الرومان • ونظرا لأن والده عمل فى روما كقائد فانه بدأ حياته العسكرية في سن مبكرة وكان من الناحية الواقعية رهينة عند الاريك ثم عند الهن فيما بعد • وابان السنوات التى قضاها مع الهن تعلم لغتهم وأقام صداقة وطيدة مع الملك روجا وقضي ابنه كابيليو Capilio بضع سنين رهينة في بلاط الهن •

وعالج كل من الكتاب المعاصرين والمؤرخين فيما بعد شخصية أيتيوس برقة • وربما يرجع بعض هذا الحظ السعيد الى واحدة من الوثائق القليلة التي عاصرت تلك الفترة المضطربة ، انها وثيقة الاطراء والمديح التى كتبها ريناتوس بروفوكوروس فريديريدو Renatus Profuturus Frideridus وأشارت تلك القصيدة الى أيتيوس على أنه رجل « خال من الجشع والطمع » ولا يهتم الا بمصالح الامبراطورية • غير أن الامبراطور فالينتنيان الثالث كان يرتاب فى أمره لذلك أمر باعدامه • ولا ريب أن أيتيوس كان قائدا

قديرا • ففى أوائل عهـده تمكن من احباط خطة القوط الغربيين عنـد محاولتهم الاستيلاء على أرل Arles واحتلال ناريونيس Narionese فى بلاد الغال • وفى سنة ٤٣٦ م حقق أحد القادة التابعين له نصرا مؤزرا على البرجنديين وهو الحادث التاريخى الذى تحدثت عنه ملحمة النبلونجليد Nibelunglied

وفى سنة ٤٤١ م حدثت المشكلة الأولى الخطيرة لروما مع أتيلا عندما ذبح الهن التجار الرومان الذين ذهبوا الى نهر الدانوب لممارسـة أعمالهم التجارية • ومن المحتمل أن الأمر الذى دفع أتيلا لاختيـار تلك اللحظة بالذات لانهاء علاقاته الودية مع روما ، كانت أنباء ارسال ثيودوسيوس الثانى امبراطور القسطنطينية ، قوة عسكرية لمساعدة فالينتنيان الثالث ضد الوندال فى جزيرة صقلية والحالة هذه استطاع أتباعه من الهن مهاجمة هؤلاء التجار دون التعرض لخطر الانتقال •

ومن الراجح أن أتيلا كان قد توصل الى قدر من التفاهم مع جزريك ملك الوندال وفقا لما أعلنه أحد الكتاب المعاصرين • على أية حال ، فعندما احتج المبعوثون الرومان على تلك الهجمات لدى أتيلا القى مسئولية ما حدث على كاهل الرومان باعتبار أنهم تراخوا فى دفع الاعانة المالية السـنوية واستمروا فى ايواء الهاربين ، ومارسوا عمليات نهب للمقابر الملكية التابعة للهن • على أن الاتهـامين الأولين كان لهما طابع التكرار وسواء كانت الاتهامات حقيقية أم غير حقيقية ، فمن المحتمل أنها كانت على وشـك الحدوث • أما الاتهام الخاص بالمقابر فقد كان اتهاما جديدا وربما كان صحيحا • وعلى أية حال فان أسقف مدينة مارجوس Margus الذى اتهمه الهن على وجه التخصيص بنهب مقابرهم الملكية عقد اتفاقا سريا مع الهن الذين وعدوه بعدم التعرض له اذا ما سلمهم مدينة مارجوس • وبالفعل وبدون قتال استلم الهن مدينة مارجوس المهمة فى اقليم مؤيزيا Moesia

هـذا فى الوقت الذى هاجمت فيه جماعات أخرى من الهن اقليم تراقيا ، وايليريا ، واستولت على مدن نهر الدانوب ذات القلاع • وتلت ذلك فترة من الهدوء المؤقت سنة ٤٢٢ م وبما نتيجة لهدنة رسمية • بيد أن السنة التالية شهدت عودة الهن مرة ثانية ، فاستولوا على مدينة راتياريا Ratiaria (أركار Arcar) على نهر الدانوب ، وقاموا بتدميرها ، وكذلك سنجدونوم Singidunum (بلجراد Belgrade) ونياسنوس Naissus (نيس Nis) وسارديكا Sardica (صوفيا Sofia) ثم اتجهوا صوب القسطنطينية • واستولوا على فيلبولوس Philippolus وعندما الحقوا بالجيش الامبراطورى الذى كان تحت قيادة أسبار Aspar هزيمة نكراء ، لم يعد أمام القسطنطينية من خيار سوى طلب التفاوض •

وضاعفت المعاهدة الجديدة الاعانة السنوية ثلاث مرات حيث ارتفعت من سبعمائة رطل من الذهب الى ألفين ومائة رطل ، وطالبت من جديد بضرورة عودة الفارين • وزادت الفدية الخاصة بالمساجين الرومان الفارين من ثمانية الى اثنى عشر صوليديا Solidi عن الفرد الواحد •

وأنهى سلام السنوات الأربع تلك المعاهدة المذلة المشتراة عندما أرسل أتيلا قبائله المعتادة على السلب والنهب عبر نهر الدانوب • وليس من المعروف اذا ما كان هناك ذريعة رسمية للقيام بهذا العمل • ومن المحتمل أن هدفه الحقيقى كان الاستمرار فى استنزاف موارد الامبراطورية ، واضعاف معنوياتها الى حد الوهن الكامل • ونفذ محاربوه غاراتهم المدمرة عبر اقليم البلقان واتجهوا جنوبا حتى وصلوا الى ثرموبيلاى ، Narbonese وفى تقدمهم استولوا على سبعين مدينة وقلعة ودمروها جميعا • وفى سنة ٤٤٨ م طلبت القسطنطينية التى لا حول لها ولا قوة فتح باب المفاوضات • وأصرت المعاهدة الجديدة على ضرورة دفع ستة آلاف رطل من الذهب لتغطية متأخرات الاعانة ، وفرضت على الرومان ضرورة عودة كل الهاربين من الهن ، وألزمت الامبراطور بألا يجند أحدا من الهن فى المستقبل • وأمر الامبراطور بالجلاء عن شريط من الأراضى طوله مسيرة خمسة أيام فى عمق أراضى الامبراطورية ويمتد على امتداد الضفة اليمنى لنهر الدانوب من مدينة سنجيدونوم الى نوفاى Novae وسستوفا Sistova • وما أن تم جلاء القوات الرومانية عن تلك المنطقة ، وصارت مهجورة حتى استطاع الهن شن غاراتهم عبر هذه الأراضى الخالية من الجند حتى وصلوا الى تراقيا وايليريا ، دون عائق من أى نوع • وفى ظل وجود هذه الأراضى الشاسعة التى كانت محرمة على الرومان ، أصبح من الصعب أيضا على الامبراطورية تجنيد القوات المساعدة من بين الشعوب التى تعيش فى الشمال •

شهدت هذه السنة ٤٤٨ م وصول أتيلا الى قمة قوته واختلف الموقف عن ٤٤٣ م عندما تم التفاوض بشأن المعاهدة الأولى • فعلى الرغم من أن ثيودوسيوس كان قد وافق على زيادة الاعانة السنوية الى الفين ومائة رطل من الذهب فمن الواضح أنه لم يكن لديه نية حقيقية للدفع وفعلا لم يدفع • واذا كانت الامبراطورية قد تمكنت من عدم السداد دون خطورة سنة ٤٤٣ م فان أتيلا بعد سنة ٤٤٨ م لم يكن على استعداد للتغاضى عن الاخلال بشروط المعاهدة •

واستقر الموقف سنوات قلائل ويبدو أن أتيلا قنع بالحصول على الاعانة السنوية الباهظة من الامبراطورية الشرقية ، ورضى بالحصول على « الراتب » الذى كان يحصل عليه من الامبراطورية الرومانية الغربية باعتباره « سيدا للجند » وكان هناك بعض الاضطرابات سنة ٤٤٩ م

بسبب المؤامرة التى دبرها كريسافيوس Chriysaphius الوزير صاحب السلطة والنفوذ الأعلى فى عهد ثيودوسيوس الثانى من أجل اغتيال أتيلا وكان كريسافيوس قد اعتقد أنه نجح فى استمالة أدكون Edecon المستشار الرئيسى لأتيلا الى جانبه بعد أن قدم اليه الرشوة • وبالفعل قبل ادكون الرشوة مقابل اغتيال أتيلا • بيد أنه كشف عن تفاصيل المؤامرة عند عودته الى المجر • وفى بداية الأمر طالب أتيلا باعدام كريسافيوس ثم أبدى شيئا من اللين فيما بعد •

شهد صيف ٤٥٠ م حادثا ذا أهمية قصوى هو وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الثانى فى يوليو • وفى السادس والعشرين من أغسطس أى بعد مضى أربعة أسابيع على وفاة ثيودوسيوس الثانى انتخب مجلس الشيوخ مارقيان Marcian الذى كان تربيونا Tribune متقاعدا خلفا له • ونظرا لأن انجازات مارقيان الحربية لم تكن شهيرة لذلك لابد من وجود اعتبارات أخرى حملت مجلس الشيوخ على اختياره ومن بين تلك الاعتبارات أنه عمل فى المجلس الحربى كضابط معاون لأسبار ، أقوى القادة العسكريين للجند فى الامبراطورية الشرقية • ولابد أن مارقيان قد أعطى تعهدا على نفسه لمجلس الشيوخ بالعمل على انهاء دفع الاعانات المالية التى يحصل عليها أتيلا ، اذ ان مجلس الشيوخ والطبقة التى يمثلها هما اللذان عانيا بشدة من الاتاوة التى كان يحصل عليها أتيلا منذ أن أدت سياسة كريسافيوس الى اجبارهم على دفعها •

واذا كان مارتيان قد وعد مجلس الشيوخ بالتوقف عن سداد الاعانة السنوية الى أتيلا فانه كان صادقا فى وعده • فبعد أن أصدر أوامره باعدام كريسافيوس أرسل مندوبه أبولونيوس Apollonius لابلاغ أتيلا بعدم دفع أى اعانة له • وعندما علم أتيلا بطبيعة مهمة أبولونيوس رفض مقابلته على الرغم من أنه طلب الهدايا التى اعتادت تلك الوفود على حملها • ولابد أن بعضا من شجاعة مارتيان انتقلت الى أبولونيوس لأنه أعلن أنه طالما أن أتيلا رفض مقابلته فانه من يعطيه الحق فى الحصول على الهدايا • وكان فى استطاعة أتيلا الحصول على الهدايا وقطع رقبة أبولونيوس كذلك ، بيد أنه فكر بطريقة أفضل • فلم يكن أتيلا راغبا فى محاربة القسطنطينية أو أن يفقد احترامه أمام الملوك الجرمان التابعين له ، اذا ما أساء معاملة شخص السفير ، اذ ان ذلك يعنى انتهاك أحد الأسس الدبلوماسية العتيقة •

وفى ربيع سنة ٤٥١ م تحرك أتيلا بجيشه الضخم تجاه نهر الراين فى هجوم استهدف منه سيادته على الامبراطورية الرومانية الغربية • ولابد أن توقف الحصول على الاعانة من القسطنطينية حثه على ذلك ولكنه اختار أن يصدر قراره بالتحرك تجاه الامبراطورية الغربية بدلا من الامبراطورية

الشرقية ، نظرا لقوة تحصين القسطنطينية • واستطاع أتيلا وأتباعه من الهن مهاجمة أقاليم البلقان وقتما شاءوا • بيد أن الاغارات الأولى تركت تلك الأقاليم خاوية على عروشها الى الحد الذى جعل أى غزوات يقوم بها الهن لتلك المنطقة قليلة الجدوى • ومن ناحية أخرى فان احتلال القسطنطينية لم يكن أمرا واردا • اذ ان الاستحكامات التى شيدها الامبراطور أنثيموس سنة ٤٣١ عززت سنة ٤٣٩ م ومرة ثانية سنة ٤٣٧ م • كما أنه فى حالة شن الهن لهجماتهم على تلك التحصينات لم يكن هناك سبيل لمنع الاسطول البيزنطى من امدادها بكل ما تحتاجه من المواد التموينية • وبالاضافة الى ذلك فان فشل محاولات الهن فى الاستيلاء على القسطنطينية كان سيعرض وجود امبراطورية الهن للخطر الشديد ، واذا ما لاحت بادرة ضعف فسيرتد الملوك الجرمان عن ولائهم لسلطة أتيلا وسيضمحل ولاء قادة القبائل الأخرى البعيدة •

وعلى العكس من ذلك فان الامبراطورية الغربية كانت تخلو من تلك العوائق كما أن بلاد الغال وايطاليا استردت رخاءها منذ الهجات الأولى التى شنها القوط الغربيون والوندال • وبالاضافة الى ذلك فان تلك الأقاليم أغرت بالحصول على غنائم أقيم بكثير عما يمكن الحصول عليه لأى حملة عسكرية فى بلاد البلقان وبالطبع كانت هناك احتمالات تصدى لخطة أتيلا ، على الرغم من نضوب المصدر الذى كان يعتمد عليه هذا القائد الرومانى أيتيوس Aetius وعدم حصوله على قوات مساعدة من الهن الأمر الذى جعل جيشه ضعيفا الى حد كبير • واذا ما استطاع أتيلا منع حدوث تعاون بين القوط الغربيين وأيتيوس فانه لن يجد صعوبة فى اجتياح الغرب •

ويبقى السؤال عن السبب الذى جعل أتيلا يختار هذا الوقت بالذات لشن هجومه على الامبراطورية الرومانية الغربية • ربما الاجابة على ذلك هى رفض الامبراطورية الشرقية دفع الاعانة السنوية للهن • ويقدم المعاصرون تفسيرات جديدة أخرى • بيد أن المؤرخ المدقق ربما يجد تصديقها من الصعوبة بمكان •

وتحكى احدى القصص أن أحد الرعاة وجد فى باطن الأرض « سيف أريز » (*) المقدس لدى ملوك السكيثيين مما أقنع أتيلا بأنه سيكون سيدا على العالم •

وهناك قصة أخرى تبدو خيالية تتعلق بهونوريا Honoria شقيقة فالنتينيان الثالث وهى امرأة عرفت بقوة الارادة • وكانت هونوريا

(*) هو اله الحرب عند الاغريق — المترجم •

قد شوهدت فى موقف غرامي مع المسئول عن تدبير شئون قصرها ، ومن ثم أمر شقيقها باعدامه • ولكى لا يحدث ما شابه ذلك فى المستقبل ، أعلن فالنتينيان الثالث خطبة هونوريا التى حاولت عدم اتمام هذا الزواج فأرسلت سرا الخصي هيكنثوس Hyacinthus الى أتيلا لمناشدته مساعدتها وزودت رسولها بخاتمها لكى تقنع رئيس الهن بمصـــداقية التماسها • وفسر أتيلا ارسال الخاتم على أنه عرض للزواج به لذلك طلب يد هونوريا على الفور ، ونصف الامبراطورية كحقهـــا فى الميراث • ومن المحتمل أن يكون هذا المطلب قد أرسله أتيلا الى ثيودوسيوس الثانى الامبراطور الأكبر فى القسطنطينية الذى رحب بالفكرة •غير أن فالنتينيان فكر بطريقة أخرى اذ أمر بقطع رقبة هيكنثوس وأوشك أن يفعل الشىء نفسه مع هونوريا لولا توسلات بلاسيديا Placidia والدته المسنة • ومع ذلك أجبرها على الزواج فورا بعضو فى مجلس الشيوخ ثرى حتى يضع نهاية لأى مشاكل تقوم بها أخته من هذا القبيل (١٢) •

وترتبط رواية أخرى بين غزو أتيـــلا للامبراطورية وجوزريك ملك الوندال الذى كان يخشى القوط الغربيين الذين كانوا يهددون مملكته • وهذه هى الرواية وفقا لما ذكره جوردين : « وفى ذلك الحين عندما علم جوزريك ملك الوندال أن أتيلا عقد العزم على تدمير العـــالم ، حرضـه على شن الحرب ضد القوط الغربيين بارساله الهدايا الكثيرة اليه ، لأن جوزريك كان يخشى أن يقوم ثيودريك ملك القوط الغربيين بالانتقام للأذى الذى لحق بابنته • وكانت ابنة ثيودريك قد تزوجت من هومرك Humeric ابن جوزريك ، وكانت سعيدة فى زواجها فى بداية الأمر غير أنه صار قاسيا معها فيما بعد بل ومع أطفاله • وبسبب مجرد شك فى أنها حاولت دس السم له ، قام بجدع أنفها وصلم أذنيهـــا ثم أعـادها الى والدها فى بلاد الغال بعد أن حرمهـــا من جمالها • وهكذا أثارت هذه السيدة التعسة الشفقة بصفة دائمة ، هذا فى الوقت الذى ظلت تطالب والدها بالانتقام • ولذلك بذل أتيلا جهودا لاشعال نيران الحرب بتحريض جوزريك الذى قدم اليه الأموال • وأرسل أتيلا السفارات الى ايطاليـــا لمقـابلة الامبراطور فالنتنيان بهدف اثارة المنازعات بين القوط والرومان ••• لأنه بالاضافة الى شراسة أتيلا الشديدة كان رجلا خارق الذكاء وكان يحارب مستخدما سلاح المكر والخداع قبل أن يخوض المعركة » (١٣) •

ويرفض المؤرخون رواية جوردين بصفة عامة باعتبارها من صنع الخيال باستثناء الجملة التى تتحدث عن دهاء أتيلا • ففيما يتعلق بالدهاء فهناك دليل على أن أتيلا حاول منع القوط الغربيين والرومان من حشد قواتهما ضده بمحاولة اقناع كل طرف أنه ينوى محاربة الطرف الآخر • وعلى أية حال فان أمله فى أن يبعد هذين العدوين اللذين لهما ثقلهما القوى

كان تصرفا حكيما • كما كان القوط والرومان أعداء منذ الحرب التى استمرت من سنة ٤٣٦ م الى ٤٣٩ م عند ناربونيز Narbonese فى بلاد الغال وآرل Arles حيث ادعى القوط الغربيون أنها تتبعهم وفى سنة ٤٤٦ م منح ثيودريك حق الحماية الى سباستيان Sebastian بعد أن لجأ اليه حين فشلت محاولته لاحباط خطة أيتيوس لتولى منصب قيادة الجند • وبعد قليل وفى السنة نفسها حصل ثيودريك على موافقة أتيلا ، بالاضافة الى امداده بقوات من الهن ابان محاولاته لفتح اسبانيا •

على أن فشل أتيلا فى احداث تباعد بين روما والقوط الغربيين أنقذ الامبراطورية فى الغرب • ولفترة من الوقت بدأ يتردد ويتساءل عما اذا كان من غير مصلحته أن يرى الرومان والهن يقتتلان حتى يفنى كل منهما الآخر ، كما أن هذه الفرصة السعيدة بالنسبة له سوف تمكنه من احتلال ناربونيز فى بلاد الغال دون معارضة • وكما حدث فان خطر أتيلا كان شاملا • وعرض ثيودريك أن يشارك أيتيوس • ومن المثير للانتباه أنه لم يطلب التنازل له عن اقليم آرل ثمنا لتعاونه • وكان قرار ثيودريك مدهشا بكل ما فى الكلمة من معنى لأن الجيش الذى أعده أيتيوس للتصدى لأتيلا ربما كان من أضعف الجيوش التى تولى قيادتها • وزاد الأمر خطورة عدم وجود قوات مساعدة من الهن الذين اعتاد أيتيوس الاعتماد عليهم بصفة دائمة ، وتكون الجيش الذى عبر به جبال الألب من القوات الرومانية بالاضافة الى الجماعات الجرمانية التى كانت قد استقرت داخل حدود الامبراطورية مقابل أداء خدمات عسكرية Laeti ، وكذلك قوات المحالفين الذين عاشوا على امتداد حدود الامبراطورية ، وتعهدوا بالدفاع عن الحدود foederati ، وهم الذين توقع حضورهم لمساعدته عندما وصل الى بلاد الغال (١٤) •

واستطاع أيتيوس الحصول على بعض المساعدة أيضا من الفرنجة الريبوريان Ripurian Franks الذين اعترفوا بخلافة الابن الأصغر للملك المتوفى • وقد لجأ الابن الأكبر الى أتيلا للاعتراف به ، وكان دافع أتيلا على التحرك هو امكانية ضمان التحالف مع الفرنجة لصالحه • ومهما كان الحال فان أيتيوس كان قد تبنى الابن الأصغر من قبل ووعده بمساعدة روما •

أما سانجبون Sangibon ملك الألن فكان يحكم دولة صغيرة تشمل مدينة أورلين Orleans التى اتخذها عاصمة له • وفى وقت سابق لهذا عندما صار من الواضح بالنسبة لأيتيوس أنه لن يستطع الحصول على جنود مرتزقة من الهن ، فانه أعطى تلك الأراضى الى الألن مقابل تعهدهم بالمحافظة على سلطة الامبراطورية فى تلك المنطقة • بيد أن جوردين مصدرنا الرئيسى عن الخلفية التاريخية لمعركة شالون Chalons

قرر أن سانجبون ليس سوى حليف خائن فى أحسن الأحوال ، وأن أيتيوس خشى أن تكون هناك علاقات بينه وبين أتيلا • بيد أن بعض المؤرخين حملوا على جوردين ، اذ حاول أن ينسب لبنى جلدته من القوط الغربيين النصر المرتقب على أتيلا فى موقعة شالون ، وربما تعمد تشويه تاريخ سانجبون والألن • وأيا كان الحال ، فان أيتيوس كان يأمل فى تلقى مساعدة الحلفاء الآخرين : الفرنجة الصاليان Saliam Franks والبورجنديين من سافوى Burgundian from Savoy والكلت من أرموريكا Celts from Armorica وبعض السكسون Saxons الذين عاشوا شمال اللوار • على أن الجيش القوطى كان أكثر من كل أصدقاء أيتيوس أهمية بمراحل وهو الجيش الذى أحضره معه ثيودريك الملك المسن •

على أن الجيش الذى صحب أتيلا الى نهر الراين كان متفوقا فى العدد تفوقا ساحقا بالنسبة الى ما استطاع كل من أيتيوس وثيودريك جمعه لمجابهته وكان أمرا بدهيا أن ذكر المعاصرون أن جيش أتيلا اقترب من نصف مليون فرد ، اذ كان هذا الجيش بالنسبة لهؤلاء الكتاب مثيرا للفزع بالنسبة لتعداده وشراسته • وأما افتراضهم أنه حوالى نصف مليون فانما هو تعبيرهم عن هذا الذعر ، وعلى شاكلة جيش أيتيوس تكون جيش أتيلا أيضا من مجموعة مختلفة من الشعوب ، فبالاضافة الى أتباعه الهن كان هناك عدد من الشعوب الجرمانية : الهروليون Heruli من البحر الأسود والسكريون Scirians من جلاكيا Galicia والروجيون Rugians من اقليم ثيس Théiss الأعلى الثورنجيون Thuringians ومن القوط الشرقيين تحت ملوكهم العديدين ، والجبيد Gepids من جبال داكيا Dacia تحت قيادة ملكهم أردريك Ardaric بالاضافة الى البورجنديين Burgundians من شرق نهر الراين ، وهؤلاء الفرنجة الروجيان هم الذين دانوا بالولاء للأخ الأكبر فى نزاعه على العرش • وبالرغم من أن الجرمان قاتلوا تحت قيادة قادتهم فان أتيلا تولى منصب القائد العام وحدد استراتيجيته الأخيرة •

على أن تفاخر أتيلا بتفوقه العددى على العدو الرومانى لم يكن يساوى شيئا اذ أن التفاوت العددى ربما لم يكن العامل الذى يحسم المعركة •

ففى الواقع ربما كان هذا العدد عاملا معوقا • وفى غالب الأحوال أحرزت الجيوش الأصغر عددا والأفضل تنظيما النصر فى العصور القديمة • وأعنى بذلك الاغريق فى موقعة الماراثون والاسكندر الأكبر ضد الفرس ، وهانيبال ضد الرومان ، ويوليوس قيصر ضد أعدائه • وشهد القرن السادس الميلادى بليزاريوس أقدر رجال جوستنيان الذى حقق انتصارات رائعة على جيوش تفوقه عددا • ونظرا لأن الجيوش كانت تعيش على ما تنتجه الأراضى التى توجد بها فى ذلك الزمان ، فانه كلما كبر حجم

الجيش قصرت الفترة التى يمكن لهذه الأرض أن تزوده بالطعام والعلف للخيول ٠

ومن المحتمل أن التفوق العددى المشكوك فيه عند أتيلا تعادل مع تفوق أعدائه فى الأسلحة والملابس الواقية الى الحد الذى جعل بعضهم يفاخر بذلك ٠ وكان بكلا الجيشين فرق من المشاة ووحدات من الفرسان ٠ ولكن عند مقارنة الفارس ثقيل العدة بزميله خفيف العدة نجد أن الرومان أحرزوا تفوقا بينا ٠ وابان عصر الجمهورية اعتمدت روما كلية على المشاة ٠ ولم تبدأ روما تجنيد الفرسان الا فى القرن الثالث الميلادى ، ولم تفعل ذلك الا وهى مكرهة للتصدى لرماة السهام من البارثيين والساسانيين ٠ وشهد القرنان الرابع والخامس الميلاديان اعتمادا أكثر على الفرسان ٠ بالرغم من أن روما وجدت بصفة عامة أن الأوفر لها الاعتماد على القوات المساعدة من البرابرة لامدادها بالفرسان ٠ وحارب هؤلاء الفرسان تحت قيادة رؤساء قبائلهم على الرغم من أنهم قبلوا أوامر أيتيوس عندما كان فى موقع القيادة ٠

ومن المحتمل أن الفرسان ثقيلى العدة Cataphracts كانوا أفضل فرسان ذلك العصر ٠ وهم الذين استخدمهم أباطرة القسطنطينية على نطاق واسع ٠ وكان الفارس ثقيل العدة يضع على رأسه خوذة من الصلب ، ويرتدى قميصا مدرعا ، ويحمل خنجرا ، وفأس حرب ، ورمحا ، وقوسا ، وترسا مستطيلا ٠ وبعد موقعة شالون بحوالى خمس وسبعين سنة كتب بروكوبيوس Procopius عن هؤلاء الفرسان واعتبرهم أفضل فرسان العالم ٠ ومن المشكوك فيه أن أيتيوس كان عنده فرسان ثقيلو العدة على النمط البيزنطى ، بيد أنه فاخر بما عنده من بعض الفرسان المسلحين تسليحا مكثفا ٠ وكانت أسلحة الغالبية العظمى من فرسانه خفيفة ٠ ولم تزد عن القوس والرمح الا قليلا ٠ وحاربوا وهم فى حماية الفرسان الأكثر عدة ، كما عملوا فى الدفاع عن القلاع ٠

أما ارتباط الهن بخيولهم منذ صباهم وكذلك تقاليدهم القديمة فجعلا منهم فرسانا لا نظير لهم ٠ فكانوا على قدر كبير من المهارة وسرعة الحركة وكان فى استطاعتهم ركوب خيولهم لفترات طويلة ٠ وعلى مثال الفارس ثقيل العدة كانوا يحملون الأقواس والسهام ومن المحتمل أنهم استعملوها ببراعة ٠ وحملوا أيضا رماحا طويلة وسيوفا وخناجر على شاكلة الفرسان ثقيلى العدة ٠ وكانوا يفتقرون الى البذلة الحربية الواقية المدرعة تدريعا ثقيلا ٠ ولم يرتد الملابس الواقية سوى أكثرهم ثراء ٠ ولكن الفرسان الهن اعتادوا وضع خوذات معدنية على رؤوسهم كانت تمتد الى أنوفهم ٠ وخشية أن يعوق وجود ترس كبير قدرتهم على الحركة ، فانهم حملوا تروسا صغيرة مصنوعة من أغصان صغيرة لدنة ومجدولة ومغطاة بالجلد ٠

وكان من عادة الفارس استخدام قوسه فى قذف عدوه بوابل من السهام ثم الاقتراب من العدو للدخول معه فى معركة وجها لوجه مستخدما الرمح والسيف • وظهرت الأنشوطة فى مجموعة الأسلحة التى استخدمها الهن على الرغم من عدم ذكر استخدام الهن لهذا السلاح فى معركة شالون •

وباستثناء القوط تأخر الجرمان فى اســـتخدام الخيل للأغراض الحربية • وتعلم القوط أهمية الفرسان من جيوش الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن الفرس قبل أن يبدأ الفرســان الهن عبور الأراضى شمال البحر الأسود • وكان الفرسان من القوط الغربيين ، بالاضافة الى بعض القوط الشرقيين ، والألن هم الذين أهلكوا القسم الأعظم من مشاة الرومان فى موقعة أدريانيل سنة ٣٧٨ م • وفى شالون ، كما سنرى ، تمكن الفرسان القوط ثقيلو العدة من تحويل مصير المعركة ضد أتيلا والهن • وربما أسهم الفرسان الألن فى هزيمة أتيلا ، اذ انهم كانوا على قدم المساواة فى المهارة مع الهن •

ومن ناحية أخرى فان الفرنجة والغالبية العظمى من القبائل الجرمانية ظلوا محتفظين بجنود المشاة فى الدرجة الأولى (١٥) •

وبعد ذلك اختار شارل المطرقة (*) Charles Martel الذهاب الى معركة تور Tours الشهيرة سنة ٧٣٢ م ، ومعه رجاله من الفرنجة ، وهم على صهوة خيولهم ، ثم ترجلوا وخاضوا المعركة كمشاة ، وحققوا النصر على المسلمين المغاربة بفضل سيوفهم الكبيرة غير أن أتيلا والهن كانوا ينظرون الى المشاة بازدراء • ويحكى جوردين كيف أن أتيلا حاول رفع معنويات أتباعه الى أقصى درجة ممكنة ، بسخريته من جنود المشاة الذين جمعوهم ضده • وربما كان من بين حلفائه الجرمان من كان من المشاة لأن جوردين وصف الليلة التى سبقت معركة شالون قائلا ان الجيبيديين Gepids خاضوا معركة مريرة ضد الفرنجة وتركت جثث خمسة عشر ألف مقاتل فى أرض المعركة •

وفى أوائل ربيع سنة ٤٥١ م حرك أتيلا جيشه من بانونيا Panonia الى لورين Lorraine ، وفى السادس من أبريل قبل عيد الفصح بيوم واحــد استولى على مدينة متز Metz ودمرها • وتعرضت مدينة ريمز Rheims للمصير نفسه • بيد أن باريس نجت بفضل القديسة جينيفيف St. Genevieve ، وربمــا كانت مدينــة أورليان جينيفيف Orlean هدف أتيلا العاجل ، مقر سنجبان Sangiban ملك الألن ، واذا ما قبل المرء رأى جوردين المتميز للقوط ، فربما كان هذا الملك قد وعد أتيــلا

(*) يكتب اسمه أحيانا شارل المطرقة ، ولكن مارتل « المطرقة » نعت له ، لذا فضلنا ترجمتها الى العربية — المترجم •

بالتعاون معه • ومع ذلك ، فهناك من الشواهد ما يدحض اتهام جوردين • ويبدو أن أورلين قد عانت من حصار دموى وأوشكت على السقوط فى أيدى أتيلا لولا وصول قوات أيتيوس والقوط الغربيين ، مما أجبر رئيس الهن على التراجع ، وانسحب الى الشمال الغربى تجاه اقليم بلجيكا Belgica وربما كان ذلك نتيجة لمطاردة القوط الغربيين وأيتيوس له • وعلى بعد حوالى خمسة أميال من مدينة تروى Troyes وفى مكان يعرف باسم لوكوس موريا كوس Locus Mauriacus ويشار اليه باسم حقول قطالونية Catalounian Fields نصب خيام معسكره • واستعد لاقامة موقع له وان كان الموقع الدقيق الذى دارت فيه رحى المعركة مازال موضوعا للخلاف الى حد ما • اذ ان المصادر المكتوبة ليست واضحة ، كما أن الدراسات الأثرية لم تقدم ما يساعد العلماء على تحديد المكان الصحيح • ونظرا للاعتقاد بأن مكان المعركة كان فى شالون ، واستمر هذا الاعتقاد لعدة قرون ، فقد ظل محتفظا بهذه التسمية على الرغم من أن المعركة دارت فى مكان أقرب الى تروى Troyse • ولا شك أن أتيلا اختار موضعا مفتوحا لفرسانه أكبر حيز من المكان لحركة •

وبدأت المعركة فى وقت متأخر بعد الظهر ، ولم يكن قد بقى على غروب الشمس سوى ثلاث ساعات • وهناك قصة تفسر اختيار هذا الوقت المتأخر اذ يقال أن العرافين الذى استشارهم أتيلا قبل المعركة حذروه من أنه سيتعرض للهزيمة حتى لو نجح فى قتل قائد اعدائه • وتمضى القصة فتقول ان أتيلا فى ذلك الحين ، كان يحمل فى قلبه كراهية شديدة تجاه أيتيوس ، وكان على استعداد أن يتلقى الهزيمة ، اذا كانت تحقق له مقتل عدوه • لذلك فانه أخر بدء المعركة الى ما بعد الظهر ليمنع العدو من الحصول على الوقت الذى يحقق له احراز معركة فاصلة • ان القارىء الذى يعتقد فى أقوال المتنبئين سيشعر بالارتياح اذا علم أن قائد القوات المعادية لقى حتفه فى معركة شالون • وبرغم ذلك لم يكن أيتيوس وانما ثيودريك ملك القوط الغربيين •

ان الغموض الذى اكتنف معركة شالون لم يمتد ليشمل التنظيم الفعلى للمتحاربين فى الجيوش المتقاتلة ، اذا اعتبرنا رواية جوردين صحيحة(١٦) • وبناء على ما ذكره جوردين خصص أيتيوس مكان التشريف، وهو الجناح الأيمن ، لثيودريك ملك القوط الغربيين • وهذه الاشارة التى تعبر عن المشاعر الودية ، لابد أنها أدخلت السرور على قلب ثيودريك الذى ظل راغبا فى المحافظة على اخلاصه لأيتيوس مهما كلف من أمر • وكخطوة وقائية أشرك أيتيوس معه فى الجناح الأيسر ثورسموند Thorismunh الأبن الأكبر لثيودريك وكذلك الجنود الرومان •

وكان وجود ثورسموند فى صحبة أيتيوس ضمانا يمنع انحياز ثيودريك الى الجانب الآخر أو الانسحاب • وكاجراء أمنى قام أيتيوس بوضع سنجبان والألن أتباعه فى قلب الجيش اذ كانت درجة الاعتماد عليهم موضع شك • غير أن ادعاءات جوردين بخصوص سنجبان كانت لا أساس لها من الصحة ، وهى التى رفضها عالم حديث ، اذ ثبت أن الألن جعلوا من أنفسهم درعا واقيا ضد أشرس هجمات أتيلا (١٧) •

ونظرا لأن أضعف أقسام • جيش أيتيوس كان القلب ، وفقا لرواية جوردين ، فربما كان القائد الرومانى قد قرأ ما كتبه بوليبيوس Polybius عن النصر المبين الذى أحرزه هانيبال على الجيش الرومانى فى موقعة كاناى سنة ٢١١ ق•م ، حيث قام القائد القرطاجى باضعاف قلب جيشه عن عمد على أمل أن يندفع الرومان بأقصى سرعة وهم على غير علم بالجناحين القويين للجيش القرطاجى اللذين حاصرا الجيش الرومانى من جميع الجهات واذا كانت هذه هى أيضا الخطة والفكرة التى نفذها أيتيوس فى معركة شالون فمعنى ذلك أن أتيلا وقع فى الفخ نفسه كما حدث للرومان فى موقعه كاناى ، اذ وضع أتيلا أقوى قواته فى قلب الجيش ليواجهوا سنجبان «الخائن» والألن وأتباعه • وفى الجناح الأيسر فى جيش أتيلا وفى مواجهة جيش القوط الغربيين حشد أتيلا قوات من القوط الشرقيين والجبيد ، الذين كانوا أفضل حلفائه من الجرمان • وترك قوات مشتركة فى مواجهة أيتيوس •

وقبل أن تبدأ المعركة الكبرى بوقت قليل أحرز أيتيوس ميزة تكتيكية لها بعض الأهمية • اذ احتل قمة أحد التلال الذى كان يقسم الاستواء العام للمنطقة الى قسمين (١٨) • وبعد بعض المناوشات استعد أيتيوس لخوض المعركة • غير أن هذا النصر ليس « سوى مناوشة قبل بدء المعركة الكبرى » • وربما أتاحت الأرض الأعلى الفرصة لايتيوس لرصد تحركات العدو بطريقة أفضل ، وبالاضافة الى ذلك فانها مدت جيشه بدفعه سيكولوجية أدت الى رفع روحهم المعنوية • على أية حال ، إعتبر جوردين نجاح أيتيوس مهما للحد الذى دفع أتيلا الى القاء خطاب طويل على رجاله بعد هذه النكسة فى محاولة لاستجماع قواهم وروحهم المعنوية المنهارة •

وفيما يتعلق بتفاصيل المعركة ذاتها فما بقى منها ليس سوى شذرات مقتضبة وليست واضحة • ويبدو أن أيتيوس وثورسموند اندفعا الى الأمام فى مواجهة الجناح الأيمن الضعيف فى جيش الهن ، فى حين أن أتيلا اندفع بأقصى قوته تجاه قلب الجيش الرومانى حيث يتمركز الألن • وبذلك عرض أتيلا الجناح الأيسر لجيشه لهجوم مرعب قام به ثيودريك والفرسان ثقيلو العدة للجيش القوطى (١٩) • وقبل أن يسبق

السيف العذل أدرك أتيلا خطورة أن يجد نفسه محاصرا بين جناحي الجيش الرومانى • لذلك فما أن أوشكت الشمس على المغيب حتى تقهقر أتيلا الى معسكره • وفى اليوم نفسه ، أو فى الصباح التالى على أفضل الاحتمالات ضرب أيتيوس والقوط الغربيون حصارا حول معسكر أتيلا ، اذ انهم لم يرغبوا فى الدخول في هجوم مباشر • وابان هذا الحصار تم التعرف على جثة ثيودريك •

ويتفق الكتاب المعاصرون على نقطتين بخصوص المعركة : الأولى أن الخسائر البشرية عند الطرفين كانت فادحة ، والثانية أن المعركة انتهت دون احراز نصر واضح سواء لصالح أتيلا أو أيتيوس • وذكر المؤرخ اداتيوس Idatius أن عدد القتلى بلغ ثلاثمائة ألف محارب ، وهو رقم مبالغ فيه اذا ما قورن بما قدره جوردين بمائة ألف وخمسة وستين ألفا • ويميل المؤرخون المحدثون الى الاتفاق على ثلاث نقاط : ان الفريقين كانت خسائرهما فادحة ، وأنه فى الوقت الذى لم يحقق أيتيوس نصرا حاسما ، فان أتيلا كان فى موقف دفاعي بشكل واضح فى المعركة التالية ، وأن مقتل ثيودريك ملك القوط الغربيين ، ثبت أنه كان تطورا حاسما •

ان تحليل النتائج المترتبة على المعركة جاء وفقا لرواية جوردين بصفة أساسية على النحو التالى : لو قدر لثيودريك البقاء على قيد الحياة، لظل متعاونا مع أيتيوس فى مهاجمة أتيلا ، الى أن يتحقق النصر النهائى • كذلك فان ثورسموند الذى نادى به جيش القوط الغربيين ملكا على الفور بمجرد التعرف على جثة والده ، كانت لديه الرغبة فى مواصلة تحقيق المكاسب التى أحرزها ، بيد أن أيتيوس اعترض على ذلك • اذ خشى أيتيوس من أن تحقيق نصر حاسم على أتيلا سوف يؤدى الى تعرض الامبراطورية لخطر القوط الغربيين بعد القضاء على تهديد الهن الخطير ، حيث لم يكن فى استطاعة الرومان الصمود أمام الجيش القوطى المنتصر لذلك حذر أيتيوس ثورسموند من أنه ليس فى استطاعته التأكد من تأييد كل رجال البلاد الملكى فى تولوز Tolosa (Toulouse) على الرغم من مناداة الجيش به ملكا ، وعلى ذلك أشار عليه أيتيوس بالاسراع فى العودة الى عاصمته قبل وصول نبأ وفاة والده الى هناك خشية أن يغتصب أحد اخوته العرش • واعتبر ثورسموند تلك النصيحة وجيهة ، وقاد جيشه تجاه الجنوب ، وبالفعل ثبت فيما بعد أن نصيحة أيتيوس لم تكن جوفاء ، اذ استولى ثيودريك الثانى على العرش بعد أن قتل أخاه ثورسموند بعد عامين اثنين فقط •

وهناك تفسير مخالف لانسحاب ثورسموند من شالون يرى أن ثيودوريك والد ثورسموند كان راغبا فى التعاون مع أيتيوس ، وعلى

استعداد لقبول قيادته في الصراع المرير ضد أتيلا الذى ربما اعتبره عدوا للقوط الغربيين بمثل درجة عداوته للرومان • بيد أن الموقف بالنسبة الى ثورسموند كان مختلفا ، اذ نظر ثورسموند الى قوة أيتيوس والرومان على أنها تشكل تهديدا لدولة القوط الغربيين ، كما تشكل تهديدا لأتيلا والهن بعد النجاح الذى تم احرازه فى شالون منذ اليوم الأول • ولابد أن ثورسموند وجد أنه من الأفضل لمستقبل القوط الغربيين أن يسمح للقبائل الجرمانية على امتداد نهر الراين وكذلك لقبائل الهن أن يستمروا جميعا فى منازعة السلطة الرومانية فى بلاد الغال •

فلما رغب أيتيوس عن استمرار الحرب ضد أتيلا الى أن يحرز نصرا نهائيا بعد كل الجهود المضنية التى بذلها لاقامة تحالف وطيد بين الشعوب المختلفة والمتعددة ضد رجل كان يهدد وجود الامبراطورية ذاتها ؟ ان الاجابة على هذا السؤال ليست عسيرة ، اذ كان أيتيوس يبغى تجنيد الفرسان الهن لصالح روما ، حيث وجد أن هؤلاء الهن لا يمكن الاستغناء عنهم ، وأنهم يشكلون قوات مساعدة على جانب كبير من الأهمية ، فى جهوده للدفاع عن الامبراطورية • وأنه بدون مساعدتهم المستمرة ، وفقا لرؤيته ، لن يقدر للامبراطورية البقاء طويلا •

وظل أتيلا لمدة يومين أو ثلاثة يفكر تفكيرا عميقا لمعرفة أسباب فشل العدو فى استغلال النصر الذى أحرزه ، ثم قاد رجاله وحلفاءه للعودة عبر نهر الراين • وفي المجر ظل يلعق جراحه حتى الصيف التالى ، عندما قاد جيشا آخر عبر بانونيا Pannonia وعبر جبال الألب الى عمق ايطاليا • وربما كان الدافع المحرك لهذه الحملة العسكرية هو الشعور بالكراهية تجاه أيتيوس ، وكذلك الرغبة فى الانتقال ، أو ربما كانت بناء على رغبة أتباع أتيلا في الحصول على الغنائم ، اذ من المحتمل أنهم حصلوا على القليل من الغنائم من الحملة التى قاموا بها فى العام السابق ، والتى انتهت بهزيمتهم فى موقعة شالون •

وكان احتلال مدينة أكويليا Aquileia فى أواخر صيف ٤٥٢ م الانجاز الرئيسى الذى حققته هذه الحملة الايطالية • ولقد دمرت قوات أتيلا تلك المدينة تدميرا كاملا لدرجة أنه بعد قرن من الزمان لم يستطع جوردين أن يتعرف الا على القليل من الآثار • وكانت مدينة باتافيوم Patavium (Padua) قد تعرضت للتدمير تدميرا كاملا ، بيد أنه قدر لها أن تشهد مستقبلا مشرقا ، على حين أن المدن التى فتحت أبوابها تعرضت لخسائر أقل وطأة • وشملت تلك المدن فيرونا Verona وبرسكيا Brescia ، وبرجامو Bergamo ، وميلان Milan ، وبافيا Pavia • والى الجنوب من ميلان وعلى مقربة من مينكيو Mincio

لم يقابل أتيلا أيتيوس الذي قام بتسريح جيشه ، وانما قابل وفدا برياسة البابا ليو الأول (الكبير) • وتضافرت توسلات هذا الوفد مع مجموعة متنوعة من العوامل الأخرى مع حالة الملل التى سادت بين الحلفاء الجرمان فى جيش أتيلا ، ونقص الطعام والأعلاف وتفشى مرض الدوسنتاريا ، وحضور مارتيان الامبراطور الرومانى الشرقى ومعه جيشه على اجبار أتيلا على الانسحاب من ايطاليا والعودة الى المجر •

ولم يبق أتيلا على قيد الحياة سوى أشهر قلائل • وبعد وفاته بوقت قصير انتهت امبراطوريته • ففى ربيع سنة ٤٥٣ م أضاف الى زوجاته العديدات زوجة « جميلة جدا » تدعى الديكو Ildico ، بيد أنه مات ليلة زفافه نتيجة لاصابته بنزيف بالأنف • وكتب جوردن أنه لو لم يكن أتيلا شخصا محبا للنوم ومدمنا للشراب ، لما خنقه الدم الذى نزف من أنفه • وفى العام التالى ثارت الشعوب الجرمانية التابعة لأتيلا وأبادت جيشا من الهن فى نيدو فى بانونيا وقتلت الاك Ellac الابن الأكبر لأتيلا • وكان مقتل دينزيك Dinzic ، وهو أحد أبناء أتيلا فى موقعة تعاون فيها الرومان والقوط الشرقيون سنة ٤٦٩ م ، اعلانا رسميا بانتهاء الامبراطورية التى أقامها أتيلا •

كان ظهور الهن فى أوربا حوالى سنة ٣٧٥ م ، وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان طويت صفحتهم من التاريخ • وحيث ان امبراطوريتهم قدر لها البقاء لفترة قصيرة نسبيا (وربما أنهم لم يتمكنوا اطلاقا من الاستيلاء على جزء كبير من الامبراطورية الرومانية لأنفسهم) لذلك يتساءل المرء عن سبب الأهمية المتعلقة بمعركة شالون التى حددت لهم بداية النهاية • ولماذا اعتبرت المعركة التى دارت رحاها فى ربيع ٤٥١ م معركة فاصلة ؟ •

لقد أثبتت معركة شالون للامبراطورية الرومانية الغربية ، وللقبائل الجرمانية أن الهن يمكن هزيمتهم اذ لو قدر لأتيلا أن يعيش ربع قرن آخر ولولا أن الهزيمة التى منى بها فى شالون حطمت أسطورة أنه لا يغلب لكان فى امكانه أن يفتح كل الامبراطورية الرومانية الغربية • وقد يخطىء التاريخ والتراث ، كما فى حالة الوندال الذين لا يستحقون الشهرة التى التصقت بهم كمخربين متوحشين • غير أن التاريخ والتراث لم يكونا مخطئين فيما يتعلق بالهن • ان موقعة شالون قد عجلت بنهاية وجود أعتى الغزاة « البرابرة » الذين تعرضت لهم أوربا • كما أن كلمتى الهن وأتيلا تستحضران فى الذهن صورة رهيبة للمدن التى دمرت تدميرا كاملا ، والمجتمعات التى ذبح أفرادها والشعوب التى تحولت الى عبيد •

لقد أبدى الهن عدم مبالاة بالثقافات الراقية ولو قدر لأتيلا النصر فى شالون لعانى المستوى الثقافى لغرب أوربا من التدهور الشديد والسريع • ولا يشك أحد فى مدى الخوف الذى كان من الممكن أن تثيره صورة أتيلا فى فكر المعاصرين • اذ بعد مرور حوالى خمسة عشر عاما على موت أتيلا خرجت كل القسطنطينية عن بكرة أبيها لتحمل رأس ابنه المذبوح دينزيك Dinzic فى موكب انتصار • « ان الأهمية الحقيقية لأتيلا (ولشالون) تكمن فى حقيقة أن هجوم أتباعه من الهن أجبر الرومان والشعوب التيتونية على الاعتراف بأن المصالح المشتركة ، أو ان شئت الحضارة ، كانت فى خطر ، ومن ثم دفعهم ذلك الى التحالف القوى الذى اعتمد عليه التقدم العالمى فى المستقبل » (٢٠) •

٣ ــ معركة اليرموك

أطلق العرب اسم عام الفيل على سنة ٥٧٠ م لأن أبرهة أحضر فيلا (*) فى جيشه ليرهب بضخامته عرب البادية ويدفعهم الى الاستسلام • واذا كانت حملة أبرهة قد انتهت بالفشل الا أنها ظلت حادثة لها ذكراها فى العالم الاسلامى (١) •

ولد محمد (صلى الله عليه وسلم (**)) عام الفيل • وعند وفاته سنة ٦٣٢ م كان قد ترك دولة قائمة على المبادىء الدينية راسخة الأركان ، فخلال قرن من الزمان استطاع المسلمون التوغل فى أراضى بلاد الهند فى الوقت الذى كان فيه آخرون يحاربون الفرنجة فى بلاد الغال التى تبعد حوالى ثلاثة آلاف ميل الى الغرب • على أن الحادثة التى فتحت الطريق لاقامة هذه الامبراطورية الضخمة التى امتدت حدودها الى جبال البرانس كانت النصر المبين الذى أحرزه المسلمون على الجيش البيزنطى فى موقعه اليرموك فى صيف سنة ٦٣٦ م ، الذى تقوضت على أثره امبراطوريات الدنيا •

ومن بين الظروف التى يمكن ارجاعها لهزيمة الامبراطورية البيزنطية الضخمة على هذا النحو المثير للدهشة بشكل خاص كان عدم معرفة عالم البحر المتوسط لشبه الجزيرة العربية وشعبها ، وازدراءه له من ناحية القلة العددية • فمنذ عصور ما قبل التاريخ لم تلعب الجزيرة العربية دورا هاما فى المنطقة • حيث ظهرت امبراطوريات الشرق الأدنى واندثرت ــ بابل ومصر وآشور والكلديون والفرس والاسكندر الأكبر ــ كما لم يبد غرب أوربا سوى قليل من الاهتمام بالشعب الذى يعيش فى شبه الجزيرة العربية

(*) الواقع أن أنواعا من الفيلة الضخمة التى انقرضت ولم تعد موجودة حاليا كانت تستخدم فى العصور الوسطى واستخدمها الفرس ضد الروم فى معاركهم وكانت الخيول تفزع لمجرد رؤيتها أو شم رائحتها ، كما استخدمها ملوك الحبشة فى حربهم واحتفالاتهم المترجم •

(**) ما بين قوسين من عند المترجم •

الشديدة الحرارة والجفاف · ولو كانت شبه الجزيرة العربية تمتلك مخزونا من السلع الغذائية لقامت تجارة مزدهرة ولتحققت علاقات وثيقة مع الشعوب التى تعيش هناك · على أن شبه الجزيرة استطاعت أن تمارس التجارة على نطاق ضيق فى التوابل والبخور · وبالرغم من أن هاتين السلعتين كانت لهما قيمتهما ، فانه لم تكن هناك حاجة ماسة اليهما من الناحية العملية ولولا طريق القوافل التجارية القادمة من بلاد بونت (*) المحملة بالمنتجات الاستوائية من أفريقيا الى مصر وسوريا لكان من الممكن الا يسلك أحد شبه الجزيرة العربية على الاطلاق ·

وليس معنى ذلك أن شبه الجزيرة العربية كان فى عزلة تامة عن باقى الشرق الأدنى القديم فالكثير من الشعوب التاريخية ترجع أصولها الى تلك البلاد الصحراوية · ومنها الأكاديون الذين أبلغنا عنهم العلماء الذين انتقلوا الى بابل حوالى ٢٣٠٠ ق·م · وبعدهم جاء الآشوريون ، والكلديون ، والأموريون ، والآراميون والفينيقيون ، والعبريون ، وكل الشعوب السامية ، كلهم جميعا تركوا شبه الجزيرة العربية عندما ازدادت أعدادهم عن قدرة هذه الأرض على تحملهم ، وشقوا طريقهم تجاه الوديان الخصبة لنهرى دجلة والفرات · وبمرور الوقت كونت تلك الشعوب تاريخها ونسيت باقى العالم أصولهم فى شبه الجزيرة العربية القاحلة · وليست هذه حالة العرب الذين آمنوا برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) اذ بعد وفاته حمل أتباعه رسالته الى كل أنحاء عالم البحر المتوسط وأقنعوا العديد من الشعوب على الايمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وجعلوا مدينة مكة التى كانت مغمورة وغير معروفة قبلة لهم ·

وكان من الممكن أن يكون كبر مساحة شبه الجزيرة العربية لولا افتقارها الى الأمطار ومساحتها تعادل ثلث مساحة الولايات المتحدة الأمريكية وهى شبه جزيرة كبيرة تحيطها تقريبا المياه ، بيد أن معظمها صحراء · ان موقعها المتاخم لمصر ، وسوريا ، وبابل كان من الممكن أن يكون مثاليا من وجهة النظر التجارية لو أنها كانت تنتج شيئا تصدره ، ولكن أرضها شديدة الحرارة وشديدة الجفاف ، وغير صالحة للانتاج ، وتوجد الزراعة على الحدود الخارجية لشبه الجزيرة فقط · فعلى امتداد الساحل الغربى الى الجنوب فى اليمن وعسير تسقط الأمطار الكافية للسماح بزراعة التربة · وفى الحجاز الى الشمال موطن محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت الحياة ممكنة لوجود الواحات وينابيع المياه التى جعلت الصحراء مخضرة حيث أمدت البدو بالأعشاب التى تعيش عليها الجمال ومع ذلك

(★) أطلق المصريون القدماء اسم بونت على منطقة فى الجنوب كانت تشتهر بانتاج البخور (المترجم) ·

فان فقر شبه الجزيرة العربية هو الذى دفع العديد من قبائلها فى العصور القديمة الى الهجرة الى بابل ، وهو الفقر الذى لعب دورا غير مباشر فى حركة الفتوح الاسلامية فى القرن السابع (*) ·

ان الحياة الشاقة فى شبه الجزيرة العربية أوجدت شعبا شـديدا معتمدا على نفسه وكانت الحياة هناك صراعا مستمرا من أجل البقاء · وهو ما يتمثل فى عادة وأد البنات التى استمرت حتى ظهـور محمـد (صلى الله عليه وسلم) ثم قضي عليها الاسلام · وانقسم العرب بصفة عامة الى طبقتين : العرب أهل الحضر الذين عاشوا فى القرى والمجتمعات الأكبر مثل مكة والمدينة وعرب البادية الذين جالوا فى الصحارى والواحات بحثا عن الزاد · وكانت الحياة البدوية مميزة فى وسط وشمال شـبه الجزيرة العربية ، والتى شملت الحجاز موطن محمد (صلى الله عليه وسلم) وشكل البدو العنصر الأكثر اضطرابا لسكان شبه الجزيرة العربية) ، واعتادوا على الاغـارة التى كانت عنصرا أساسيا تقريبـا فى حياتهم · ونظرا لفقر التربة وقلة انتاجها ، صارت الاغارات على من يملك سبيلا أيسر للحياة ، وسيلة ضرورية للبقاء · وثبت أن خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) آمنوا بهذا المبدأ الأساسى عندما حملوا رسالته والسيف الى الشعوب خارج شبه الجزيرة العربية (**) ·

لعب وجود الخيل والجمل دورا هاما بسبب الجفاف والحرارة الشديدة فى شبه الجزيرة العربية اذ بدونهما كانت الحياة فى شبه الجزيرة العربية غير ممكنة · وصار البلح الذى نقل من بابل سلعة رئيسية · وكان لبن الجمل والبلح عنصرا أساسيا فى طعام البدوى · وأوصى النبى (صلى الله عليه وسلم) بالنخلة قائلا : « أوصيكم خيرا بالنخلة ، فقد خلقت من الصلصال الذى خلق منه آدم » (***) (٣) · وأمد الجمل ساكن البادية من العرب باللبن واللحم لاطعامه ، والوبر لصناعة خيامه ، والروث للوقود ، وهو وسيلة الانتقال الرئيسية · والواقع أن تاريخ المجتمع الانسانى فى

(*) يختلف المترجم مع المؤلف فى هذا الرأى ، ويرى المترجم أن العرب خرجوا من شبه الجزيرة العربية فى أواخر عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عصر الخلفاء الراشدين كحملة رسالة قبل كل شيء وفوق كل شيء ، ومما يؤكد رأى المترجم الرسائل التي أرسلها رسول الله عليه الصلاة والسلام الى رؤساء وقادة العالم فى ذلك الحين يدعوهم فيها جميعا للاسلام ـ (المترجم) ·

(**) أثق أنه لا يغيب عن حصافة القارىء الكريم هذا القول المجحف ، وانى لعلى يقين بما حدث عند نشر الدعوة الاسلامية خارج الجزيرة العربية فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الاسلامى ـ المترجم ·

(***) هكذا ترجمة النص الانجليزى ومن الأحاديث الواردة فى هذا الشأن أكرموا عماتكم النخل المكرمات فى المحل ·

شبه الجزيرة العربية يبدأ مع تحول الجمل الى حيوان اليف • فالجمل من نعم الله الكبرى (*) •

ان مناخ شبه الجزيرة العربية بالاضافة الى طبيعة الترحال لسكانها المتناثرين لم يشجع منذ أمد بعيد على اقامة دول سياسية ، أما فى اليمن فى الجنوب ، فظهرت مملكة سبأ بحلول القرن الثامن ق•م ، بيد أن العشيرة كانت الوحدة الاجتماعية والسياسية بشكل نمطى سائد بصفة عامة • فلكل أسرة خيمتها ، وتشكل مجموعة الخيام عشيرة ، وتعترف مجموعة من العشائر برئيس أعلى لها ، وتكون القبيلة • وتمتع الشيخ رئيس العشيرة أو القبيلة ، بمركز القيادة ، وبالرغم من أنها كانت مسئولية مارسها بناء على موافقة القادة الآخرين للجماعة • وفى مجتمع أكبر مثل مكة ، تركزت السلطة فى أيدى الأقلية من التجار الأثرياء الذين كانوا قادة لعشر عشائر أو أكثر ، تكونت منها قبيلة قريش ، وسيطرت على المدينة • وولد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى عشيرة هاشم ، وهى عشيرة متواضعة من الناحية الاجتماعية • وكانت عشيرة بنى أمية أشهر عشائر مكة ، وهى التى قدر لها أن تكون أسرة قوية (٦٦١ ـ ٧٥٠ م) ، فى التاريخ الاسلامى •

دخلت شبه الجزيرة العربية التاريخ حوالى القرن العاشر قبل الميلاد عندما زارت ملكة سبأ سليمان مع قافلة من الجمال • (٣ الملوك ١٠) (**) وبعد ذلك استولت ملكة سبأ على الممالك العربية الجنوبية الأخرى ، وكانت مملكة معين احدى تلك الممالك ، التى كانت نشطة فى استعمار الأرض المعروفة حاليا باسم الحبشة • على أن أول معركة حربية خاضتها شبه الجزيرة العربية ضد دولة كبرى كانت فى القرن السابع قبل الميلاد عندما اجتذب ثراء سبأ مملكة آشور فى الشمال • وقامت مملكة فى النقب عاصمتها البتراء • على أن أول محاولة قامت بها روما لاحتلال الحجاز ابان عهد الامبراطور أغسطس باءت بالفشل ، بيد أن البتراء نفسها سقطت فى يدى الامبراطور تراجان سنة ١٠٦ م • وتمتعت مملكة تدمر فى الشمال ، بفترة قصيرة من الشهرة فى القرن الثالث الميلادى ، وكانت فى بداية الأمر حليفة للرومان ، ثم صارت دولة مستقلة ، الى أن استطاعت قوة الرومان النشطة القضاء على وجودها سنة ٢٧٢ م • ومدت دولة الحبشة نفوذها الى اليمن بنجاح معظم الفترة الأخيرة من أواخر القرن

(*) يشير المؤلف فى تلك الجملة الى ما ورد من الآية الخامسة الى الثامنة من سورة النحل ـ المترجم •

الثانى قبل الميلاد ، عندما نجحت محاولة أبناء حمير فى فرض سياستهم على اليمن • ومنذ أواخر القرن الرابع الميلادى استمرت القوتان العظميان فى ممارسة تدخلهما فى شئون اليمن : احداهما كانت الامبراطورية الفارسية الساسانية ، التى كانت عاصمتها طيسفون (*) على نهر دجلة ، والأخرى الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية • ولم تقتصر جهودهما على محاولة فرض النفوذ على اليمن ، وانما امتدت تلك الجهود لاقامة دولتين عربيتين تتبع احداهما الفرس والأخرى الرومان فى شمال شبه الجزيرة العربية وتحالف الفرس مع مملكة اللخميين على الحدود الشرقية للصحراء السورية ، بينما كانت القسطنطينية على علاقة صداقة مع الغساسنة فى الغرب •

تلك كانت أحوال شبه الجزيرة العربية سنة ٥٧٠ م ، عندما ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) • ومن كان يتوقع أن هذا الصبى اليتيم الذى ولد من أبوين فقيرين ، سوف ينتزع تاريخ شبه الجزيرة العربية من أيدى جيرانها الأقوياء ، وأن يضع أساس عظمتها فى المستقبل • على أن ظروفا عديدة سبقت طموح محمد (صلى الله عليه وسلم) قبل أن يجعل من نفسه قائدا روحيا وسياسيا لشبه الجزيرة العربية (**) • فمن ناحية ولد فى مكة المدينة الرئيسة التى بها الكعبة التى جعلتها مدينة مكرمة عند العرب •

كان فى داخل هذا البناء المستطيل غير المسقوف العديد من الأصنام التى عبدها العرب فى شبه الجزيرة العربية ، واعتادوا الحضور لزيارتها فى فترة هدنة الربيع • ويقال ان ابراهيم (عليه السلام) جد العرب ، هو الذى بنى الكعبة ووضع فيها الحجر الأسود ، الذى هبط عليه من السماء • وما أن أصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) سيدا على مكة حتى طهر الكعبة من الأصنام واحتفظ بالحجر الأسود فى مكانه • ومازالت الكعبة موجودة حتى اليوم وهى أقدس البقاع الدينية منذ القدم حتى الآن ويزورها عشرات الألوف من المسلمين كل عام للحج الى بيت الله الحرام (***) •

ولا نعرف سوى القليل عن محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى أوائل العشرينيات من عمره ، عندما عمل تاجرا فى قافلة تملكها خديجة

(*) أو المدائن كما تذكر المصادر العربية ـ المترجم •

(**) من الواضح أن المؤلف لا يعترف بالاسلام دينا ـ المترجم •

(***) الواقع أن تعداد الحجاج الذين يزورون البيت الحرام سنويا يزيد على المليونين كل عام ـ المترجم •

(رضى الله عنها) التي كانت أرملة غنية ثم تزوجها • وعندما بلغ الأربعين من عمره بدأ يدعو الى الايمان بالله الواحد الأحد ، وأن يساعد المسلم أخاه المسلم الفقير ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق • على أن معظم المبادىء التى نادى بها محمد صلى الله عليه وسلم تتشابه مع ما ورد فى تعاليم اليهود ، وكذلك العهد الجديد عند النصارى • ومن المهم القول انه نادى بالجهاد ضد الكفار ومعاملة أهل الكتاب بالتى هى أحسن • ولا شك أن التشابه بين المبادىء الاسلامية ومعتقدات اليهود والنصارى كان عاملا مساعدا على سرعة ايمان العديد من الشعوب بالاسلام •

ان من معانى كلمة الاسلام أن يسلم المرء أمره الى الله (سبحانه وتعالى) وهى الفضيلة التى ظلت سمة لافتة للنظر احتفظ بها كل من آمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) • واشتملت مبادىء الدعوة الاسلامية على فريضة الزكاة ، وهى قريبة الشبه بعشر الغلة أو المال الذى يدفع للكنيسة tithe ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، واقام الصلاة مع استقبال الكعبة • وسمحت المبادىء الاسلامية بتعدد الزوجات غير أنها حرمت الزنا وشرب الخمر • وأكدت التعاليم الاسلامية على أن الاستشهاد فى سبيل الله طريق الجنة •

واذا كانت التعاليم الاسلامية حظيت بايمان الملايين عن طيب خاطر بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسنوات قليلة ، فانها لقيت الصد والمعارضة على يد قادة مكة ابان حياته • اذ انهم عارضوا عبادة الله الواحد الأحد ، لأنها تتعارض مع حياتهم الاقتصادية القائمة على الوفود التى تقدم القرابين للأصنام التى كانوا يصنعونها فى الكعبة ويعبدونها • كما أنهم خشوا من قيام دكتاتورية فى حالة الاعتراف بنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) • واستاء أهل مكة لأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) سفه آباءهم لأنهم كانوا مشركين ، كما أنهم خافوا من أن يساعد من آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) على تنفيذ ثورة اجتماعية واقتصادية تضع نهاية لمركزهم القيادى •

وفى صيف ٦٢٢ م هاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة الى المدينة التى آوته • وهى تبعد مائتى ميل الى الشمال • على أن حياته تعرضت لبعض المخاطر عند وفاة زوجته خديجة ، وعمه أبى طالب ، الذى كان شيخا لعشيرة هاشم والذى كان يحميه من المشركين • وفى مدى سنوات قلائل من وصوله الى المدينة استطاع أن يجعل من نفسه سيدا هناك • وبدأ يعد الغزوات ضد القوافل الذاهبة الى مكة والخارجة منها • وبعد فشل محاولة جماعية قام بها المشركون لاحتلال المدينة سنة ٦٢٧ م ، والقضاء على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ازداد عدد المؤمنين فى

مكة المكرمة زيادة سريعة ، وساعده ذلك على فتح مكة سنة ٦٣٠ م • واستعاد الكعبة من المشركين بحكمة وحافظ على مكانة مكة المكرمة • واتخذ المدينة (المنورة) محلا لاقامته الى أن دفن بها سنة ٦٣٢ م •

ان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يتخذ ترتيبات مسبقة لخلافته بل انه ترك ابنا له من بعده لفرض ذلك مشكلة حقيقية • اذ كيف يخلف شخص عادى أحد الأنبياء ؟ وفى غداة وفاته اختاروا أبا بكر الذى كان شيخا هرما ، ووالد عائشة زوجة الرسول ، ليخلفه • واذا كان تصرفهم قد ضمن ولاء مكة بيد أنه لم يفعل شيئا تجاه رفض بعض القبائل بالولاء سوى فى عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) وتوقفت بعض القبائل عن دفع الزكاة التى كانت تساعد على تدبير الشئون المالية للحكومة المدنية حديثة العهد • وتذرعت بعض القبائل بأن اتفاقهم كان مع محمد (صلى الله عليه وسلم) بصفة شخصية ، كما يحدث بين رؤساء القبائل ، ومن ثم يكون هذا الاتفاق قد انتهى بموته • كما ظهر على الفور تقريبا أنبياء « كاذبون » فى أنحاء شبه الجزيرة العربية نادوا بتعاليم تتمشى مع ايمانهم بتعهد الآلهة مع عدم الالتزام بأى سلطة سوى سلطة كل قبيلة على حدة •

وواجه أبو بكر وكبار الصحابة تحدى قيادة مكة بكل حزم وعزم • اذ تم استدعاء كل قادر على القتال وقسموا الى أحد عشر قسما ، وكلف كل فريق باخضاع كل قسم فى شبه الجزيرة على حدة • وعرفت المعارك التى دارت بين مكة والقبائل الثائرة باسم حروب الردة ، ونعنى بذلك الخروج على تعاليم الاسلام • ولكن القتال امتد الى أبعد من اعادة القبائل المرتدة الى حظيرة الايمان ، حتى ان ثلثى شبه الجزيرة العربية ـ وهى الأراضى والقبائل التى لم تكن قد اعترفت بنبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ـ قد أجبرت على الاعتراف بسيادة مكة عليها لأول مرة •

ان غزو شبه الجزيرة العربية كلها كان هدفا طموحا حتى وان كان من المستحيل على أعداء مكة الاتحاد ضدها ، اذ ان صعوبة المواصلات والنعرة الاستقلالية عند قبائل شبه الجزيرة العربية جعلت قيام تعاون فيما بينهما ضد مكة أمرا مستحيلا • وكانت مهمة خالد بن الوليد الذى ربما كان أقدر القادة المسلمين الأول ، هى اخضاع الاقليم الأوسط من شبه الجزيرة العربية الذى تسكنه قبيلة بنو قحافة • وكان انتصاره على تلك القبيلة سنة ٦٣٣ م ، وقتله لمسيلمة « الكذاب »عاملا مساعدا على اخضاع كل شبه الجزيرة العربية ونهاية حروب الردة • على أن سياسة الاستمالة التى انتهجها أبو بكر فى تعامله مع القبائل المهزومة عملت على تهدئة أحساسهم بالمرارة ، وحققت السلام لأول مرة فى تلك البلاد •

ومع ذلك فان تحقيق السلام ترك شبه الجزيرة العربية معسكرا مدججا بالسلاح ، ومن ثم واجه أبو بكر ومكة أزمة جديدة • فالى متى يتوقع أبو بكر ومن معه أن تظل القبائل القلقة ملتزمة بتحريم الحروب بينها وهى عمل سكان البادية الوحيد الذى درجوا عليه لشن الاغارات لاستكمال ما يحتاجون اليه من قوت لأفرادهم ؟ فكان لابد من وجود مخرج يمدهم بالاثارة الحربية والطعام ، والغنائم التى كانت تحققها لهم الاغارات • وكان الحل نوعا آخر من الاغارات ، وكان نوعا على نطاق أوسع من ذى قبل • ولم تكن تلك الاغارات ، ضد القبائل فى شبه الجزيرة العربية التى قبلت سيادة مكة عليها ، وانما ضد الشعوب التى تسكن خارج شبه الجزيرة (*) •

وهذا النوع من الغزوات كان قد بدأه محمد (صلى الله عليه وسلم) عندما أرسل سنة ٦٣٠ م حملة تكونت من ثلاثة آلاف مقاتل لسلب ونهب سكان مؤتة (**) التى تقع جنوب شرق البحر الميت تماما • واذا كانت القوات البيزنطية قد نجحت فى ابادة تلك الجماعة من الجند ، الا أنها كانت سابقة لها ما بعدها • اذ لم يكن هناك خيار أمام أبى بكر ومكة بعد أن وجدوا آلافا من البدو المسلمين المتعطشين للقتال • وفى نهاية ٦٣٣ م نظموا ثلاث غزوات للسيطرة على المناطق المحيطة بالحدود الجنوبية لسوريا • وكانت تلك المناطق معروفة للعرب ، اذ كانت بصرى وغزة مدينتين هامتين عند نهاية طرق القوافل من الجنوب • وعلى الرغم من أن حجم تلك القوات الغازية ـ حوالى ثلاثة آلاف رجل لكل غزوة ـ تكشف عن أهداف أكثر أهمية عن أى غزوات أخرى قام بها العرب ، فان قادة تلك الغزوات لم يفكروا فى شىء أبعد من مجرد القيام بغارات انتقامية فى صورة غزوات كبرى • على أن أبا بكر وكبار الصحابة عقدوا العزم على حرمان الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية من مدنهما على حدودها شمالا وجنوبا • وبعد أن تحققت بشائر النجاح لتلك الأهداف أصبح من الممكن وضعها موضع التنفيذ ، وتم اعداد غزوات كتب لها النجاح •

ان النجاح المثير للدهشة الذى حققته هذه الغزوات ، وما تلاها من انتصارات مذهلة على جيوش بيزنطة والفرس التى فاقتها فى التسلح

(*) يلاحظ أن المؤرخ يخضع الفتوحات الاسلامية لنظرية التفسير المادى البحت للحركة التاريخية • ومرجع ذلك لعدم اعترافه بأن الاسلام رسالة سماوية وأن الدعوة الاسلامية خارج شبه الجزيرة العربية بدأت منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالحكمة والموعظة الحسنة ـ المترجم •

(**) أحقا كانت غزوة مؤتة من أجل السلب والنهب !!! ـ المترجم •

والقوة العددية جعل العلماء يعكفون على دراسة تغيرات هذه الظاهرة · اذ كيف استطاعت قوات أقل تجربة ومتخلفة حضاريا ، وأقل عددا ، وعدة وخبرة ، أن تحقق انتصارات رائعة لهؤلاء العرب ، وبصفة خاصة ما بين ٦٣٣ م ، ٦٤٢ م لقد نسب ذلك للطبيعة الحربية لشبه الجزيرة العربية فى أعقاب حروب الردة ، وفسر أيضا بتحريم الغارات ضد القبائل · وفوق هذا كانت الوصايا المتكررة التى أوصى بها محمد (صلى الله عليه وسلم) الصحابة بالجهاد ضد غير المؤمنين · وعلى الرغم من أن العلماء أبدوا شكوكهم فى درجة الدافع الدينى عند هؤلاء المقاتلين العرب (٤) ، فمما لا ريب فيه أن تعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت عامل تماسك وتحقيق قدر من الوحدة مع أراض وشعوب لم يعرفوها من قبل ·

ولا ريب أن الرغبة فى الحصول على الغنيمة كانت الدافع الملح فى فكر البدو الذين انضموا الى القوات المتجهة شمالا · وما أن وجدوا المناخ المعتدل فى سوريا ، وفلسطين ، ووجدوا مستوى المعيشة المرتفع هناك حتى قرروا هجر شبه الجزيرة العربية الشديدة الحرارة والصحراوية ، وتحركت فيهم رغبتهم فى الانتقال ومعهم أسرهم الى تلك الأراضى الجديدة للاقامة الدائمة · وأطلق خبير مشهور تخصص فى التاريخ العربى على هذه الحركة الى خارج شبه الجزيرة العربية اسم ، « آخر هجرة سامية كبرى » (٥) · وعلى الرغم من أن سبب النمو السكانى هو الهجرات الجماعية الباكرة ، فان الموقف هنا كان الرغبة فى الحصول على الغنائم والاستمتاع بحياة أفضل ·

وبفضل قوة احتمال العربى وشراسته تمكن من تحقيق الانتصارات الأولى على جيوش بيزنطة والفرس ، اذ كان العربى من أشرس المقاتلين فى عصره · فمنذ نعومة أظافره تعلم ركوب الخيل والمبارزة والتعاون مع أبناء عشيرته فى صد الغارات أو القيام بها · ومع ذلك فان متطلبات الطبيعة الحربية للقبيلة احتاجت الى أمور أخرى بخلاف مقدرة العربى على العدو السريع بالخيول ، والقتال بكل شجاعة · اذ انه لم يكن ليقدر على اجتياز حدود الجنود البيزنطية والفرس المدربين لولا عبقرية خالد ابن الوليد القتالية وأخطاء أعدائه ·

كانت أسلحة العربى قليلة ، سيفا ورمحا ، ولم يكن يحمل درعا يحميه · وكان النظام الحربى الوحيد الذى عرفه هو الهجوم السريع على العدو فى موجات متتالية للفرسان من النادر أن يكون هناك بينها فاصل زمنى · وافتقرت الحرب الى السلاح لدرجة أن الحملة الوحيدة على سوريا فى حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) التى تكونت من ثلاثة آلاف مقاتل على مؤته ، المدينة التى تقع الى الشرق من الحدود الجنوبية للبحر الميت ،

كانت بهدف الاستيلاء على السيوف التى كانت تصنع فى تلك المدينة(*) • وما أن قضى العرب على الجيوش البيزنطية وهزموهم حتى استخدموا أسلحتهم وطرقهم الاستراتيجية فى القتال •

خاض العربى معظم معاركه تحت ظروف طبيعية مألوفة اليه الى حد كبير • وليس من قبيل المصادفة أن الامبراطورية الضخمة التى أقامها المسلمون على مدى قرن بعد وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) ضمت أراضى قاحلة وشبه قاحلة ، فى أغلب الأحوال ، وهى أقاليم غالبا ما كانت فى مثل حرارة وجفاف شبه الجزيرة العربية نفسها • ويكفى أن معركتى اليرموك والقادسية وهما المعركتان المهمتان والفاصلتان عند ظهور الاسلام كسبهما العرب ابان هبوب عواصف رملية مصحوبة بسحب من الرمال فى صحراء رملية • واذا ما توفر الماء ، فالخيول العربية كانت أسرع الخيول فى العالم ، وبفضل هذا النوع من المناورات الحربية الجريئة والجديدة استطاع خالد بن الوليد عبور صحراء سوريا وفاجأ القوات البيزنطية التى اعتقدت أن الصحراء سوف تفوق قدرة خالد بن الوليد على الحركة بكل تأكيد (٦) •

واذا سلمنا بشجاعة العرب وحماستهم كمحاربين ، فان ما يمكن أن يفسر نجاحهم بجدارة هو ضعف أعدائهم • اذ لولا أن البيزنطيين والفرس كانوا قد أنهكوا أنفسهم فى حروب طاحنة لسنوات طويلة وبخاصة فى عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ م – ٦٤١ م) لكان قيام الامبراطورية الاسلامية أمرا لا يخطر على بال بشر ، اذ ان الموارد المالية البيزنطية كانت قد استنزفت الى الحد الذى أجبر القسطنطينية على الغاء اقامة عدد من القلاع على امتداد الحدود الصحراوية الى الجنوب ، ومنع الاعانات التى كانت تقدمها الى حلفائها العرب فى تلك المنطقة •

واجهت كل من الامبراطورية البيزنطية والفارسية شعوبا سامية كبيرة على حدودهما ولم يقبل هؤلاء كلية حكم هاتين الامبراطوريتين • اذ عارضوا الضرائب الباهظة التى فرضتها عليهم الحكومات « الأجنبية » التى كانت تتزايد فى حالة استمرار الحرب • كما عارضت تلك الشعوب السياسات الدينية • وحرص الفرس على نشر الديانة الزرادشتية • وهى سياسة لم تلق ترحيبا من الشعوب السامية فى العراق • وعلى الرغم من أن الشعوب السامية فى سوريا ، ومصر كانت نصرانية فى أغلب الأحوال ، فانهم عارضوا الامبراطور النصرانى « الأرثوذكس » فى

(*) ليت المؤلف ذكر المصدر الذى اعتمد عليه فى هذه المعلومات !!؟ اذ ليست من النحل – المترجم •

القسطنطينية . ونص القانون الامبراطورى على ضرورة أن يعترف النصارى المونوفيزيتيون (*) بمذهب الطبيعتين ، والتخلي عن مذهب الطبيعة الواحدة الذى آمنوا به .

ولتلك الأسباب رفضت الشعوب فى سوريا ، وفلسطين أن تقدم المساعدة للجيوش البيزنطية ضد الغزاة العرب بصفة عامة . وفيما يتعلق بالفاتحين العرب الأول ، كان من الطبيعى أن يدافع سكان سوريا وفلسطين عن أنفسهم طالما أنهم يقاتلون دفاعا عن أرواحهم وممتلكاتهم . وعندما وجدوا أن القوى البيزنطية عاجزة عن الدفاع عنهم ، وعرفوا أن الفاتحين وعدوهم بالتسامح الدينى والضرائب المنخفضة ، رحبوا بهم ، وفتحوا لهم أبواب مدنهم . وهناك قصة من المحتمل أنها حقيقية ، وهى أن العرب استولوا على حمص ثم قرروا الجلاء عنها ، عند اقتراب جيش بيزنطى بدلا من الدفاع عنها فتوسل سكانها النصارى للعرب قائلين : « اننا نفضل حكمكم وعدلكم عن الاضطهاد والطغيان اللذين كنا نعيشهما من قبل (٧) » . وعندما غادر العرب مدينة حمص ، أغلق المسيحيون أبواب المدينة فى وجه القوات البيزنطية ، ولم يسمحوا لهم بالدخول . ورحب اليهود بالعرب نتيجة للتفرقة التى تعرضوا لها تحت الحكم البيزنطى ، وكذلك فعل السامريون . وقدر العرب أهمية المساعدة التى قدمها لهم السامريون ابان الصراع ضد الجيش البيزنطى ، حتى انهم أعفوا السامريين من الجزية التى فرضوها على غير المسلمين من الشعوب التى خضعت لهم (٨) .

ومع ذلك كانت احتمالات بقاء الحكم البيزنطى فى سوريا تبعث على التشاؤم الكلى . اذ ان الجنود الذين اعتمدت عليهم بيزنطة فى التصدى للاغارات الشرسة التى شنتها القبائل العربية ، كانوا من أحسن جنود العالم تسليحا . وتحت رحمة الظروف العادية ووفقا لوجود قيادة حكيمة ، كان فى استطاعتهم التصدى لغزاة الصحراء تماما ، مهما كانت حدةعدم الرضى التى أبدتها الغالبية العظمى من المونوفيزيتيين الذين كانوا هناك . اذ كانت القوة الرئيسية للجيش البيزنطى فى أقسامها من الفرسان الثقيلى العدة . وكان المحارب الفرد ، معروفا باسم كاتافراكت Cataphracts (وهى كلمة يونانية معناها مكسو بالدرع بشكل كامل) ، يحمل رمحا ، وسيفا عريض الحد ، وقوسا ، وجعبة سهام ، وخنجرا . ويضع على رأسه قلنسوة من الفولاذ ، ويرتدى قميصا من الفولاذ يمتد من

(*) المونوفيزيتيون هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة والقائل بان للمسيح عليه السلام طبيعة واحدة وهى الطبيعة الالهية وأن الطبيعة البشرية ذابت فى الطبيعة الالهية . وان الله الكلمة صار جسدا ـ (المترجم) .

رقبته الى فخذيه ، وقفازا مدرعا وحذاء من الفولاذ • كما أن الفرس الذى كان يمتطيه كان أثقل بكثير من الجواد العربى السريع ، كما كانت خيول القادة والمحاربين فى الصفوف الأمامية مزودة بالعصابات المعدنية والدروع المعدنية الموضوعة على صدور تلك الخيول •

وعلى حين أن التنسيق الفعال بين الخيالة والمشاة ظل قائما حتى عصر الحروب الصليبية فان بيزنطة كانت بالفعل تستعمل الجند المشاة المثقلين بالأسلحة ، وان كانوا لا يستخدمون الا للدفاع عن قلاع الحدود ، وتنفيذ العمليات الحربية الصغيرة فى المناطق الجبلية التى لا يمكن استخدام الخيالة فيها • واعتاد الجندى البيزنطى على وضع خوذة فولاذية على رأسه ، وارتدى قميصا من الفولاذ ، وأحيانا قفازا مدرعا ، ودرعا للساقين • وفيما يتعلق بالأسلحة فانه كان يحمل رمحا وسيفا ، وبلطة لها طرف حاد على أحد جنبيها ، أما الجانب الآخر فكان كالعنقود • وكان يحمى نفسه بترس مستدير كبير • وبسبب افتقار الجندى البيزنطى الى المقدرة على سرعة الحركة ، ووجود مشكلة الماء ، فانه كان من النادر أن يخوض وهو المثقل بالأسلحة معارك فى الصحراء • ومن أجل استكمال النقص فى تعداد الفرسان المثقلين بالدرع ، وحتى يمكن الحصول على مزيد من المقاتلين لتحقيق توازن مع هجمات الحدود التى مارسها العرب بحركات سريعة ، عقدت القسطنطينية اتفاقا منتظما مع القبائل على الحدود الجنوبية مع الشعوب الأخرى مثل سكان أرمينيا لأنهم استخدموا فرسانا خفيفى العدة ، واستعملوا معدات وأساليب حربية مشابهة للفرسان العرب • ولو تخلى هؤلاء الجنود المرتزقة عن ولائهم فى موقعة اليرموك ، لكان من المحتمل أن تنتهى هذه المعركة الفاصلة نهاية مختلفة •

وفى أواخر سنة ٦٣٣ م ، عند انتهاء حروب الردة ، دعا أبو بكر (رضى الله عنه) كل القبائل العربية ، بما فيها القبائل التى فى جنوب اليمن الى ارسال المتطوعين للجهاد ضد غير المؤمنين فى سوريا • وطالما أن الهدف كان فتح تلك البلاد ، وليس مجرد مهاجمة الحدود ، فان الاغارات شابهت ما اعتاد عليه العرب باستثناء أنها كانت على نطاق واسع وكانت أكثر تنظيما ، اذ تم اعداد حوالى ثلاث وحدات عسكرية بلغ تعداد كل واحدة منها حوالى ثلاثة آلاف مقاتل من بين القبائل الأشد بأسا وحبا للقتال • وتزايد تعداد تلك الوحدات عند تحركها صوب سوريا ، وعندما عبرت حدود الأراضى المسيحية كان قد وصل تعداد كل منها الى حوالى سبعة آلاف مقاتل • ويقول المؤرخون المسلمون ان أبا بكر (رضى الله عنه) قد أوصى بألا يقتلوا شيخا ، أو امرأة ، أو طفلا أو يقطعوا شجرة مثمرة ، أو يقتلوا أى حيوان • ولا شك أن تلك الأوامر تتمشى مع طبيعة أبى بكر

الخيرة ، على الرغم من أن تعليماته المتعلقة بالحيوان والحقول المثمرة ربما كانت ترجع الى المحافظة عليها لاستثمارها لصالح الغزاة ٠

وتكونت الحملة الأولى التي غادرت شبه الجزيرة العربية الى سوريا في أوائل سنة ٦٣٤ م من قبائل الحجاز ، وغرب شبه الجزيرة العربية ، التي اعتمدت عليها مكة اعتمادا كليا في حروب الردة ٠ وكان ذلك مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال ٠ وعلى غير ما كانوا يتوقعون ، اتضح لهم ان حملتهم كانت مثمرة من الناحية المادية ٠ وقاد هذه الحملة عمرو بن العاص القائد الشهير الذى فتح مصر ٠ وتحركت الحملة الثانية بقيادة يزيد بن أبى سفيان ، شقيق معاوية الذى قدر له أن يكون قائدا مشهورا ومؤسسا للحكم الأموى ٠وتحركت جماعة ثالثة في أعقاب يزيد تحت قيادة شرحبيل بن حسنة ، في الوقت الذى تحركت فيه جماعة صوب العراق تحت قيادة خالد بن الوليد ، « سيف الله المسلول » ، الذى أثبت عن جدارة أنه أكثر من هؤلاء القادة توفيقا ٠ وتلقى أبو بكر (رضى الله عنه) طلبا للنجدة من المثنى بن الحارثة ، شيخ قبيلة بكر في شمال شبه الجزيرة العربية ٠ وكان هذا الرجل مسيحيا ٠ وكانت الحملات التي قادها ضد الفرس قد واجهت مقاومة عنيفة ، وطلب مساعدة أبى بكر العاجلة ، في الوقت الذى تحركت فيه حملة خالد بن الوليد ٠

ويبدو أن خالدا قد أعد قواته للمسير قرب نهاية سنة ٦٣٣ م ، قبل أن تتحرك أى قوة أخرى ٠ وغادر مكة في الربيع التالى ٠ وابان تحركه زاد تعداد قواته التي ربما وصلت الى عشرة آلاف رجل عندما دخل العراق ٠ واكتفى في بداية الأمر بجمع الغنائم من القرى والتجمعات الصغيرة حتى وصل الى مدينة الأنبار على الضفة الشمالية لنهر الفرات ، حيث أجبرها على الاستسلام ٠ وفي العراق حقق خالد أول مكاسب للحدود العربية خارج شبه الجزيرة العربية ٠ وباعتباره محاربا مؤيدا بالنصر ، كان في استطاعته التوغل في هذه البلاد الغنية لولا الأوامر التي وصلته من أبى بكر بوقف عملياته العسكرية هناك والاسراع الى سوريا حيث كان اللقاء المرتقب مع الجيش البيزنطى على وشك الوقوع ٠

وحتى تلك اللحظة كانت القوات العربية تقاتل في سوريا واجتاحت كل شيء في طريقها ٠ على أن أحد العوامل التي ساعدتهم على التحرك في هذا الاقليم بحرية تامة ، كان نجاحهم في الاستعانة بالعرب الذين قابلوهم في هذه المنطقة ، والذين عملوا معهم عن طيب خاطر كمرشدين ، وهؤلاء المرشدون اما أنهم سبق أن تم طردهم من حدود الأراضى المسيحية ، أو أنهم كانوا ينتمون الى القبائل العربية التي لم تعد تتلقى الاعانة السنوية من القسطنطينية ٠ وعندما تحرك عمرو بن العاص تجاه فلسطين استطاع أن يهزم قوة مسلحة تحت قيادة سيرجيوس Sergius حاكم الأقاليم

وارتد الرومان على أعقابهم بعد هذه الهزيمة ، وأعادوا تنظيم صفوفهم غير أن الهزيمة لحقتهم فى فبراير سنة ٦٣٤ م وذبح قائدهم سيرجيوس • ويقال ان سيرجيوس لم يذبح ، وانما أخذ أسيرا • وكان عقابه لأنه نصح الامبراطور هرقل بعدم دفع أى اعانات لعرب الاقليم بأن وضع سرجيوس داخل جلد جمل وخيط الجلد باحكام حوله ، ثم ترك فى العراء ليلقى حتفه خنقا وذلك عندما جف جلد الجمل بفعل حرارة الشمس (٩) •

ان موت سيرجيوس والقضاء على قواته ترك فلسطين مباحة للعرب • ونظرا لعدم وجود المنجنيق لدى العرب ، فانهم لم يحاولوا مهاجمة أى من المدن الكبرى فى ذلك الحين • غير أن أسلوب القتال تغير بشكل مفاجىء • اذ أدرك هرقل فى ذلك الحين أن أعداد الغزاة العرب وتدفق قواتهم على موجات متتالية جعلا من الصعب طردهم باستخدام اسلوب التعامل مع الغزوات الصغيرة التى كانت تجتاح سوريا وفلسطين من حين لآخر • وأعد هرقل جيشا آخر على وجه السرعة ، على الرغم من أن ذلك الجيش لم يكن على مستوى متطلبات الموقف • كما أن فكرته عن طبيعة عرب الصحراء الذين يفتقرون الى النظام جعلته يسىء تقدير خطورة التهديد • ولسوء صحته عين أخاه ثيودور Theodore قائدا على الجيش الجديد •

أما فى مكة فان أنباء ما حققه العرب من نجاح جعلت أبا بكر يتصرف باسلوب واقعى • فبالاضافة الى ارساله تعزيزات الى سوريا ، أصدر أمرا الى خالد بن الوليد بالتحرك على وجه السرعة صوب ذلك الاقليم ، لمساندة القوات العربية التى تقاتل هنـاك ، ومازال عدد القوات التى صحبت خالد فى عبور الصحراء السورية موضع شك • ولكن يمكن أن نقبل التقدير المتحفظ الذى يحددها بنحو الألف ولا مفر من أنها قد استعانت بالجمال فى هذه الرحلة الشاقة والمحفوفة بالمخاطر التى قطعها فى ثمانية عشر يوما • وظلت الخيول التى اصطحبوها معهم على قيد الحياة بفضل المياه التى اختزنوها فى أكراش الجمال المسنة التى ذبحوها فى رحلتهم •

وبفضل تلك الخطة العسكرية البارعة تجنب خالد بن الوليد قلاع الحدود التى كان من الممكن أن تعطل تقدمه بطريقة أو بأخرى • وبدون أي عقبات لحق خالد بزملائه العرب قرب دمشق ، ومن المحتمل أن ذلك كان بعد منتصف يونية ٦٣٤ م • وبعد ذلك بعدة أسابيع ، فى أواخر يوليو أو أوائل أغسطس ، حارب خالد وحقق نصرا مؤزرا فى موقعـة أجنادين ، التى تبعد حوالى عشرين ميلا غرب بيت المقدس ، على جيش بيزنطى تحت قيادة ثيودور تريثوريوس Theodore Thrithurius أمين خزانة الامبراطورية • ولو لم يكن جيش خالد قد زاد عدده على خمسة عشر ألف مقاتل ، ونجح فى القضاء على عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة ثيودور ، فان هذه المعركة كان فى الامكان أن ترقى الى مستوى أعظم المعارك

الفاصلة فى عهدها ، لولا أن تلتها معركة نهر اليرموك بعد ذلك بقليل • ومع ذلك ظلت معركة لها أهميتها الكبرى رغم استطاعة ثيودور انقاذ معظم جيشه •

ومات أبو بكر بعد عدة أيام من علمه بالنصر فى اجنادين وخلفه عمر ابن الخطاب ، الذى تم اختياره خنيفة ، ولم يكن أمامه من خيار • وفى عهده الذى استمر عشر سنوات (٦٣٦ ـ ٦٤٦ م) أرسيت أركان الامبراطورية الاسلامية التى كانت تتسع بسرعة • ان ايمان عمر الشديد ، وزهده فى الدنيا ، وحبه للعدل وعطفه على الجميع أكسبه احترام كل العرب ، وساعد على اتحاد الشعب الاسلامى ابان هذه الفترة الخطيرة التى صاحبت التوسع السريع • ومن بين قدراته الادارية ، كانت سياسته القائمة على استمالة « المرتدين » الذين طلب منهم المشاركة فى الجهاد ضد العدو « كمواطنين لهم كل الحقوق » • وتجسد تواضعه ، وتمسكه الشديد بتعاليم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى حمله لقب « أمير المؤمنين » الذى اختاره لنفسه ، وتلقب به خلفاؤه حتى نهاية الخلافة سنة ١٢٥٨ م •

ولم يتدخل عمر تدخلا مباشرا فى حملة سوريا التى كانت تسير فى صالح المسلمين ، اذ قام خالد بن الوليد ، بعد انتصاره الرائع فى أجنادين ، بالتحرك صوب بصرى ، واستولى عليها دون صعوبة • ويقال ان حاكم المدينة خانها بكشفه للعرب عن وجود ممر سرى تحت الأرض يربط المدينة من تحت أسوارهـــا بالخارج • وقد أسلم حاكم المدينة بعد سقوطها مما يعطى اعتقادا بصحة قصة ذلك النفق •

وأما عن الجيش البيزنطى ، الذى اعتاد تنظيم صفوفه ، خلف مدينة بيسان بعد هزيمته فى أجنادين ، فقد وجد نفسه مضطرا الى عبور نهر الأردن نتيجة لهجوم خالد بن الوليد • غير أن القائد المسلم الذى كان فى مواقع المتفوق التى مع الجيش البيزنطى بعد ذلك للمرة الثانية • وأدت هذه الهزيمة الى ازالة العقبة الأخيرة أمام حصار العرب لدمشق • وطالما أن خالدا لم يكن لديه آلات الحصار ، كما أنه لم يكن يتوقع التزود بها من شبه الجزيرة العربية ، لذلك لم يكن أمامه من سبيل سوى منع المؤن عن المدينة واجبارها على التسليم • ولم تستطع دمشق سوى مناشدة هرقل ، الذى كان فى حمص ، من أجل انقاذها • وبالفعل أرسل هرقل قوة من الفرسان ، غير أن العرب ردوهم على أعقابهم عندما حاولوا الوصول إلى حدود دمشق ، ثم نجح العرب فى ردهم الى حدود حمص • وعلى مقربة من حمص تعرض العرب لهجـوم شــديد دفعهم للارتداد بسرعة تجـــاه دمشق •

كان هذا النصر الهزيل أمام حمص هو كل حظ هرقل طوال عهده الكئيب • ولما أصبح واضحا أن دمشق لم تعد تتوقع أى مساعدة حقيقية ، قامت تلك المدينة بفتح باب المفاوضات مع العرب ، واستسلمت بشروط معينة فى أوائل سبتمبر ، ووافقت على دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار ، فى الوقت الذى تعهد فيه العرب بحمايتها ضد النهب والمصادرة • ولا ريب أن تلك الشروط السخية كانت عاملا فى استيلاء العرب على الغالبية العظمى من المدن فى سوريا وفلسطين دون تحمل تكاليف الحصار الباهظة •

ووفقا لما أورده المؤرخ المسلم البلاذرى ، فان شروط الاستسلام كانت تقضى بأن يتعهد خالد بن الوليد الى سكان مدينة دمشق اذا ما دخلها بتأمين أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم والابقاء على سور المدينة وبألا يقيم أى مسلم فى منازلهم طالما دفعوا الجزية (١٠) •

وفى مواجهة ما حققه العرب من تقدم مستمر انتقل هرقل من حمص الى أنطاكية • وعلى الرغم من انتصارات العدو وتدهور صحته فانه لم يفقد الأمل ، اذ بدأ فى تكوين جيش جديد ، عقد عليه الأمل فى التصدى بنجاح لخالد بن الوليد ، وكون جيشه من جميع المواطنين الذكور الأصحاء الصالحين للخدمة العسكرية ، ومن المتطوعين الذين استطاع الحصول عليهم من كل مكان ، كما ناشد القبائل المسيحية الصديقة ، وطالب سكان أرمينيا التعاون معه كجند مرتزقة ، وانضم الى جيش هرقل حوالى عشرة آلاف تحت قيادة قائدهم فانيز Vanees ومثل هذا العدد تقريبا من عرب الغساسنة ، وعرضت قبيلة كلب خدماتها تحت قيادة جبلة بن الحيام ، شيخ قبيلة الغساسنة • وتألفت القوات المرتزقة من الفرسان غير المدربين الذين اختلفوا قليلا فى المعدات الحربية وسرعة الحركة عن الفاتحين العرب •

ووفقا لما ذكره الطبرى ، فان العدد الاجمالى للجيش البيزنطى الذى قاده ثيودور ثريثوريوس Theodore Thrithurius أمين خزانة الامبراطورية من أنطاكية فى ربيع ٦٣٦ م بلغ تعداده حوالى ربع مليون مقاتل ومن الواضح أنه رقم مبالغ فيه • ويميل المؤرخون المحدثون الى القول بأن عدد هذا الجيش البيزنطى تراوح ما بين ثلاثين ألفا وخمسين ألفا • وحجتهم فى ذلك أن أى قوى مقاتلة تزيد عن هذا الرقم سوف يصبح من العسير قيادتها فى مثل هذا المناخ الحار ، فى ذلك الاقليم مع نقص الموارد الغذائية والماء •

وبالمثل وجد العلماء صعوبة فى تقدير تعداد جيش خالد بن الوليد فالمؤرخون العرب الذين كان يحلو لهم المبالغة فى ذكر تعداد الجيش البيزنطى ، والتقليل من عدد الجيش العربى ذكروا أن الجيش العربى

تعداده بين خمسة وعشرين الفا وخمسة وثلاثين ألفا ، وهو الرقم الذى قبله العلماء بارتياح • وهذه الأرقام الجديدة تعطى للجيش البيزنطى ميزة ضئيلة فى التفوق العددى • بيد أن العرب اتفقوا عليه فى وجود قيادة عربية موحدة تحت رياسة خالد بن الوليد ، أقدر القادة فى عهده ، أما الجانب البيزنطى فقد ساده الاضطراب ان لم يكن الشك بين قادة الجيش • كما أن الروح المعنوية للجيش البيزنطى كانت منخفضة فى حين أنها كانت عند العرب عالية ، وتميل الى الحماس الشديد ، بفضل التعزيزات التى كانت ترد عليه من شبه الجزيرة العربية •

وفضى الجيشان الشهور الأخيرة من فصل الربيع وأوائل الصيف وكل منهما يتربص بالآخر ، ويأمل أن يضعه فى موضع تكون به عوائق يستغلها • وبالنسبة للقائدين ، كان خالد بن الوليد أبعد نظرا بخصوص ما يجب عليه أن يفعله ، وما يجب أن يتجنبه اذ كان من الواجب عليه الا يبدد قواته فى الدفاع عن المدن الكبرى التى سقطت فى يديه ، لذلك جلا عن دمشق وحمص بالرغم من اعتراضات السكان النصارى • وفضلا عن ذلك بذل كل ما فى وسعه لفصل الجيش البيزنطى عن الموارد الممكنة للمساعدة من الشمال أو الغرب ، فى الوقت الذى نجح فيه فى استدراج هذا الجيش للقائه تجاه الصحراء جنوبا ، التى كانت طريقا مفتوحا للعرب حيث ظلت تتردد عليهم التعزيزات الجديدة ، وحيث يســتطيع الهروب أيضا اذا ما قدر له فقدان المعركة مع الجيش البيزنطى • ولابد أن خالدا وضع فى اعتباره أنه كلما اقترب من الصحراء اقترب من ظروف الجفاف ، وطبيعة الأرض الرملية التى تتشابه مع الجزيرة العربية حيث يستطيع رجاله العمل فى أحسن أحوالهم •

ولابد أن خالد بن الوليد كان على بينة من انخفاض الروح المعنوية فى الجيش البيزنطى والمتاعب التى عانى منها قائد الجيش مع أهالى أرمينيا ، والغساسنة المرتزقة • وحاول ثيودور اقناع كل من فانيز وجيله ، على أن يتخليا عن القول بأنها معركة خاسرة • وأن بذله مثل هذا الجهد ، ونجاحه الى حد ما فى محاولاته ، يترك المرء فى حالة من التساؤل اذا ما كان الموقف بالنسبة للجيش البيزنطى قد تدهور ابان النصف الأول من سنة ٦٣٦ م (١١) • وبعد مناوشة بين خالد بن الوليد وجماعته من القوات البيزنطية فى الثالث والعشرين من يوليو ٦٣٦ م ، اضطرت هذه القوة البيزنطية الصغيرة الى التراجع ، وسارع الأرمن بالغاء اتفاقهم مع هرقل وانسحبوا من المعركة •

ومع ذلك فان موقف الجيش البيزنطى فى ذلك الحين ما زال غير ميئوس منه ، ففى خلال ثلاثة أيام من القتال المرير ، تمكن ثيودور من صد كل محاولات خالد بن الوليد ، وقطع كل اتصالاته بدمشق • وفى منتصف

شهر أغسطس حرك خالد جيشـــه وقيادته جنوبا فى منطقة قرب نهر اليرموك ، أحد روافد نهر الأردن ، وهو ينبع من حوران ، ويصب الى الغرب من نهر الأردن ، حيث ينتهى جنوب بحيرة طبرية • واعتمد خالد على الوديان الصغيرة الضيقة والشديدة الانحدار التى تتخلل المنطقة فى حماية جيشه من هجوم الجيش البيزنطى ، الذى كان متمركزا شمال النهر •

وفى مساء التاسع عشر من أغسطس بدأت رياح شديدة الحرارة فى الهبوب من الجنوب ، وفى الوقت الذى كانت تلفح فيه هذه الرياح ظهور العرب ، فانها أثارت سحبا من الأتربة فى وجوه القوات البيزنطية بشكل مباشر تجاه الشمال • وفى العشرين من أغسطس عندما بدأ الجيش البيزنطى يغير من مواقعه ليتجنب القتال تحت تلك الظروف القاسية ، انسحب الحلفاء الغساسنة المسيحيون ، وولوا الأدبار (١٦) • وفى تلك الفترة أصدر خالد أوامره ببدء القتال • وتلت ذلك معركة شرسة دارت رحاها فى يوم شديد الحرارة بشكل لا يطاق • وفى حالة أقرب ما تكون الى العاصفة الرملية اللافحة • ويقال ان زوجات بعض قادة العرب نزعن أوتاد الخيام واستعملنها كهراوات لدفع أى عربى تجاه المعركة اذا ما حاول الانسحاب • وبدأت المقاومة المسيحية تتعثر تدريجيا • وفى فترة قصيرة من الوقت بدأت المذبحة • وكانت بعض القوات البيزنطية قد لاذت بالفرار تجاه الروافد العميقة لليرموك • بيد أنها سقطت فى الكمائن وتم ذبحها • وحاول البعض الآخر الفرار فى عمق الصحراء ، بيد أن هذه العملية لم تكلل بالنجاح ، وبخاصة بالنسبة للفرسان ثقيلى العدة Cataphracts اذ قام العرب بتقطيعهم اربا دون أدنى رحمة • وانتهت المعركة بالقضاء التام على الجيش البيزنطى ، وكان القائد ثيودور من بين القتلى •

وبعد أن انتهت المعركة الشرسة ، ساد سوريا هدوء عجيب • ويقال ان خالدا قد شبه هدوء الأحوال فى سوريا بنومة الجمل • ولم يبذل هرقل محاولة أخرى لانقاذ الموقف ، وانما انسحب الى جبال طوروس تجاه الشمال حيث لم يجرؤ العرب على الاقتراب منها • ثم عاد الى القسطنطينية ، وغادر تلك الأراضى قائلا : « السلام لك يا سوريا ، كم أنت من بلد جميل ستكونين من نصيب العدو » •

ان موقعة اليرموك حددت مصير سوريا وفلسطين ومن بعد ذلك مصر بصفة نهائية • اذ فتحت حمص ودمشق أبوابها للمنتصر ، وكذلك فعلت معظم مدن الاقليم • فى حين ظلت بيت المقدس صامدة الى أن سقطت فى نهاية سنة ٦٣٧ م • ونظرا لعدم امتلاك العرب لآلات الحصار استطاع البطريرك سوفروثيوس الانتظار لا على أمل الحصول على مساعدة هرقل وانما لمحاولة الحصول على شروط أفضل من الفاتحين • ويقال ان البطريرك أصر على التفاوض مع عمر بن الخطاب نفسه ، لأنه كان قد سمع عن حبه

للخير ، وأمانته واستقامته • وكما حدث ، كان عمر فى فلسطين • وكان قد جاء لكى يتولى بنفسه الاشراف على تنظيم الأراضى التى فتحت حديثا • وبالفعل التقى الرجلان ولم يكن لعمر سوى قميص واحد ، وعباءة واحدة • ولم تكن بتلك الملابس العديد من الرقع فحسب ، وانما كانت بالية جدا • وفى بداية الأمر رفض عمر الملابس التى أهداها اليه البطريرك • ثم بعد ذلك وافق وذلك رغم أنه أعاد تلك الملابس التى أهداها اليه •

ومهما كانت طبيعة مطالب سوفروثيوس ، فمن الراجح أن عمر وصل الى بيت المقدس وفق ما اتفق عليه • وكان عمر مسلما ورعا ، وزار البقعة المقدسة التى بها معبد سليمان ، والتى عرج منها محمد (صلى الله عليه وسلم) الى السماء • ومع ذلك فان المسجد المنسوب الى عمر بن الخطاب يحمل اسم قبة الصخرة ، وهى الصخرة التى عرج منها الرسول صلى الله عليه وسلم الى السماء • وظلت أورشليم تحمل اسم بيت المقدس عند المسلمين •

دارت رحى معركة اليرموك فى صيف ٦٣٦ م ، وبعد ذلك بعام سدد العرب ضربة قاضية للامبراطورية الفارسية المنهارة ، عندما حققوا نصرا مؤزرا عليها فى القادسية قرب طيسفون Ctisphon (*) كل ذلك بفضل الجمال التى ساعدت خالد بن الوليد على عبور الصحراء السورية . وتحقيق انتصاراته المتتالية على الجيش البيزنطى عند اليرموك • وفى القادسية صوب العرب سهامهم الى أعين وخراطيم الفيلة التى أحضرها الفرس معهم ، وكما حدث فى معركة اليرموك ، ساعدت عاصفة رملية العرب على القضاء على الجيش الساسانى • وفى مدى سنوات قلائل سقطت بخارى وسمرقند ، ومدن تركستان فى أيدى الفاتحين العرب • الذين تقدموا عبر جبال الأندوس Indus حتى وصلوا الى البنجاب • وفى ذلك الحين اجتاح العرب مصر ، وفتحوا جزيرتى كريت وردوس ، وفى سنة ٦٩٨ م ، استولوا على قرطاجة ودمروها ، وفى سنة ٧١١ م عبر العرب ، أو بالأصح المسلمون المغاربة مضيق جبل طارق ثم عبروا جبال البرانس سنة ١٧٨ م الى بلاد الغال • ان الذى جعل من الممكن فتح هذه المساحات الشاسعة ، والذى فتح الطريق للانتصارات المذهلة التى تحققت فى الفترة ما بين انتهاء حروب الردة والذكرى المئوية الأولى لوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى سنة ٧٤٢ م كان النصر الملطخ بالدماء الذى أحرزه خالد بن الوليد ابان هبوب عاصفة رملية فى موقعة اليرموك فى أغسطس سنة ٦٣٦ م (١٣) •

(*) طيسفون كانت عاصمة الفرس حتى الفتح الاسلامى وورد ذكرها فى المصادر الفارسية واليونانية واللاتينية ، وهى المدائن التى درجت المصادر العربية على ذكرها • وما زالت أنقاض طيسفون موجودة جنوب بغداد وتعرف حاليا باسم سلمان بك – المترجم •

٤ ـ معركة هيستنجز

يقول علماء الجيولوجيا ان بريطانيـــا أصبحت جزيرة منذ حوالى خمسة وعشرين ألف سنة قرب نهاية العصر الجليدى ، عندما كانت قيعان المحيطات فى أعلى مستوى لها • وكان بحر الشمال مجرد مستنقع يصب فيه نهر الراين ، كما كان نهر التيمز رافدا لنهر الراين ، وهو الذى أصبح نهرا قائما بذاته ويصب فى البحر مباشرة • وتزامن « استغلال » نهر التيمز ، أكبر أنهار بريطانيا مع انفصال أرض بريطانيا عن القارة الأوربية عندما تحركت المياه وملأت المنطقة المنخفضة والمعروفة حاليا باسم بحر المانش •

لم يتأثر تاريخ انجلترا سواء من ناحية تطور علم التاريخ الطبيعى أو الانسانى مثلما تأثر بكونها جزيرة ، وعلى ذلك فعلى المرء أن يضع فى اعتباره أن تلك الظاهرة هى الحدث الحاسم فى تاريخ انجلترا • واذا ما استخدم المرء تعبير « تاريخ » بمعنى الحوادث المدونة فى السجلات على نحو دقيق ، فلن يكون هناك حدث فاصل فى تاريخ انجلترا أكثر من معركة هيستنجز التى دارت رحاها فى الطرف الجنوبى للجزيرة فى الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٦٦ م • ان معركة هيستنجز • « احدى المعارك التى حددت مصير الأمم فى فترات فاصلة ونادرة » (١) •

وأهم نتيجة تمخضت عن انتصار وليم ، دوق نورماندى ، وأتباعه من النورسان على انجلترا فى موقعة هيستنجز ، كانت الارتباط السياسى بين بريطانيا والقارة الأوربية • وتقطعت أوصـــال الروابط المتينة التى كانت تربطها بالامبراطورية الاسكندنافية ، اذ كانت بريطانيا منذ سنة ١٠١٦ م حتى سنة ١٠٣٥ م جزءا من الامبراطورية الاسكندنافية برئاسة كانوت Conute ، ملك انجلترا والدانمرك • وبدلا من ذلك أصبح دوق نورماندى ملكا وظل لعدة سنوات يحمل لقب دوق وملك • بل حتى بعد طرد الانجليز من فرنسا وجد الانجليز صعوبة فى نسيان أن ملكهم حكم نورماندى فى وقت ما ، حتى ان هنرى الثامن الخاضع لزوجته ، وجد من الوقت ما سمح له باعداد حملتين فى محاولة لاسترداد الأراضى عبر بحر المانش •

ومنذ سنة ١٠٦٦ م وحتى نهاية العصور الوسطى كان النفوذ الفرنسى قويا فى انجلترا • كما أن اللغة التى نقلها النورمان ظلت لغة الكلام للطبقة الارستقراطية والانجليز المثقفين حتى القرن الخامس عشر • أما اللغة الانجلوسكسونية التى لم تكن تستعمل سوى بين الطبقات الدنيا الأمية ، فظلت مثار نقمة حتى استردت القبول فى أواخر القرن الرابع عشر بظهور لانجلاند Langland وتشوسر chaucer ولولا معركة هيستنجز وتدخل النفوذ الفرنسى ، لكانت لغة الانجليز والشعب فى الولايات المتحدة مشابهة تماما للغة فى هولندا وشمال المانيا •

أدى انتصـــار النورمان فى هيستنجز الى أن حلت الطبقة الحاكمة الفرنسية محل الطبقة الارستقراطية السكسونية على الفور تقريبا كما أدى الى استبدال الهيئة الكهنوتية برؤســاء أساقفة ورؤســاء أديرة فرنسيين بطريقة بطيئة الى حد ما ، لكنه كان استبدالا كاملا • على أن قدوم النورمان عجل بادخال النظم والمعاملات الاقطاعية بسرعة كبيرة • وتقريبا فى اليوم الذى تم فيه تتويج وليم ملكا لانجلترا صـــدرت التوجيهات الملكية الى الكنائس الكبرى بتنفيذ الأوامر الخاصة بوضع التاج مع صورة للفرسان الأتباع ، وهو الشىء الذى لم يفعلوه من قبل • وبعد سنة ١٠٦٦ م ، استطاع الفرسان ، الذين كانوا أمرا جديدا على انجلترا أن يسيطروا على ميدان المعركة حتى نهاية العصور الوسطى •

وتعرضت التجارة والصـــناعة الى قوة دفع مثيرة للانتباه نتيجة الارتبــاط الشديد بالقـــارة الأوربية • (اذ حضر والد توماس بيكيت Thomas Becket من نورماندى ليمارس التجارة فى لندن) • ولا ريب أنه ما كان لانجلترا أن تفاخر بكفاية نظامها الحكومى فى أوربا فى أواخر القرن الثانى عشر لولا انتصار وليم فى هيستنجز • وبالطبع فانه لولا انتصار وليم ما كان صراع يبعث على الرثاء مثل حرب المائة عام •

قليلة هى المعارك التى جذبت انتباه العديد من العلماء أكثر من معركة هيستنجز • فالمفهوم أن تلك المعركة نالت صفة الحسم ، على الرغم من وجود شىء ما فوق نطاق أهمية المعركة ، وهو الذى يحدد قدر الاهتمام الذى يبديه المؤرخون • ولابد من وجود دليل معاصر كان فى متناول العلماء ليستندوا اليه فى كتاباتهم • وبالنسبة لمعركة هيستنجز فمازال هناك قدر وافر من تلك الأدلة ، ويضاف اليها قدر ضئيل من « المشاكل » التى استمرت فى اثارة الجدل •

ان أكثر المصـــادر المعاصرة وأكثرها فرادة ، ما يطلق عليها قطعة القماش المطرزة بمدينة بييو Bayeaux-Tapestry • وهى عبارة عن شقة

مطرزة بالخيوط الصوفية في سبعة ألوان تحكى بالصورة معركة هيستنجز • وطولها مائتان وثلاثون قدما وعرضها عشرون بوصة ، واحتوت على اهتمام خاص بأدوار المسئولين عن تلك المعركة ، هارولد Harold ملك انجلترا ، ووليم William دوق نورماندى • وترجع بعض الآراء الحديثة تلك القطعة المنسوجة والمطرزة الى ما بعد المعركة بحوالى اثنى عشر عاما ، وعلى وجه اليقين ليس بعد سنة ١٠٨٢ م • ففى ذلك الحين اختلف أودو Odo أسقف مدينة بييو Bayeaux مع وليم ، الذى كان أخا غير شقيق له ، الأمر الذى أدى الى سجنه على يد وليم • وأودو هذا هو الذى قام بتصميم ومتابعة تنفيذ قطعـة القماش الكتابى المطرزة ، التى تقـدم الدليل على أن ولاء النورمان لم يكن كاملا ، على الرغم من أنها تقدم معلومات عن ملابس القرن الحادى عشر ، والدروع والأسلحة : وأساليب القتال ، وبناء القلعة ، ونقل الحيوان وامداد السفن ، وكلها معلومات قيمة •

وأهم المصادر المكتوبة عن معركة هيستنجز هى حولية وليم من بواتيه William of Poitiets • ومن الواضح أنها أمدت من صنعوا قطعة القماش المطرزة بالمادة العلمية عن قصتهم • وكتب وليم هذا حوليته فى الفترة ما بين ١٠٧٢ م ١٠٧٤ م واستمد جزءا من معلوماته مما كتبه وليم من بواتيـــه William of Poitiers عن تاريخ الأدواق النورمــان ، والجزء الآخر عن الذين عاصروا تلك المعركة • وعلى الرغم من أن وليم من بواتيه كتب حولية مهمة ، الى من أبدى تعاطفه معه • فهو يعتبر هارولد ، « رجلا انجليزيا غبيا » وأنه « كان ملطخا بالرذيلة ، وقاتلا قاسيا » ، وأن ما فعله وليم لم يكن سوى عدل الله • على أن افتقار وليم بواتيه للموضوعية ما هى الا خاصية اتسمت بها المصادر المكتوبة التى عالجت المعركة •

وعلى سبيل المثال ، يحكى هنرى من هنتجتون Huntington كيف ألقى وليم على رجاله خطابا طويلا ورنانا وبليغا جدا قبل المعركة عن جرائم هارولد ، وعن المآثر الرائعة لأجداده النورمان الشجعان لدرجة أن رجاله ، « استشاطوا غضبا واندفعوا فى حماس شديد صوب العدو ، وبعنف يفوق الوصف ، وتركوا الدوق وليم يكمل خطابه بمفرده » • على أن أكثر المصادر التى يمكن الاعتماد عليهـــا حولية الأنجلو سكسون Anglo-Saxon Chroncile ، وان كانت مقتضـبة لسـوء الحظ ، ولا شك أن ذلك كان وفقا للمبدأ القائل بأنه من الأفضل أن يقال ما قل وذل عن هذا العمل المؤسف •

ولو أن ادوارد المعترف Edward the Confessor (١٠١٦ ١٠٤٢ م) أنجب ابنا ما دارت رحى معركة هيستنجز • وكان ادوارد هذا ابنا لايثليرد الثانى Ethelerd II ، والمعروف الى حد ما بشكل غير دقيق

باسم ايثلرد غير المستعد Ethelerd the Unready ، وكان متزوجا من اما Emma • وعندما مات ايثيلرد سنة ١٠١٦ م ، جاء كانوت والفريد ابنا ايثيلرد من اما ، الى نورماندى طلبا للحماية ، حيث وافق دوقها على حمايتها • وفى سنة ١٠٤١ م استدعى هارتو كانوت Hartho Canute ابن اما من زوجها كانوت أخاه غير الشقيق ادوارد ، الذى اعتلى العرش فى العام التالى • ويبدو أن ذلك حدث بموافقة كل من الدانمركيين Danes الذين استوطنوا بريطانيا والايرلات الأنجلو ـ سكسون • وتزعم هؤلاء جميعـــا جودوين Godwin ايرل وســـكس Earl of Wessex الذى تزوجت ابنته ايديث Edith من ادوارد • بيد أن ادوارد ، ولسوء طالع بلاده ، لم ينجب ابنـــا ، وكان كلما كبر فى السن زاد الاهتمـام فى انجلترا وفى نورماندى بشأن من سيخلفه على العرش •

وهناك عدد من الظروف أقحمت النورمان فى مشكلة خلافة العرش الانجليزى • ولا يوجد ظرف بذاته فرض نفسه ، بيد أن تجمعها معا جعل لهـــا جميعا تأثيرا كبيرا ، على الأقل على نورماندى • من ذلك ما يتعلق بحقيقة أن اما والدة ادوارد ، كانت أختا لريتشارد الثانى دوق نورماندى، وهى فى الوقت نفسه عمة وليم الفاتح • والأكثر أهمية أن ادوارد كان قد قضى فترة صباه وشبابه من سنة ١٠١٦ م الى سنة ١٠٤١ م ، فى المنفى فى نورماندى ، ابان فترة حـكم كانوت الدانمركى وأولاده فى انجلترا • ولقد شب ادوارد نورمانديا فى أساليب تعامله أكثر من كونه أنجلو سكسونيا ، وأشد تشبها فى سلوكه بهؤلاء « الأجانب » ، وعندما صار ادوارد ملكا سنة ١٠٤٢ م ذهب الى انجلترا عدد كبير من النورمان أكثر من ذى قبل ، وبعضهم عمل فى البلاط الملكى فى وظائف الكتبة والخدام ، والبعض الآخر أساقفة ورؤساء أديرة • وكان روبرت من جوميج Robert of Jumieges أسقفا لمدينة لنـدن سنة ١٠٤٤ م ، ثم رئيسا لأساقفة كانتربرى Canterbury سنة ١٠٥١ م •

واتضح أن سنة ١٠٥١ م كانت حاسمة بالنسبة لمسألة من سيخلف ادوارد على العرش الانجليزى • واذا كان لدى ادوارد المعترف أى أمل فى اعتلاء وليم للعرش عن طريق الوراثة ، فليس هناك دليل صريح على وجود هذا الأمل قبل تلك السنة • فابان سنة ١٠٥١ م اشتدت حدة الخلاف المتزايد بين ادوارد والايرل جودوين اذ اتهم ادوارد أخاه ألفريد • وكانت نتيجة ذلك أن أجبر ادوارد جودوين على الذهاب الى المنفى • بل ان ادوارد قام بارسال زوجته اديث Edith ، ابنه جودوين الى دير للراهبات • وفى تلك الفترة لم يكن لأتباع جودوين أى حول أو قوة ، لذلك تصرف ادوارد بحرية أكثر لصالح النورمان • وتمت ترقية روبرت من جوميج ، فى تلك الفترة • بل ان هناك بعض الآراء القائلة بذهاب وليم الى انجلترا

في زيارة سنة ١٠٥١ م ، ويقبل العلماء هذا الرأى بصفة عامة ، ويقولون انه سواء زار وليم لندن أو لم يزرها • فمن المحتمل أن ادوارد أعطاه وعدا على نحو ما باعتلاء العرش •

أما عن كيفية عودة جودوين من المنفى سنة ١٠٥٢ م فما زال هذا الموضوع مثار خلاف • ومن الواضح أن جودوين وادوارد توصلا الى نوع من التسوية ، بيد أن طبيعة هذه التسوية ما زال يكتنفها بعض الغموض • ففي ذلك الحين هرب بعض النورمان من انجلترا أو طردوا منها ، ومن بينهم روبرت من جوميج ، وشغل ستيجاند Stigand السكسونى مكانه في كانتربرى • وأعاد ادوارد زوجته ايديث Edith ثانية الى قصره ، ولابد أن هذا يشير الى حدوث خصام كامل مع نورماندى ونهاية لكل آمال وليم التى كان يمنى نفسه بها للحصــــول على العرش • ثم بعد ذلك بسنوات قلائل سواء بناء على أوامر ادوارد المعترف أو باذنه ، أعاد ادوارد ابن أدموند ايرنسايد (ابن ايثلين الثانى) من المنفى ، ولكونه حفيدا لايثلير الثاني كان له الحق فى العرش وفقا لقانون الوراثة الذى لا غموض فيه •

ومع ذلك بدا أن ادوارد المعترف ظل على علاقات ودية مع وليم • ويحكى وليم بواتيه وكذلك ما دون فى قطعة القماش المطرزة أن ادوارد أرسل الايرل هارولد بن جودوين الى نورماندى لكى يؤكد الوعد الخاص باعتلاء الدوق للعرش • ووفقا لهذين المصدرين ، وعد هارولد فى هــذه الزيارة باستغلال نفوذه لعرض مسألة خلافة وليم للعرش فى حالة وفاة ادوارد ، بل انه وافق على أن يقدم للدوق قلعته فى دوفر Dover والقلاع الأخرى التى يريد الدوق تشييدها • ولا شك أن النورمان كانوا مقتنعين بالكامل أن هارولد قدم تلك الوعود ، وذلك ما أكد عليه أحد المؤرخين المحدثين على الأقل (٢) •

غير أن العلماء الآخرين وكتاب الحوليات الانجليز أقل اقتناعا بذلك • وهم يوافقون على أن هارولد وجد نفسه فى بحر المانش حوالى سنة ١٠٦٤م، اما فى رحلة صيد واما فى سفارة الى وليم (وكان المعترف قد أرسله من قبل فى سفارة الى الشعب الفلمنكى (Flanders) • ويوافقون على سفينته جنحت ، ووقع فى قبضة الكونت جوى من بونتيو Guy of Ponthieu الذى قام بتسليم هارولد الى وليم سيده الاقطاعى الأعلى ، وحصل منه على مكافأة • والتزم هؤلاء الكتاب الصمت بخصوص أية وعود قدمها هارولد الى وليم سواء كانت تفسر ذهابه الى نورماندى أو أن وليم أجبره على تقديم تلك التعهدات قبل السماح له بالعودة الى انجلترا •

وهناك اعتبار آخر بمطالبة وليم بالعرش الانجليزى • ذلك هو طموح وليم وقوته • ان انسانا أقل طموحا لن يطالب بمثل هذا الحق ، كما أن

شخصا أقل قوة لن يمني نفسه بالأمل في تحقيق هذا المطلب • وكان وليم يدرك ادراكا كاملا منذ أن كان صبيا حقيقة أنه الابن الوحيد لروبرت دوق نورماندى ، وأنه ابن غير شرعى ، فان عليه أن يكون طموحا وحذرا ، اذ كان يأمل فى أن يرث الدوقية • وفى سنة ١٠٣٥ م ، عندما مات روبرت فى تبتيه ، عند عودته من زيارة الأراضى المقدسة ، كان على وليم أن يضاعف جهده ليكون طموحا وحذرا • ولم يكن وليم مجرد ابن غير شرعى ، وانما كان قاصرا أيضا ، اذ لم يكن قد تجاوز السابعة أو الثامنة من عمره • بيد أن سيده الاقطاعى الأعلى ، هنرى الأول ملك فرنسا ، ساعده فى موقعة فال ـ از ـ دون Val-ès-Dune سنة ١٠٤٧ م ، وأنقذ دوقيته من أتباعه الذين ثاروا ضده • وربما أخذ هنرى الأول على عاتقه مهمة مساعدة وليم لأن والد وليم كان قد وقف بجواره وقفة الصديق عندما طردته باريس • ولم يدع وليم من ناحيته فرصة تمر دون ابداء مشاعر الاعتراف بالجميل • ومع ذلك ففى سنة ١٥٠٧ م هزم وليم الملك هنرى نفسه فى موقعة فارافيل Veraville وصار مركزه قويا بعدها الى الحد الذى جعله يتجاهل أية شخصية فى باريس •

وبحلول سنة ١٠٥٧ م كان وليم قد عمل على تدعيم مركزه فى داخل نورماندى وفى فرنسا الى الحد الذى جعله يتطلع الى امتلاك أراضى أخرى بعيدة • وكانت تحركاته تجاه تقوية مركزه ، بعد أن عمل على تأمين دوقيته أن تزوج من ماتيلدا Matilda ابنة بلدوين الخامس كونت الفلمنكيين • وكان زواجه من تلك الفتاة على الرغم من الانذار الذى أصدره البابا ليو التاسع اشارة الى ارادة وليم الحديدية ، وعلى الرغم من أنه كان رجلا متدينا الى حد كبير ـ وفقا لما ذكره أحد كتاب الحوليات ، « كان دمثا مع الصالحين من الرجال الذين أحبوا الله » ـ فانه لا يطيق أى تدخل من قبل رجال الكنيسة اذا ما حاولوا التدخل فى شئونه ، ولا نعرف الأسباب الدقيقة التى دفعت البابا ليو التاسع الى عدم الموافقة على الزواج • ففى العصور الوسطى كانت القرابة هى القاعدة المألوفة ، التى نالت موافقة الجميع بشأن الزواج ، بيد أنه فى حالة وليم وماتيلدا فان ذلك لم يتم • ومن المحتمل أن يكون الملك هنرى الأول هو الذى طلب من البابا ليو التاسع منع الزواج خشية أن يعمل التحالف بين وليم والفلاندر القائم على الزواج على زيادة قوة تابعه الاقطاعى • وفى سنة ١٠٥٩ م أى بعد زواج وليم وماتيلدا بحوالى ثمانى أو تسع سنوات ، سحبت البابوية اعتراضاتها ، وباركت الزواج ، وان كانت قد طلبت من الزوج والزوجة بناء كنيستين كبيرتين فى مدينة كين Caen لكل منهما دير للتكفير عن خطيئتهما • وعلى الرغم من أن الرجل الفرنسى المعاصر ، ربما فكر مليا فى الأسباب التى دفعت البابا الى الاعتراض على الزواج ، فانه ما زال

يعتبر عن امتنانه له بسبب الديرين الفخمين ، دير الرجال (القديس ايتين (St. Etienne ودير النساء (الثالوث La Trinite اللذين يضفيان التشريف على مدينة كين Coen وشعر الجميع بالارتياح اذ رأوا أنه بعد تلك المتاعب استطاع وليم الظفر والاحتفاظ بماتيلدا كزوجة له ، ولقد ظل طوال حياته متعلقا بها ، رغم أن الاخلاص فى العلاقات الروجية لم يكن أمرا تقليديا عند السواد الأعظم لخلفائه فى العصور الوسطى .

ولم تتوقف جهود وليم في العمل على زيادة قوة مركزه بزواجه من ابنة كونت فلاندر . ولما كان وليم واثقا من الموقف الحيادى الودى من جهة صهره فقد استولى على أراضى مين Maine سنة ١٠٦٣ م وهو كسب ساعده على حماية حدوده الجنوبية من طموحات كونت أنجو Anjou ويرى بعض العلماء أن وليم حاول الحصول على موافقة البلاط الامبراطورى الجرمانى على فكرة امتلاكه لانجلترا ، بيد أن هذا الأمر مشكوك فيه . اذ لابد أنه كان على علم بأن المانيا ابان فترة النزاع الحربى التى أعقبت موت هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ م ، كانت غير قادرة على ابداء الموافقة أو الاعتراض ، بشكل فعال على قراراته ومن ثم استطاع أن يتحمل تجاهل فيليب الأول Philip 1 اذ كان ملك فرنسا الجديد قاصرا ، وأكثر من هذا لم يكن من تولى الوصاية على عرشه سوى صهر وليم ، كونت فلاندر . وفى سنة ١٠٦٠ م مات كونت أنجو تاركا ذلك الاقليم فى حالة الاضطرابات العامة .

ويبدو أن الشخص الأوحد الذى حصل وليم على موافقته على غزو انجلترا كان البابا ، وان اهتم مستشار وليم الدينى لانفران Lanfranc بذلك أكثر من ولبم نفسه . وبعد تجربة وليم مع الأوامر البابوية ، فلابد أنه كان مقتنعا بأن البابوية لا تستطيع أن تفعل شيئا يساعده على تنفيذ مشروعه أو يعيقه . ومن المحتمل أن لانفران أكد له أهمية الحصول على موافقة البابوية . وكان ستيجاند Stigand المحروم كنسيا لا يزال يتربع على عرش رئاسة الأساقفة فى كانتربرى ، الذى كان يشغله روبرت من جوميج ، وساعد على ذلك على اعطاء البابا دافعا ، دوق نورماندى ، وأنه ابن غير شرعى ، فان عليه أن يكون طموحا وحذرا ، من القماش حملت على عمودين ضمن اللافتات التى أمر بحملها اذان تقدم قواته لمحاربة هارولد فى هيستنجز . وفى مقابل موافقة البابا كان على وليم أن يعزل ستيجاند ، وهو الشىء الذى فعله سنة ١٠٧٧ م ، عندما عين مستشاره لانفران مكانه . على أن البابا طلب فيما بعد أن يكون وليم تابعه الاقطاعى فى انجلترا ، الا أن وليم انزعج بشدة من هذا الطلب .

ومن بين ثلاثة طالبوا بأحقيتهم لعرش انجلترا عندما مات ادوارد المعترف ، كان وليم الوحيد الذى نجح فى تحقيق دعواه على الرغم من

أن هارولد بن جودوين اســـتطاع عرض الحجة المقنعة الأقوى • ففى سنة ١٠٥٣ م كان قد أصبح ايرلا لمقاطعة وسكس Earl of Wessex ومنذ وفاة والده وحتى ذلك الحين حقق لنفسه شهرة بفضل مآثره الحربية فى ويلز Wales • وفى عصر كان لابد أن يكون الملك شخصية مقاتلة قبل أى اعتبارات أخرى ، فان شجاعة هارولد الحربية عملت على تزكيته لاعتلاء العرش مادام لم يظهر أحد أكثر منه مقدرة على مقاومة طموحات « مغامر أجنبى » يسعى لاعتلاء العرش • لذلك لابد أن ادوارد المعترف فكر وهو على فراش الموت ، واختار هارولد ليكون خليفة له • ولعدة ســنوات أسند ادوارد الى هارولد مسئولية حفظ ســـلام المملكة فى الوقت الذى كرس كل جهوده لبنـاء دير وستمنستر Westminster ووفقـــا لما أورده المؤرخ فلورانس من ورسست Florence of Worceste •

كان هارولد « الملك الثانى فى المملكة » ابان السنوات الأخيرة فى عهد ادوارد الثانى ـ وأصبح ملكا بصفة رسمية فى السادس من ينـاير فى اليوم التـالى على وفاة ادوارد وتم تتويجه فى الكنيســـة الـكبرى فى وستمنستر • وتبع التـأكيد الجمـاعى فى المجلس الأنجلو ـ سكسونى المتكون من كبار الكهنـــة ورجال الدولة • وتصـادف أن كان كثـير من أعضاء ذلك المجلس فى لندن وقت الاحتفال بافتتاح دير وستمنستر •

عـلى أن الشـــخصية السـكســونية المهمـــة التى تصدت لاعتلاء هارولد للعرش لم تكن سوى أخيه توستنج Tosting • ويبدو أن توستنج كان أصغر من هارولد بقليل ، وكان رجلا محنكا ، ومقربا من ادوارد المعتـــرف • ومنـــذ ســنة ١٠٥٥ م أصبح حاكما لاقليم نورثمبريا Northumbria وهو أكبر الأقاليم الانجليزية ، وربما أكثرها أهمية ولو قدر له أن يظل فى منصبه هذا حتى سنة ١٠٦٦ م لاتخذ التاريخ الانجليزى مسارا آخر اذ ربما فضله ادوارد على شقيقه هارولد • غير أن أتباع توستنج الاقطاعيين ثاروا على حكمه القاسى ، وأجبروه على الذهاب الى المنفى • وفى ذلك الحين طالـب الملك ادوارد من هارولـد الاسراع بمساعدة أخيه ، ولسنا نعرف كيف ســاعده ، وعلى ما يبدو فانه لم يجن سوى الكراهية المريرة التى كان يكنها توستنج له •

ونظـرا لأن هارولد تزوج من ابنـة حاكم نورثومبريا فيما بعـــد ، فللمرء أن يخامره شعور بالشك فى أن هارولد ســعى الى عرقلة عودة توستنج الى نورثومبريا أكثر من محاولة اعادته اليها سريعا • ومع اختفاء توستنج تزايدت طموحات هارولد فى وراثة العرش ، وكان فى استطاعته الاعتماد على مســاعدة أخويه الصغيرين جايرث Gyrth وليوفوين

Leofwine ، وكان جايرث حاكمـــا لاقليـم شرق انجليـــا East Anglia أما ليوفين فكان حاكما لمنطقة تشمل لنـــدن ، والمناطق الريفية فى اسكس Essex وهارتفورد Hartford ، وشمال شرق مدينة بكنجهـام Buckingham وكذلك ســـورى Surrx وكنت Kent فى الجنوب ٠

وعندما وجد توستنج نفســـه مضطرا الى تـرك انجلترا ، توجـه الى الفلاندر اذ كان كونتها شقيقا (والدا ؟) لزوجتـــه ٠ وفيما بعد ، بدأ مهاجمة الساحل الشرقي لانجلترا بمساعدة المرتزقة الفلمنكيين وبعض الانجليز ، الذين قد استمالهم الى جانبه ٠ وانضم اليه كوبسى Copsi أحد أصـــدقائه ابان وجــوده في نورثوميريا Northumbria وكان يقود ســبع عشرة ســفينة لمساعدته فى هجومه ، بيد أن محاولتهم جميعا منيت بالفشل الذريع ٠ وعندما أبدى حاكما ميركيا Mercia ونورثومبريا مقدرتهما على دحر المغيرين ، تخلى معظم رجـــال توستنج وسفنه عنه ، وعندئذ لاذ بالفرار الى اسكتلندا ٠ وهنا التقت آماله مع آمـال هيرالد هاردرادا Herald Hardrada ملك النرويـج الذى خامرته الرغبة فى أن يكون مطالبا ثالثا بعرش انجلترا ٠

وكان هيرالد هاردرادا أحد المغامرين الفيكنج فى ذلك العصر ، ومن المحتمل أنه كان أشهر المحاربين فى عهده ٠ وفى فترة شبابه ترك بلاد النرويج وذهب الى روســيا حيث حققت شـــجاعته الحربيـة احترام ياروسلاف الحكيم Yarolsar the wise له ، والظفر بيد ابنته أيضا ٠ ثم رحل الى القسطنطينية وعمل هنـــاك قائدا للحرس الفارانجى Varangian Guard لعدة سنوات ــ وفى سنة ١٠٤٧ م عاد الى النرويج كملك ، أما فى سنة ١٠٦٦ م فطالب بعرش ادوارد بنـــاء على معاهدة كان قد عقدها هارث كانوت Hartha Canute مع ماجنوس Magnus ملك النرويج أحد أسلافه ٠

وبعد أن ســـبق السيف العذل أدرك هارولد خطورة التهديد من الشمال ، فعرض هارولد على توستنج اقليم نورثمبريا كمحاولة متأخرة لابعاده عن هاردرادا ٠ وعندما سأل توستنج عن نصيب هاردرادا فى أية تسوية لم يكن جوابه سوى « سبعة أقدام من الأرض ، وربما أكثر ، اذ انه رجل طويل القامة » ٠ ورفض توستنج عرض هارولد بازدراء ٠

ولم يحدث من قبل أن غزا انجلترا جيش من الشـــمال مثـل الجيش الذى قاده هاردرادا اذ كان جيشا قويا وشجاعا ، ومدربا تدريبا جيـــدا ٠

وعندما وصل هاردرادا الى مصب نهر تاين Tyne انضم اليه توستنج وأصدقاؤه ، وتجاوز تعداد أسطوله ثلاثمائة سفينة عندما اتجه من بيرجن Bergen عبر شيتلاند Shetlands وأوركنز Orkneys . وفي أوائل سبتمبر ، اتجه هاردرادا ، وتوستنج جنوبا ، وهاجما أثناء مرورهما شاطئ يوركشير Yorkshire واستمرا الى أن وصلا الى نهر هنبر Hunber وبحرا عبر هذا النهر حتى وصلا الى رانده أيوز Ouse الى أن وصلا الى ريكال Riccall . وفي العشرين من سبتمبر ، وعلى بعد حوالى ميلين جنوب يورك York عند بوابة فولكفورد Gate Fulkford هزم الجيش الانجليزى الذى كان تحت قيادة كل من حاكم ميركيا Mercia ونورثمبريا . وكتب أحد المؤرخين أن الانجليز ، « لاذوا بالفرار بعد أن تشتت شملهم ، أما عن الذين غرقوا في النهر (أوز Ouse) ، فقد فاقت أعدادهم أعداد الذين قتلوا في المعركة » . وتقدم هاردرادا الى يورك York التى استسلمت ، وأقام معسكره على بعد تسعة أميال من المدينة عند جسر ستامفورد Stamford Bridge في انتظار وصول الرهائن الذين وعدت بهم المناطق الريفية الشمالية northern Shires بانجلترا .

وفي الوقت نفسه كان هارولد مشغولا بتدعيم أركان عرشه المترنح . ففي ابريل سافر شمالا الى يورك حيث تزوج من ايلد جيث Ealdgyth شقيقة كل من ادوين Edwin حاكم ميركيا Mercia ، وموكار Mocar حاكم نورثمبريا ، كخطوة مقصودة ليتأكد له تعاون هذين الحاكمين الشماليين معه . وشهد شهر مايو انشغال توستنج بالاغارات على امتداد الشاطئ الجنوبى الشرقى ، وهى الاغارات التى خشى توستنج من أنها ليست سوى غزو تمهيدى يمارسه وليم دوق نورماندى ، الذى قد أيد توستنج من قبل . وما أن تم رد توستنج شمالا ، حتى عاد هارولد الى لندن ليبدأ استعداداته بكل جد واجتهاد للتصدى لقدوم وليم . ولم يكن لدى هارولد أدنى شك في نوايا وليم ، اذ ان وليم كان قد اتهمه بالحنث باليمين عندما علم بأن هارولد تسلم التاج ، وهدد بأنه في استطاعته الذهاب الى انجلترا بنفسه لحرمان هارولد مما امتلكه بشكل غير قانونى .

وليس معروفا عن استعدادات هارولد سوى استدعائه للقوات الشعبية ، في فصل الصيف لحماية سواحل سيسكس Sussex وكنت kent اللتين تقعان في مواجهة نورماندى . وتولى بنفسه قيادة أسطول السكسون الذى كان موجودا في جزيرة ويت

Isle of Wight • وفى الثامن من سبتمبر قام بتسريح القوات الشعبية ، ثم حرك سفنه تجاه الشرق فى طريقها الى لندن • وليس معروفا السبب الذى دفعه لاتخاذ تلك الخطوات فى هذا الوقت على وجه التحديد • وربما كان ذلك نتيجة لحالتين • أولا : احتمال انقضاء مدة الشهرين المطلوبة لبقاء القوات الشعبية فى الخدمة العسكرية ، وأن أموالهم ومؤنهم قد نفدت • وكتب أحد المؤرخين : « لم يكن فى استطاعة أى شخص اجبارهم على البقاء أكثر من ذلك » • ثانيا : ان الرياح التى كانت تهب من الشمال ابان شهر أغسطس التى جعلت الرحلة البحرية من نورماندى مستحيلة لم تستمر حتى سبتمبر فحسب ، وانما اشتدت حتى صارت عاصفة هوجاء • (وفقد هارولد على الساحل الانجليزى ووليم فى نورماندى سفنا فى تلك العاصفة الهوجاء) • ومع هبوب الرياح يوما بعد يوم ، فانها قللت من خطر غزو بريطانيا ، بالاضافة الى أن اقتراب فصل الخريف ، والطقس الردىء عملا على تناقص احتمال غزو وليم لانجلترا • كما أنه كان من الصعب على وليم أن يهاجم بلدا معاديا حتى لو كان ذلك فى فصل الصيف • والواقع أنه يمكن تلمس العذر لهارولد لاعتقاده أن وليم لن يهاجم بلدا أجنبيا فى حجم انجلترا بمصادرها الكبيرة من القوى البشرية والثروة •

ولم يكد هارولد يصل الى لندن حتى علم أن هاردرادا قد أنزل قواته فى الشمال وهزم الحكام الانجليز فى موقعة فولفورد Fulford (٢٠ سبتمبر) • غير أن هارولد لم يضيع وقتا • اذ أسرع تجاه الشمال مصطحبا معه أقاربه ، وكل من استطاع تجنيده من قوات المقاومة الشعبية وهو فى طريقه • كان هارولد معروفا بالتهور ، بيد أن خبرته فى محاربة أهالى مقاطعة ويلز لابد أنها علمته عنصر المفاجأة • وربما كان عنصر المفاجأة هو الذى حقق له نتيجة حاسمة عندما انقض على قوات هاردرادا فى موقعة جسر ستامفورد Stamford Bridge فى الخامس والعشرين من سبتمبر • غير أن المؤرخين لم يذكروا سوى الخسائر الفادحة فى الأرواح التى منيت بها قوات هاردرادا وتوستنج فى تلك المعركة • اذ لم يبق سوى عشرين سفينة لنقل المقاتلين من النرويج ممن قدر لهم البقاء على قيد الحياة ـ أكثر من ثلاثمائة سفينة أتت بهم ـ وبعد ذلك بخمسين عاما ظلت أكوام ضخمة من عظام الموتى تشير الى تلك المعركة ، « ونصب تذكارية للأعداد الهائلة التى سقطت من الجانبين » •

كانت موقعة جسر ستامفورد Stamford Bridge أسعد أوقات هارولد ، بيد أنه لم يكن لديه وقت ليستمتع بها • اذ بينما كان جالسا فى وليمة أقامها احتفالا بانتصاره ، أبلغه رسول بخبر وصول

وليم الى سسكس Sussex وذلك لأن الرياح التى كانت تهب من الشمال لعدة أسابيع غيرت اتجاهها أخيرا ، وهبت من الجنوب ، وبذلك استطاع وليم نقل قواته الى الشاطىء البريطانى • ولم يكن وليم شخصا مغامرا ، وانما كان واثقا من جيشه • وفوق ذلك ، فانه كان يعلم أن على هارولد أن يتصدى لجيشين من الغزاة جيش وليم من الجنوب ، وجيش هاردرادا من الشمال • وعلى ذلك ففى السابع والعشرين من سبتمبر ، أى بعد مرور يومين على معركة جسر ستامفورد غادر وليم نورماندى • وبالطبع لم يكن لديه علم بما كان قد حدث فى الشمال •

ويتضح من الاستعدادات التي أعدها وليم لهذه الغزوة أنه لم يكن مغامرا • اذ كان قد جمع جيشا بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وهو جيش يصعب على ملوك ذلك العصر جمعه • وهذا العدد يشمل عددا كبيرا من غير المقاتلين ـ الذين يقومون باعداد الطعام ، والملاحة ، واقامة المعسكرات ، واعداد الاستحكامات • وعلى الرغم من أن وليم كان أقوى السادة الاقطاعيين فى فرنسا ، ورغم وفرة ثرائه وفقا لمستويات العصر ، فان موارده لم تكن تسمح له على الاطلاق باعداد مثل هذا الجيش • لذلك جاء الجزء الأكبر من رجاله والمبالغ المطلوبة للغزو من أتباعه الاقطاعيين ، ومن أصدقائه ، ومن الرجال الذين آمنوا بعدالة قضيته ، والذين أبدوا رغبتهم فى ربط مصيرهم بمصيره • واتخذت عملية الغزو التى خطط لها طبيعة الخطة الجريئة المشتركة ، اذ ان أتباعه الاقطاعيين لم يكونوا ملزمين بمساعدته فى غزو بلد أجنبى لم يصدر منه تهديد لنورماندى من ناحية ، ولأن العرف الاقطاعى لم يكن قد تبلور بعد الى الحد الذى يحتم على الأتباع الاقطاعيين تقديم عدد محدد من الفرسان لفترة معينة من الزمن من ناحية ثانية ، وانما انضم أتباع وليم الاقطاعيون اليه بعد أن وعدهم بنصيبهم فى الأراضى والغنيمة •

وفيما يتعلق بحجم القوات التى قدمها أتباع وليم من الاقطاعيين النورمان فى جيشه ، فان ذلك مازال موضوعا للتخمين ، اذ حاول بعض أصدقائه نصيحته بالعدول عن عملية اعتبروها مجازفة ، ولابد أن حكمة هؤلاء الأصدقاء دفعتهم الى الاحتفاظ بعدد من قواتهم فى بلدهم • ومع ذلك فان قلب جيش وليم ـ الفرسان الذين تحملوا الوطأة العظمى للمعركة ، وأحرزوا النصر له ـ كان من النورمان ، ولذلك فنستطيع أن نفترض أن الاستجابة فى نورماندى لمشروع غزو انجلترا كانت طيبة • وأسهم فى تلك الحملة الكثير من الفرسان من اقليم بريتانى Brittany وهى بلد فقير بمعنى الكلمة ، ولم يكن بها موارد تفى بطموحات شبابها • لذلك كانوا على استعداد لتخطى الصعاب من أجل تحقيق مستقبل أفضل

فى انجلترا • وربما اشتركت أعداد قليلة من الفرسان من اقليم الفلاندر ، ومن اقليم مين Maine ومن المحتمل اشتراك قلة من جنوب ايطاليا ، حيث استقر هناك كثير من النورمان فى أوائل ذلك القرن • ومع ذلك أطلق أحد المؤرخين العنان للمبالغة فى التعبير عندما كتب أن وليم تلقى المساعدة ، « من كل أنحاء فرنسا » •

كان معظم رجال وليم من الجنود المشاة ، وتقع عليه مسئولية تجنيدهم فى المقام الأول • وعلى الرغم من أن أتباع وليم الاقطاعيين ، أمدوه بكل تأكيد بأعداد قليلة من الرماة وحملة الرماح ، فمن المرجح أن وليم قد جمع بنفسه معظم القوات المقاتلة من المرتزقة الذين خاضوا معركة هيستنجز ولم يكلفه ذلك كثيرا ، ففى النصف الثانى من القرن الحادى عشر كان ينظر الى جنود المشاة على أنهم وقود المعركة • وكانت هذه النظرة صحيحة فى القارة الأوربية خاصة • فى حين كان الفارس فى استطاعته حسم المعركة لصالحه تقريبا • وكان بعض هؤلاء الرجال من الجنود غير المحترفين ، والبعض الآخر كان ببساطة بلا عمل ـ من المشردين ، وقطاع الطرق ، والمجردين من القيم الأخلاقية ـ والذين اهتموا بالحصول على الغنيمة أكثر من اهتمامهم بالعمل • وقد أمدهم وليم بالأسلحة • وتصور لوحة بايو المنسوجة Bayeaux Tapestry أكواما من الحراب ، والأقواس ، والسهام ، والمدى التى أعدت ليستعملها المشاة فى الغزو •

ولم يلق وليم متاعب كثيرة من جنوده من المشاة ، مما يدل على اصراره الشديد على الانضباط والنظام • كان من الصعب اجبار هؤلاء الجنود الرجال على الخضوع للنظام فى أوقات الهدوء ، كما كانوا أول من يلوذ بالفرار بمجرد شعورهم بأن المعركة تسير على غير ما يرام • وما داموا يعيشون على ما يحصلون عليه من الغنائم ، وما يدفع لهم ، فانهم كانوا على استعداد لاحراق أى مدينة وان لم يأمر بذلك قائدهم ، اذا كان ذلك يحقق لهم سرعة الحصول على الغنائم • ونظرا لشهرة وليم فى كسب المعارك ، والاستيلاء على القلاع والقضاء التام على مدن وقرى الأعداء فمن الممكن القول بأن المرتزقة كانوا حريصين على الخدمة العسكرية معه •

على أن المشكلة الجديدة التى واجهت وليم ابان الاستعداد لحملته العسكرية كانت البحث عن وسيلة لنقل جيشه عبر القناة الانجليزية (بحر المانش) الى انجلترا اذ ان الحملات الحربية البحرية ، لم تكن شائعة فى ذلك العصر ، باستثناء الفايكنج Vikings وسلالتهم من الاسكندينافيين ، فلهم تاريخهم الطويل فى السفر بالبحر ، وفى حملاتهم

الحربية البحرية التى دارت رحاها على ظهور السفن ، وكان الحال كذلك فى بيزنطة حيث كان نقل القوات بحرا أمرا عاديا بالنسبة لهم • ولعدة قرون وجدت القسطنطينية أنه من السهل عليها أن تعزز قواعدها فى المناطق الجبلية ببلاد اليونان ، وفى آسيا الصغرى ، بل وحتى فى ايطاليا ، بحرا أكثر من استخدام الطرق البرية • بيد أن شعوب غرب أوربا لم تألف ارتياد البحر بما فيهم النورمان أنفسهم الذين نسوا أساليب أجدادهم ، ومن حسن حظ وليم أنه بحلول النصف الثانى من القرن الحادى عشر كانت أوربا تبدى ملامح ايجابية لانتعاش التجارة البحرية • ولولا تعرض انجلترا لغزو مشابه قامت به فرنسا فى القرن العاشر لما وجدت سفن لنقل القوات الغازية التى كانت تحت قيادة وليم •

واحتاج وليم الى سفن تكفى لنقل جيش بلغ تعداده حوالى عشرة آلاف مقاتل • وبالاضافة الى الرجال كان هناك ما يزيد على الفين من الخيول • هذا فضلا عن المواد اللازمة لبناء قلعتين أو ثلاث بمجرد الوصول فضلا عن الكميات الضخمة من الأسلحة والدروع ، والمواد التموينية التى يحتاج اليها الجيش قبل توغله فى انجلترا • ومازال عدد السفن التى استطاع وليم جمعها موضوع خلاف وجدل • ويقدر أحد المصادر المعاصرة هذا العدد بحوالى ألف وخمسمائة سفينة بينما يذكر مصدر آخر أن العدد أقل من خمسمائة سفينة • ومهما كان العدد الحقيقى لتلك السفن ، فقد حصل وليم على بعضها بالمصادرة ، والبعض من أتباعه الاقطاعيين ، هذا بالاضافة الى الأعداد التى قام رجاله بتشييدها على شواطىء نورماندى • ومهما كان عدد السفن التى استطاع وليم جمعها ، فان عبور القناة الانجليزية (بحر المانش) شكل العقبة الوحيدة الخطيرة أمام نجاح مشروعه •

وفى الثانى من أغسطس كان وليم مستعدا لعبور القناة الانجليزية • وعهد الى مجلس وصاية برياسة زوجته ماتيلدا Matilda بادارة شئون نورماندى ، وتعاون معها روجر من بومونت Roger of Beaumont فى الوقت الذى جمع فيه جيشه حول مصب نهر الدايفز Dives ، وهناك انتظر ، ومرت الأيام ، ثم الأسابيع ، والرياح تهب من الشمال • ولم يكن فى استطاعته عبور القناة الا بعد أن تغير الرياح اتجاهها ، أو توقف هبوبها كلية • بيد أن الرياح لم تفعل هذا أو ذاك • وتحدث وليم من بواتيه عن مشكلة الروح المعنوية التى يتحتم على وليم معالجتها حيث أن أسابيع الانتظار أصابت رجاله بمشاعر الملل والقلق • ومع ذلك اذا كان وليم قد لعن الطقس فان هناك الكثير ما جعله راضيا عما فعله الطقس معه اذ لم تكن

اصابة جنوده بمرض الدوسنتاريا كبيرة • وفى النهاية ثبت أن الطقس العاصف كان العامل الأكثر أهمية فى جعله ملكا على انجلترا • اذ لو أنه اتجه الى انجلترا قبل ظهور هاردرادا فى الشمال ، لهزمه هارولد الذى كان فى انتظاره •

وفى الثانى عشر من سبتمبر نقل وليم جيشه الى ساحل قاعدة جديدة على مصب نهر القديس فاليرى St. Valery • ولم يقدم المؤرخون تفسيرا لهذا العمل • وربما دفعت عاصفة هوجاء سفنه تجاه الشرق ، أو ربما قرر أن أقصر الطرق عبر القناة الانجليزية يقع عند مصب نهر سانت فاليرى حيث يقدم له مزايا أفضل من البقاء عند مصب نهر دايفز حتى لو كان الشاطىء المقابل ضيقا لايسمح بتحريك سفنه الحربية بحرية أكثر • على أن غرق بعض سفنه ابان تحركه يجعل احتمال شدة العاصفة الهوجاء هى التفسير الأرجح • ولابد أنها كانت عاصفة شديدة لأنها أيضا أفقدت هارولد بعض السفن عبر القناة الانجليزية •

ومهما كانت المزايا التى حققتها القاعدة الجديدة فى سانت فاليرى فان الرياح ظلت تهب من الشمال ، ولمدة أسبوعين آخرين استشاط وليم غضبا فى الوقت الذى كان فيه جيشه فى حالة انتظار • وعندما اشتد به اليأس أمر باخراج رفات القديس فاليرى من الكنيسة وحملها فى موكب مهيب ، عبر شوارع المدينة • وأخيرا اتجهت الرياح صوب الجنوب فى السابع والعشرين من سبتمبر فأعطى وليم الأوامر بالعبور ، وفى منتصف الليل بدأ الأسطول الحربى فى التحرك ، وكانت سفينة الدوق فى الطليعة ، وعلى ساريتها مشكاة فيها مصباح • وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، الخميس الثامن والعشرين من سبتمبر نزل وليم وجيشه على الشاطىء الانجليزى عند خليج بفنسى Pevensey Bay • وفى اليوم التالى ، تحرك جيشه صوب هيستنجز Hastings على بعد أحد عشر ميلا الى الشرق • وهناك أقام حصنا ـ وربما أقام قلعة وبها حامية فى بفنسى ـ وقرر الانتظار (٣) •

وما أن بلغ هارولد نبأ انزال وليم قواته على الأراضى الانجليزية ، فى الثامن أو الثالث من أكتوبر ، حتى غادر يورك York وانطلق مسرعا قاطعا حوالى مائة وخمسين ميلا ، ووصل مدينة لندن فى السادس من أكتوبر ، حيث قضى الأيام التالية فى حشد ما استطاع حشده من الجنود • وربما كان لديه أمل فى انضمام حكام الأقاليم الشمالية اليه ، ومعهم قواتهم وجنودهم ، بعد الخسائر الفادحة التى تكبدوها فى موقعة

جيت فولفورد Fulford فان أمل هارولد كان فى أحسن الأحوال ضئيلا · ومن الأرجح أنه تأخر في لندن لكي يحذر رجاله في وسكس Wessex في الوقت الذى أعطى أخويه جايرث Gyrth وليوفوين Leofwine فرصة لجمع رجالهما ·

وفى الحادى عشر من أكتوبر اتجه هارولد بجيشه صوب هيستنجز التى تقع على بعد ثمانية وخمسين ميلا جنوب لندن ، وفى مساء الثالث عشر من أكتوبر ، أقام معسكره على بعد سبعة أميال شمال غرب المدينة · ولا شك أنه كان يأمل أن يؤدى تحركه السريع من يورك الى لندن الى أن يأخذ وليم على حين غرة ، كما فعل مع الدانمركيين Danes فى موقعة جسر ستامفورد · واذا صدق مؤرخ ورسستر Warcester Chronicler حينما قال : « لم تكن نصف قوات هارولد قد احتشدت بعد » · عندما وصل الى هيستنجز ، فانه لابد أن يكون قد اعتمد على ما يشبه عنصر المفاجأة ، أو الحظ لتحقيق النصر ·

وكما هو الحال مع وليم مازالت هناك أسئلة لا تجد جوابا عن حجم ومكونات جيش هارولد · ومنها كم كان تعداد تلك القوات؟ لابد أن جيش هارولد كان يقارب تعداد جيش وليم ، بيد أن من المستحيل القول انه كان أكبر أو أقل بكثير من جيش وليم · ويحدد المؤرخون المحدثون تعداد جيش هارولد بحوالى خمسة آلاف مقاتل ، على الرغم من أن المؤرخين المعاصرين قد خفضوا هذا العدد الى حوالى ثلاثة آلاف مقاتل · وعلى أية حال اتضح أن معركة هيستنجز ، كانت عملية أصغر من معركة جسر ستامفورد ·

كان العنصر الرئيسى لجيش هارولد الذى ذهب الى هيستنجز يتكون من المحاربين المشاة الذين وعدهم بمنحهم اقطاعات ، وهؤلاء كانوا محاربين محترفين من أتباعه وأتباع أخويه والاقطاعيين الأثرياء · وكان من الممكن أن يعيش هؤلاء المحاربون مع الذين ينفقون عليهم ، أو فى منازلهم ، أو فى الأراضى التى تمنح لهم · وكانوا يمثلون حرسا شخصيا لسادتهم الاقطاعيين بيد أنهم كانوا أيضا على استعداد لتكوين قوة جاهزة للقضاء على ما يعكر صفو الأمن · ولم يكونوا يختلفون عن الأتباع الاقطاعيين بالقارة الأوربية الا فى أمر واحد مهم ـ انهم كانوا يحاربون مترجلين اذ كانت خيولهم تستخدم وسيلة للانتقال فحسب ·

وكانت طبقة الثين Thanes طبقة من المحاربين · وهم يمثلون ملاك الأراضى الأكثر ثراء تقريبا ، ولديهم قواتهم الخاصة التى تتكون من

أفراد يعلو مستواهم بعض الشيء عن مستوى المزارعين الذين يشتركون فى قوات المقاومة الشعبية fyrd • وفى زمن الحرب كانت طبقة الثين تتولى قيادة عمال المزارع المحلية تحت امرة حاكم الاقليم • ونظرا لأن الأحوال فى انجلترا كانت أكثر استقرارا عن القارة الأوربية ، فانهم كرسوا وقتا أطول لادارة شئون أراضيهم الزراعية ، والمساهمة فى تصريف أعمال منطقتهم الريفية ، والمشاركة فى محاكم المائة ، وجعلت تلك الظروف منهم مواطنين على قدر من تحمل المسئولية وأهلا للثقة على الرغم من أنهم لم يكونوا على قدم المساواة فى المقدرة القتالية مع الفرسان ، الذين انضموا الى الكونتات والأدواق الذين ساعدوا وليم فى موقعة هيستنجز •

على أن الغالبية العظمى التى كونت جيش هارولد كانت من فئة سكان الريف الذين يعملون فى الفلاحة • وفى فترة ما فى القرون السابقة ، كان من واجب كل رجل قوى البنية أن يحمل السلاح ، كلما دعت الحاجة • غير أن التغيرات التى بدأت فى عهد الفريد الكبير Alfred the Great حولت تدريجيا نظام قوات المقاومة الشعبية Fyrd الى جماعة من الجند منتقاه • وفى عهد ادوارد المعترف لم يتم سوى اختيار فرد واحد من بين كل خمسة أفراد للعمل فى الخدمة العسكرية لفترة محدودة • وفى ذلك الحين أصبحت عادة أسرة المزارعين التى تشغل مساحة قدرها خمسة هايدات Five hides والهايد مائة وعشرون فدانا ، وهى مساحة تكفى من الناحية النظرية لاعالة أسرة زراعية واحدة ـ أن تقدم أحد أفرادها ، وأن تزوده بكل ما يحتاجه من سبل الاعاشة • ومن الممكن أن هؤلاء الفلاحين كانوا يختارون أقدر الأعضاء ليمثلهم اذا كان راغبا فى ذلك • واذا لم يكن هناك أحد راغب فى الخدمة العسكرية ، فان عليهم أن يستأجروا أى شخص من خارج الأسرة ليتقدم للخدمة العسكرية •

وقد يدهش عصرنا الحديث الذى يتمسك بالتخصص والتدريب لكيفية عمل أولئك الجند الجدد الذين افتقروا الى التجربة فى ميدان القتال ، ولكن الفضائل التى كانت تعتمد عليها الغالبية آنذاك هى القوة العضلية ، والبراعة العقلية واليدوية ، وكذلك الشخصية • ومن المحتمل أن الجنود المشاة التابعين لوليم لم يكونوا أكثر اعدادا أو أكثر مهارة قتالية من جنود هارولد • وحيث ان الكثير منهم كانوا من المرتزقة ولم يكونوا يدافعوا عن وطنهم أو بلادهم ، فللمرء أن يتوقع أنهم لم يكونوا على مستوى السكسون Saxons • ومن الجدير بالذكر أن وليم عندما اعتلى عرش انجلترا لم يقم بالغاء نظام قوات المقاومة الشعبية على الرغم من عدم وجود شبه

له فى نورماندى • وبالاضافة الى المحاكم الادارية والمؤسسات الانجلو سكسونية الأخرى التى أبقى عليها وليم ، فانه شعر أن نظام قوات المقاومة الشعبية له مزايا حقيقية • واتضح أنه على صواب عندما ساعدته قوات المقاومة الشعبية فى القضاء على ثورة سنة ١٠٧٥ م وبالطبع فان قوات المقاومة الشعبية هى التى ساعدت فى القضاء على الجيش النرويجى فى موقعة جسر ستامفورد •

ومن الحقائق المهمة فى تاريخ فن القتال التشابه الملحوظ فى الأسلحة وأساليب القتال بين كل من الطرفين المتقاتلين بل ان الرومان على صلفهم ، وهم الذين رفضوا لفترة طويلة تدريب الخيالة لاستخدامهم فى حروبهم ، وجدوا أن من الحكمة أن يطلبوا من حلفائهم ، أو من القوات المرتزقة تغطية احتياجاتهم عندما واجهوا عددا يقاتل على ظهور الخيل • وفيما يتعلق بالأسلحة والدروع ، لم تشذ معركة هيستنجز عن ذلك • فأقوى محارب مدرب تدريبا جيدا فى كل من الجانبين المتقاتلين كان يلبس قميصا ذا دروع من حلقات معدنية حديدية ويصل الى الكوعين والركبتين ، وسماه الانجليز برنى byrnie ، وسماه الفرنسيون هوبرك haulberk واستخدم الجنود فى كل من البلدين غطاء للرأس والعنق أو خوذات مخروطية ، لها امتداد مدبب فى حافتها لحماية الأنف - وارتدى عدد قليل الطماق المدرع (كساء معدنى لحماية الساقين) (*) وبالنسبة للأسلحة فانهم كانوا يحملون حربة ، وسيفا ، ورمحا ، وبلطة ، ودبوسا معدنيا شائكا لكسر الدروع وسيفا ثقيلا ذا نصلين حادين • ويحموق أنفسهم بتروس تشبه فى شكلها الطائرات المصنوعة من الورق ، وكانت مغطاه بالجلد ومصنوعة من الحديد ، أو البرونز ، أو الخشب ومستديرة فى أعلاها • واذا كانت التروس تحمل علامات مزخرفة فانها كانت تشير الى شخصية ما ، أو عائلة ما • وبالنسبة لاودو Odo أسقف مدينة بايو Bayeaux فيقال انه ظل يجرى هنا وهناك ، فى ميدان القتال أثناء معركة هيستنجز ، ولم يكن يحمل سيفا أو بلطة ، وانما هراوة ، اذ كان محرما على رجال الكنيسة اراقة الدماء •

وعلى الرغم من التشابه العام فى الأسلحة والدروع التى استخدمها ولبسها المحاربون الانجليز والنورمان ، فان هناك نقطتى خلاف واضحتين تتطلبان التعليق • فالملاحظة الأولى الأكثر أهمية هى دور الحصان • اذ اعتاد الانجليز استخدام مطاياهم للوصول الى ميدان المعركة • وهناك يترجلون ويحاربون دون استخدام الخيول • أما النورمان فانهم مارسوا

(*) ما بين القوسين من عند المترجم •

الطريقة التى صارت شائعة فى القارة الأوربية ، وحاربوا وهم على ظهور الخيل • على أن القدرة الأكثر على الحركة والتحمل قابلتها ميزة أقل ، اذ ان خيولهم كانت تفتقر الى الدروع الواقية • فقد قتل الانجليز ثلاثة خيول كان وليم يمتطيها • أما الفرق الثانى المهم فهو استخدام السكسون للبلطة الحربية الدانمركية ذات المقبض الطويل • وهى السلاح الذى استخدمه الفايكنج ابان اغاراتهم التى قامت على السلب والنهب • وظلت تلك البلطة تثبت تفوقها كسلاح تدميرى ، اذا ما استخدمها سكسونى قوى ببراعة ضد فارس نورمانى ومطيته •

كان المشاة فى الجانب الانجليزى ، وكذلك الجانب النورماندى يحملون الأقواس والسهام ، بالاضافة الى السكين والخنجر • ويتحدث المؤرخون المعاصرون عن أناس استخدموا القوس والنشاب ، على الرغم من عدم ظهورهما فى لوحة بايو • ولقد أحضر بعض الجنود من المشاة أسلحتهم بمعرفتهم ـ اذ قاموا بصنعها ـ فى الوقت الذى تم تزويد الآخرين بها مثلما تصور اللوحة ومهما كان مصدر تلك الأسلحة فانها كانت تفتقر الى دقة التشكيل والتصنيع وهو ما ينطبق على كل مظاهر الحرب فى العصور الوسطى ابان القرن الحادى عشر ـ واذا كان جندى المشاة محظوظا فانه كان يضع خوذة على رأسه ، أو يرتدى قميصا به دروع ، على الرغم من أن معظم المقاتلين اعتمدوا على الصدرة المصنوعة من الجلد التى غالبا ما كانت مبطنة ، لحمايتهم من السهام • وتفوق جيش وليم بوجود رماة للسهام أكثر من عددهم فى جيش هارولد وهى اضافة مهمة لصالح النورمان فى رأى بعض المحللين •

لقد دارت رحى معركة هيستنجز فى أرض قفراء نسبيا ، ويحدد المؤرخ الأنجلو سكسونى مكان المعركة بوجود « شجرة تفاح رمادية » ، فوق تل فى الهضاب التى تبعد حوالى ستة كيلومترات شمال مدينة هيستنجز • ولم تكن تلك المنطقة هى التى اختارها هارولد لاستخدام القوة لحسم الموقف بينه وبين وليم • وانما كانت المكان الذى توقف فيه فى مساء الثالث عشر من أكتوبر ومعه رجاله بعد أن هرعوا من لندن الى هناك ، حيث وصلوا فى غاية الاجهاد والانهاك • وربما قرروا الاستراحة فى تلك الليلة ومباغتة معسكر وليم فى اليوم التالى • ورأى معظم المؤرخين أن هارولد لجأ الى الأسلوب نفسه الذى اتبعه مع النرويجيين فى موقعة جسر ستامفورد عندما أسرع تجاه وليم محاولا مباغتته • ومع ذلك فهناك احتمال أن اسراع هارولد تجاه الجنوب كان يهدف الى عدم تمكين وليم من تخريب الاقليم ، الذى كان به معظم اقطاعات هارولد • وربما قامت قوات

هارولد الاستطلاعية بتحذيره من التعداد الخطير لجيش وليم الذى كان فيما يرجع ينتظر وصول التعزيزات •

على أن الموقف الذى كان واضحا تماما هو عدم اتخاذ هارولد موقف الهجوم • بل ان حوليات الأنجلو سكسون تقول ان النورمان انقضوا فجأة على الانجلو قبل أن يستيقظوا من نومهم ، وان كان من الصعب تصديق ذلك • اذ كانت لهارولد قوات استطلاعية ، وأصدقاء عاشوا في المنطقة أمدوه بالمعلومات علاوة على أنه اذا كان وليم قد ظهر بطريقة لم يتوقعها أحد ، فكيف استطاع رجال هارولد أن يجدوا الوقت الذى يجمعون فيه جذوع الأشجار ، ويقطعون الأخشاب الثقيلة والسميكة ، وأسوار حظائر الأغنام ، والأبواب الخشبية ، والموانع المادية المشابهة لكى يدعموا الحائط الواقعى الذى واجهوا به وليم وجيشه صباح الرابع عشر من أكتوبر ؟ وليس هناك مجال لانكار موقف هارولد القوى • اذ كان يعسكر على قطعة أرض خالية من الأشجار في غابة بالقرب من حافة تل عرضه ستمائة ياردة واستفاد هارولد من وجود وديان ضيقة شديدة الانحدار على الجانبين • ويشرف من موقعه على سفوح التل الذى كان على جيش وليم أن يتسلقه •

ولم يذكر الكتاب المعاصرون شيئا عن الطريقة التى نظم بها هارولد رجاله خلف السور الواقى الذى شيدوه • ومن ناحية أخرى يبدو أن جيش وليم قسم نفسه الى الأقسام التقليدية ، القلب ويتكون من النورمان ، والميسرة وتتكون من البريتون Bretons ، والميمنة ويشار اليها ببساطة بالجناح الفرنسى • وكان بكل قسم من تلك الأقسام طليعة من الرماة وحملة الرماح ، ويتبعهم جنود من المشاة الثقيلى العدة ، ومعهم فرسان على ظهور الخيل فى المؤخرة •

وحوالى الساعة التاسعة صباحا دفع وليم طليعة جيشه تجاه سفح التل بقوة مفاجئة • وما أن وصل جنوده من المشاة الخفيفة الى موضع على التل شعروا أن سهامهم يمكن أن تكون لها فعالية ، حتى سددوا ضرباتهم • غير أن هذه السهام لم تحدث الا أضرارا بسيطة ، اذ كان العدو يختفى بقدر كبير خلف تروسه وتحصيناته الأخرى ، وبعد ذلك بقليل أمطرهم بقذائفهم • وفى ذلك الحين بدأ الانجليز يقابلون الهجوم بمثله ، وبكل شىء استطاعوا رميه أو قذفه ــ بالبلطات والرماح ، والأحجار المربوطة بالعصى ، والسهام ــ وفعلوا ذلك بحماية شديدة لدرجة أن البريتون وهم ميسرة جيش وليم تحولوا الى حالة من الفوضى ، وارتدوا على أعقابهم تجاه أسفل التل • على أن حالة الهلع التى أصابت البريتون شجعت بعض الانجليز على تعقبهم الى سفح التل على أمل ابادتهم ، وهم

يفرون في غير نظام • غير أن وليم أدرك الطبيعة الحرجة للموقف ، فتحرك بسرعة بفرسانه للتصدى للانجليز لمنعهم من المطاردة • وهى مناورة لم تنقذ البريتون من الكارثة فحسب ، وانما أوقعت عددا كبيرا من الانجليز فى شرك لم يستطع أحد منهم الافلات منه •

وهذه الحادثة هى احدى التفاصيل القليلة عن المعركة التى وصفها المؤرخون ، على الرغم من أن القتال استمر لمدة ثمانى أو تسع ساعات ونعنى بذلك حتى الغسق ، وللقارىء أن يخمن ماذا حدث • ومن المحتمل أن المعركة اتخذت صفة العراك الصاخب ـ صراع عنيف بين جماعات وأفراد فى تلاحم دون أدنى نظام وبشكل عام ـ ودار الجزء الأكبر من المعركة على سفح التل أمام السور الواقى الذى عبره المحاربون السكسون ، وانقضوا ليطبقوا على العدو من تحتهم عند قاع سفح التل • وفى بداية تلك المعركة سقط أخو هارولد •

أما وليم فقد كان يقاتل بحماس شديد لدرجة أنه استبدل ثلاثة من الخيول بعد أن قتلوا من تحته • وفى احدى مراحل القتال انطلقت صيحة أن الدوق قد قتل ، وهو تطور كان من الممكن أن ينهى مقاومة النورمان على وجه السرعة ، ونرى فى لوحه بايو وليم رافعا خوذته ، وينادى على رجاله ، بأنه مازال على قيد الحياة •

وذكر المؤرخون الفرنسيون مثل وليم من بواتيه William of Poitiers أن وليم استخدم التكتيك الحربى الخاص بالانسحاب المخادع ، وذلك فى محاولة لتفسير عمليات الانسحاب النهائى التى قام بها النورمان • ثم شن وليم هجوما مضادا تمخض عن نتائج مروعة بالنسبة للعدو عندما أساء الانجليز فهم الانسحاب ، واعتقدوا أنه هزيمة ، وتقدموا بعيدا جدا عن دفاعاتهم • وان كان بعض المحللين لا يوافقون على هذا الرأى • ودافعوا عن هارولد باعتباره محاربا محنكا للحد الذى لا يجعله يتعرض ثلاث مرات للخدعة الحربية نفسها ، ولا سيما أن الانجليز تمتعوا بموقف جيد بالنسبة لميدان المعركة ، من خلال سورهم الواقى • ويشك المحللون أيضا فى مقدرة وليم على تنفيذ هذه المناورة الصعبة • وقبل البعض الآخر كلمات بواتيــه Poitiers بالمعنى الظاهرى ، وأصروا على أن الجيش الرومانى كان منظما ، لدرجة تسمح له باجـراء انسحاب مخادع • كمـا أن تقدم السكسون البطىء ، والحذر ، أمام السور الدفاعى الحصين ، قد أمـد وليم وفرسانه بوقت كاف لاعادة تنظيم قواته من المشاة « التى كانت منسحبة » من أجل معاودة الهجوم •

وعندما أنهكت المعركة الجميع دون تحول حاسم ، ازداد وليم قلقا وترقبا ، وهو يرقب حمرة الغسق التى بدأت ترتسم فى السماء اذ أدرك أنه اذا لم يكسب المعركة قبل قدوم الليل ، فانه سيجد جيشه المنهك فى الصباح التالى فى مواجهة جيش من الانجليز المفعمين بالنشاط ابان الليل ويقال انه أصدر أمرا بشــن هجوم عام أخير كتب له النجاح · اذ انهار السور الواقى وزاد الطين بلة ، أن سقط هارولد قتيلا (٤) · وبرغــم ذلك لم يتوقف القتال · وعندما تقهقر الانجليز وتفرقوا فى الغابة التى بدأ الظلام يخيم عليها ، استدار بعض المحاربين من أصحاب الاقطاعات وهاجموا النورمان الذين كانوا يطاردونهم وقتلوا عددا كبيرا من أشجــع رجال وليم قبل أن يجبر العــدو على الارتداد كلية · وفى النهــاية ، كما عبر المؤرخ الأنجلو سكسونى تعبيرا مناسبا ودقيقا « سيطر الفرنسيون على مكان المذبحة » (٥) ·

حددت معركة هيستنجز مصير انجلترا الأنجلو ـ سكسونية ، اذ لم يعرف القادة الانجليز ماذا يفعلون على الفور ، ذلك لأن مقتــل هارولد أفقدهم الرجل الوحيد الذى قبلوه عن طيب خاطر · وأعلن حاكم ميركيا Mercia وحاكم نورثومبريا ، وبعض رجال الكهنــوت بما فيهم رئيس يورك ، موافقتهم على اختيار ايثلنج Aetheling ، وهو حفيد شقيق أو شقيقة ادوارد المعترف ، بيد أنهم فعلوا ذلك دون حماس ، ذلك لأن الشاب كان صغير السن ، ويفتقر للخبرة التى تؤهله للثقة ·

وأظهر وليم من ناحيته الدهاء الذى عرف عنه ، وكذلك قسوته ، وتحــرك أولا الى رومنى Rommney ، ودوفر Dover لكى يطمئن على خطوط المواصلات مع نورماندى ، ثم ذهب الى كانترين التى حالفها الحظ ، لنجاتها من غضبه · وبعد ذهابه شهد رجاله عدة غارات · وقتلوا الرجال والحيوانات وأحرقوا المنازل ، وحظائر الخيول ، وأدوات الفلاحة وغيرها · ولم يتركوا خلفهم سوى الأسى والخراب والدمار · وبعد أن أحرق أحد طوابير جنوده سوثورك Southwork اتجه بجيشه غربا تجاه نهر التيمز Thames والى ولنجفورد Willinford حيث استسلم ستيجاند السكسونى Saxon Stigand ثم عبر وليــم نهر التيمز ، وفى الوقت الذى وصل فيه الى بركهانستد Berkhansted فى طريقه الى لندن ، حضر اليه القادة السكسون الآخرون بما فيهم ادجار Edgar وهم على استعداد لأداء يمين الولاء له · وفى يوم عيد الميلاد ، وبعــد مرور عام تقريبا على تتويج ايلدرد Ealdred رئيس أساقفة يورك للملك هارولد فى دير وستمنستر ، قام أيضا بوضع التاج على رأس وليم الفاتح ·

٥ ـ معركة حطين

اختتم وليم رئيس أساقفة صور ، واكثر المؤرخين أهمية فى القرن الثانى عشر تاريخه عن مملكة بيت المقدس ، بتعليق موقع للكآبة فى النفس وموهن للعزيمة ، اذ كتب سنة ١١٨٤ م ، عن المسيحيين فى سوريا ، « ان كوارث هذا الشعب المغلوب والذى تعددت بلاياه هى الموضوعات الوحيدة التى فرضت نفسها » (١) • والواقع أن وليم كان لديه مبرر لتشاؤمه ، اذ لم يكن الشقاق السياسى المتزايد الذى مزق شمل المسيحيين القلائل الذين اتخذوا من سوريا وطنا لهم ، أو اتفاق العالم الاسلامى تحت قيادة صلاح الدين الملهمة من الأمور الخافية • وكانت الامارات الصليبية فى خطر شديد • فبعد ذلك بسنوات ثلاث ، وفى الرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م ، ثبت صحة هواجس وليم السوداء ، عندما هزم صلاح الدين والمسلمون الصليبيين هزيمة نكراء • وفى الثانى من أكتوبر ، استسلمت بيت المقدس لصلاح الدين وصارت مملكة بيت المقدس أثرا بعد عين •

والواقع أن وضع المسيحيين كان خطيرا عندما كتب وليم تعليقه المنذر بالسوء سنة ١١٨٤ م ، على الرغم من عدم استحالة تغيير هذا الوضع • ولولا ثقة المرء فى قدرات المؤرخ على وضوح الرؤية ، لكان من الممكن ايجاد مبررات تتعلق بصحته العليلة بأنها كانت سببا فى تشاؤمه ـ اذ مات بعد ذلك بوقت قصير ـ وربما كان يعانى من الشعور بالمرارة الذى لازمه نتيجة لتنصيب هرقل بطريركا لبيت المقدس برغم عدم استحقاقه لهذا المنصب ، قبل أربع سنوات على وفاة وليم ، الذى كان تواقا لشغله •

عانى المسيحيون من الأزمات قبل سنة ١١٨٤ م ، ونجحوا فى تخطيها • وعلى الرغم من أن معركة حطين كانت من النوع الفريد ، فان ما جعلها أشنع مأساة ، بكل ما فى الكلمة من معنى ، هى حقيقة أنه لم يكن هناك حاجة قط لخوضها • ولولا اللحظة الفاجعة التى تقدم منها جوى

Guy ملك بيت المقدس باقتراحه الأهوج ، لاستطاع المسيحيون الاستمرار في سياستهم الناجحة بصفة عامة في تجنب المعارك الكبرى مع العدو ، الى أن تنهار الجبهة المتحدة التى أوجدها صلاح الدين • وفى تلك الحالة ، لم يكن العالم ليعرف شيئا عن صلاح الدين ، أو عن ريتشارد قلب الأسد ، أو الحملة الصليبية الثالثة التى أوصلت هؤلاء الرجال جميعا الى الشهرة ، بل ربما لم يسمع العالم عن الحملات الصليبية التالية • تلك هى الاعتبارات التى بررت اعتبار معركة حطين على أنها أحسم المعارك التى حدثت طوال عصر الحروب الصليبية •

بدأ عصر الحروب الصليبية في أواخر صيف سنة ١٠٩٦ م ، عندما احتشد الفرسان المسيحيون فى القسطنطينية استجابة للدعوة الملحة التي وجهها البابا أوربان الثانى لشن حرب مقدسة ضد المسلمين • اذ القى البابا أوربان الثانى خطابا طويلا ورنانا ومفعما بالتوبيخ والتعنيف على مستمعيه مركزا على سوء معاملة الحجاج الى الأراضى المقدسة ، التى كانت فى ذلك الحين تحت قبضة المسلمين ، وذكرهم بأن أرض الكتاب المقدس ، « أرض اللبن والعسل » • ترقب استردادها • ومن القسطنطينية شق الصليبيون طريقهم بالنضال والكفاح ببطء عبر الأراضى الوعرة فى آسيا الصغرى وسوريا • وكادت تودى بهم كوارث عدة ولكنهم حققوا هدفهم فى النهاية فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٠٩٩ م ، عندما استولوا على بيت المقدس •

وبلغ عدد المحاربين الذين شاركوا فى هذه الحملة الصليبية حوالى ثلاثين ألفا (الكلمة اللاتينية للصليب Crux ، والتى جاء منها كلمة صليبى Crusade) • وفى هذه المجال ، كانت الاستجابة للدعوة البابوية كبيرة • اذ كان تعداد سكان أوربا قليلا ، والمنطقة لاتزال تعيش فى العصر الاقطاعى وكانت فترة من الفوضى النسبية عندما اهتم جماعة من النبلاء الأقوياء ، الذين امتلكوا الأراضى والمهتمين بزيادة ثرواتهم قبل كل شيء ابان سيطرتهم على أوربا سياسيا واقتصاديا • ولولا أن أواخر القرن الحادى عشر كان مفعما بروح حركة الاصلاح الدينى والانبعاث الروحى ، لأثارت دعوة البابا أوربان قليلا من الحماسة •

ومع ذلك فلو أنه كان قد احتشد ضعف عدد المسيحيين الذين لبوا دعوة أوربان لما كان هذا العدد كافيا للتصدى على الاطلاق للأعداد الهائلة للمحاربين الذين كان فى استطاعة العالم الإسلامى حشدهم لو أنه كان عالما اسلاميا متحدا • بيد أنه لم يكن كذلك اذ ان المسلمين فى سوريا الذين تحملوا الوطأة الكبرى للهجوم المسيحى ، لم يتلقوا سوى مساعدة

ضئيلة من المسلمين فى بلاد ما بين النهرين أو من مصر • وما أن أتت سنة ١١٠٩ م ، حتى كان الصليبيون قد اقتطعوا من العالم الاسلامى أربع مناطق لأنفسهم على امتداد ساحل البحر المتوسط بما فيها مملكة بيت المقدس الى الجنوب ، واقليم طرابلس ، وامارة أنطاكية القريبة من الشاطىء، واقليم الرها فى أقصى الشمال والمحاذى لأرمينيا تقريبا •

وما أن صار بيت المقدس تحت قبضة الأيدى المسيحية حتى عادت الغالبية العظمى من المسيحيين الى أوطانهم فى أوربا • ومن يمن طالع حكام الامارات المسيحية الصغرى الذين تركوهم من خلفهم أن مجموعة الدول الاسلامية ظلت منقسمة على نفسها ، كما كان الحال من قبل • وكانت هناك حوادث متماثلة عندما عقد شيوخ القبائل المسلمون تحالفا مع الامراء المسيحيين ضد المسلمين الآخرين ، وفى بعض الأحيان أيضا تحالف المسيحيون مع المسلمين ضد المسيحيين الآخرين وكان من جراء هذه الفرقة أن استطاعت الامارات الصليبية الاعتماد فى العادة ، على سياسة الحياد ، اذ لم يكن فى استطاعتها التعاون ، ومن أمثلة ذلك امارتا دمشق وحلب ، اللتان اعتبرتا الخليفة فى بغداد أشد خطورة على حكمها الذاتى من المسيحيين •

وعقب فشل الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ ــ ١١٤٩ م) تنبه الأمراء المسيحيون ، الذين ربما أدركوا ادراكا كاملا ضعف مركزهم ، الى ضرورة مصادقة المسلمين • وكان سقوط امارة الرها سببا عجل بحدوث هذه الحملة الصليبية • وأخذ كل من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا ، على عاتقيهما مهمة اجهاض الهجوم الاسلامى الذى استهدف اقتلاع جذور الامارات الصليبية • غير أن كونراد فقد جيشه فى آسيا الصغرى ، فى حين حقق لويس نجاحا طفيفا • وعندما كتب على هذه الحملة الصليبية الفشل الذريع ، هاجم المسيحيون دمشق التى ارتبطوا معها بعلاقات ودية ، فى هجوم غير محكم • وكان الهجوم خاطئا وفاشلا ، بالرغم من أنه أعطى للمسيحيين درسا مفيدا ونعنى به ، أن استمرار تفكك العالم الاسلامى هو أفضل الآمال لبقاء المسيحيين •

وظهرت عوامل أخرى غير تفكك العالم الاسلامى ساعدت الامارات المسيحية على الاحساس بالأمل فى التصدى لهجوم المسلمين • ومنها حضور الصليبيين الجدد • ففى غضون ١١٠٠ ــ ١١٠١ م وصلت الى القسطنطينية ثلاثة « جيوش » فى طريقهم الى بيت المقدس • وكما حدث فلم يصل أى من تلك أبعد من الأناضول حيث أصيبوا بالاخفاق ، بيد أن بعض الجماعات المسيحية وصلت الى سوريا ، وبصفة خاصة عندما

تولت المدن الايطالية نقل الحملات الصليبية وتوصيلها الى المدن المسيحية المحصنة على امتداد الشاطىء • وفى سنة ١١٠١ م وصل أسطول من جنوه الى ميناء حيفا محملا بالرجال والعتاد • وفى العام التالى وصلت مائتا سفينة من انجلترا بها الكثير من القوى البشرية المطلوبة • وعندما تحرج الموقف أجبر الحجاج على الانضمام الى المقاتلين بالرغم من أنه لم يكن فى نيتهم القتال • وحدث هذا عام ١١٨٣ م ، أى قبل معركة حطين بأربع سنوات ، عندما قام صلاح الدين بهجومه الكبير على مملكة بيت المقدس • عاما بعد عام ظل القساوسة والرهبان يذكرون المؤمنين بواجبهم فى مساعدة الحرب الصليبية بالرجال ، والمال ، واستجاب الحجاج والمحاربون كل عام لتلك الدوافع الملحة التى مارسها القساوسة والرهبان بكل قوة وعزم •

وثبت أن دور المدن الايطالية كان حاسما بالنسبة لبقاء الامارات الصليبية ، اذ ان تلك الامارات كانت تفتقر الى الأساطيل التابعة لها ، فى حين كانت السفن البيزنطية فى الصورة بين الحين والآخر ، لأن الامبراطور البيزنطى كان فى حاجة اليها فى أماكن أخرى ، وفى العادة • ومن أجل الوفاء بحاجات الصليبيين للسفن ، قدمت المدن الايطالية خدماتها • وكانت البندقية ، وجنوة ، وبيزا أكثر المدن الايطالية نشاطا ، كما كانت أيضا أكثر الجماعات المغامرة فى مجال زيادة نطاق التجارة التى حولت اقتصادية غرب أوربا رويدا رويدا • وبالرغم من أن تلك المدن الايطالية المذكورة لم تفعل شيئا بشأن اقامة الامارات الصليبية ، فانها استغلت الفرصة الذهبية لصالحها فى زيادة عملياتها التجارية • والواقع أنهم لعبوا دور التجار ورجال الأعمال أولا ، ودور الصليبيين ثانيا ، بيد أنه بدون مساعدتهم ، ما كان للصليبيين أن يحتفظوا بالأراضى التى سيطروا عليها الى مدى طويل •

ان السفن التى قدمتها المدن الايطالية مكنت الصليبيين من تجنب مخاطر الطريق البرى عبر آسيا الصغرى ، حيث تعرضت جيوش مسيحية عديدة للفناء • وعمل قيامهم بالنقل البحرى على حل المشكلة الضخمة المتعلقة بامداد الصليبيين ، الذين أقاموا فى سوريا ، حيث نقلوا الأسلحة الحربية ، ومعدات الحصار • وأثبتت السفن الايطالية أنه لايمكن الاستغناء عنها فى عملية الاستيلاء على مدن المسلمين الحصينة على امتداد الشاطىء • بل ان الاستيلاء على مدينة بيت المقدس البعيدة عن الشاطىء سنة ١٠٩٩ م تم بسهولة بفضل وصول المعدات التى أنزلها أسطول جنوه فى مدينة يافا • وبعد كارثة حطين ، كان الأسطول الصقلى هو

الوحيد الذى منع صلاح الدين من اكتساح طرابلس ، وأنطاكية ، ابان موكب نصره فى أراضى سوريا ٠

ان الثمن الذى طلبته المدن الايطالية مقابل خدماتها كان باهظا ٠ ففى مقابل تقديم سفنهم ومساعداتهم المالية ، فانهم حصلوا على امتيازات تجارية كبيرة تضمنت الحق فى الحصول على أحياء خاصـــة بهم بالمدن أداروها كما لو كانت ملكا لهم ٠ وفى سنة ١١٢٣ م حصلت مدينـــة البندقية على حى بكل مدينة فى مملكة بيت المقدس وتمتعت جنوه ، وبيزا بامتيازات مشابهة فى مدن أخرى ٠ وقيدت تلك الامتيازات حركة الحكام فى ادارة شئون اماراتهم ، بل حتى فى التعامل مع العدو ، طالما أن أهدافهم وأهداف أولئك الذين ينتمون الى المدن الايطالية ، فى حالة تعارض بصفة دائمة ٠ وكان الايطاليون مهتمين بالتجارة بصفة أساسية ، بما فيهـــا التجارة مع العدو ، وكانوا يعارضون أى ســـياسة من شأنها تعريض السلام للخطر ٠ وكما حدث ، فان الأقلية المحدودة التى عاشت فى سوريا كانت فى العادة تطالب بسياسة السلام كمطلب وحيد حكيم من الامارات الصليبية وكان هذا مطلب المدن الايطالية بصفة عامة ٠

بل انه حتى فى الحالات الشخصية الخاصة ، لعب الذهب الايطالى دوره فى التأثير على مجرى التاريخ الصليبى ٠ ومن أمثلة ذلك قصـــة وقعت قبيل معـــركة حطين مباشرة ٠ اذ وعد ريموند أمير طرابلس ، جيرارد من ريد فورت Gerard of Ridefort الذى كان مولعـا بالترحل والمغامرات الفروسية في انجلترا ، أن يزوجه أول وريثة غنية يصادفهـــا ٠ وعندما مات Dorel السيد الاقطـاعى من بوترون Lord of Botron ، قام ريموند Raymond باتمام زواج ابنة دوريل بتاجـــر ثرى من بيزا ، بدلا من أن يزوجهـــا الى جيرارد ، بعد أن قدم اليه هذا التاجر البيزى ، ما يعادل وزن الفتاة ذهبا وفقا لما قيل فى حينه ٠ واذا ما كانت هذه القصة حقيقية ، فان ريموند لن يأسف على أى شىء أكثر من مجـــرد أنه حنث فى وعده الى جيرارد ، ومن ثم جنى على نفسه كراهية جيرارد الأبدية له ٠ وترك جيرارد الخدمة العسكرية وصار فيما بعد رئيسا للرهبان الداوية Templers ٠ وفى الليلة السابقة على معركة حطين أقنع جيرارد ، جى Guy ، ملك بيت المقدس بأن يرفض الخطـة الاســتراتيجية السلمية التى تقـدم بها ريموند ، وأن يهاجم صلاح الدين وهو الاقتراح الذى انتهى بنهـــاية مأساوية للمسيحيين وريموند ٠

وربمـــا كان من أهم حوادث هذا العصر التى ســـاعدت الامارات الصليبية فى جهـــودها لمقاومة المسلمين هو تشـــكيل فرقتى الداوية

والاسبتارية Templers and Hospitallers وكان لكل من هذين النظامين العسكريين أتباعه الذين تجمعوا فى شكل جماعات متحمسة من أجل مساعدة الحجاج عند زيارتهم الأراضى المقدسة . وبمرور الوقت أخذت هذه الجماعات على عاتقها تحمل مسئولية حماية الحجاج ، وأصبح هؤلاء الحماة محاربين على مستوى الكفاية . وأثبتوا أنهم أشجع المحاربين فى مواجهة العرب ، ولم تعد مهمتهم حماية الحجاج فحسب وانما امتدت الى محاربة المسلمين ، فى كل مناسبة وحتى الموت . واذا كان صلاح الدين قد سمح للأسرى بأن يفدوا أنفسهم أو أن يدفع الآخرون الفدية عنهم ، الا أنه لم يطبق ذلك على فرسان الداوية والاسبتارية ، نظرا لأنهم قد الزموا أنفسهم بالقسم أن يقاتلوا دفاعا عن الدين طالما كانوا على قيد الحياة ، لذلك فان صلاح الدين نفذ حكم الاعدام في كل فرد من الفرسان الداوية والاسبتارية وقع تحت قبضة يده .

وشكل أعضاء هذين التنظيمين الجيش العامل الوحيد الذى كان فى استطاعة حكام الامارات الصليبية اللجوء اليه ، فى وقت المحنة أو الذى كان جاهزا لمقاومة بعض الجماعات المغيرة على المناطق الريفية . فكان طبيعيا أن تتولى تلك التنظيمات مهمة قيادة ، وادارة الحصون القوية على امتداد حدود كل امارة ومن اليسير ادراك كيف صارت تلك التنظيمات تشكل عنصرا لاغنى عنه بمرور الوقت فى الحرب فى سوريا . ولسوء الحظ غالبا ما حولتهم المنافسة المريرة الى أعداء ، على مثال المدن الايطالية . ومن ثم أضعفوا أهميتهم أمام الحكام الصليبيين . وكانت التنظيمات العسكرية تابعة مباشرة للبابوية ، ولذلك خاضوا الحرب كحلفاء لا كرعايا لملك بيت المقدس وربما قام حكام الامارات الصليبية بمساومتهم مقابل تعاونهم بنفس الطريقة التى اتبعوها مع المدن الايطالية .

ان ذكر الفرسان الداوية والاسبتارية يعيد الى الذهن صور القلاع مثل قلعة الكرك للفرسان الفرنسيين ، وضمت هذه القلعة المهمة ألفى مقاتل . ويشير هذا الى الأهمية الحيوية لتلك القلاع ابان عصر الحروب الصليبية . وكانت هذه القلعة تقع فى سوريا الشمالية حيث سيطرت على حركة سير القوافل من حمص وحماة الى بلاد ما بين النهرين . لذلك لم يكن فى استطاعة قافلة للمسلمين المرور ما لم تكن مصحوبة بقوة عسكرية قوية ، وذلك في حالة الحرب . وينطبق الشىء نفسه على قلعة فى شرق الأردن جنوب البحر الميت ، والتى كان فى استطاعتها اعتراض سبيل القوافل بين دمشق ومصر .

وهذا يقدم لنا دورا مهما عن القلاع . اذ ان وجودها فى أماكن استراتيجية جعلها تسيطر على حركة انتقال البضائع مما شجع على السلام

بين الجماعات المعادية • وساعدت أيضا كمراكز ادارية فى توطيد الحكم المسيحى • وأحبطت هجمات الجماعات العربية المغيرة ، مما ساعد على استعمار واستغلال المنطقة من الناحية الاقتصادية • وعلى الرغم من أن عدد هذه القلاع لم يكن كافيا ، وكذلك القوى البشرية بها ، فانها حدت من حرية جماعات المسلمين القليلة التى دأبت على مهاجمة المناطق الريفية • بل انه ربما تردد جيش كبير اذا ما فكر فى المرور أمام قلعة قوية ما لم يجد نفسه معرضا للمصاعب ، ومضطرا الى التراجع • وعلى الجانب المقابل ، أمدت تلك القلاع الجماعات الصليبية بمكان آمن عندما كانت الهزائم تجبرهم على التراجع أمام هجوم العدو •

وفى سنة ١٠٩٥ م عندما أعلن البابا أوربان دعوته أمام المجتمعين من رجال الكهنوت والاستقراطيين فى كليرمونت Clermont من أجل خوض حرب مقدسة Crusade ضد (المسلمين) ، فانه فعل ذلك ردا على استغاثة وصلته فى العام السابق من الكسيوس كومنين Alexius Comnenus الامبراطور البيزنطى • حيث طلب الامبراطور محاربين لمساعدته فى الأناضول ضد الأتراك السلاجقة ، الذين اجتاحوا الجزء الأكبر من هذا الاقليم بعد انتصارهم الذى جاء بكارثة على الجيش البيزنطى فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ م • ان البابا هو الذى وسع دائرة الطلب الذى كان فى جوهره متواضعا من ناحية الامبراطور الى حركة واسعة المدى اشتملت على سبع أو ثمانى حملات صليبية ، وانضم اليها عشرات الآلاف من المقاتلين لمدة قرنين تقريبا قبل أن يتم طرد المسيحيين من بلاد شرق البحر المتوسط Levant • ولم يكن الكسيوس يتصور شيئا بمثل هذا الطموح على الاطلاق ، اذ لم يكن هو أو من جاء بعده من أباطرة بيزنطة مهتمين ببيت المقدس المقدس والأراضى المقدسة بدرجة اهتمامهم باقليم الأناضول وأنطاكية •

ومع ذلك لعب الأباطرة البيزنطيون دورا حيويا فى نجاح الحملات الصليبية اذ ان اسطولهم كان أقوى الأساطيل فى ذلك الجزء من البحر المتوسط • ورغم أن مصالحهم جعلتهم يحتفظون بسفنهم قرب ديارهم فى العادة ، فانهم تعاونوا أحيانا مع الجهود الصليبية جنوبا حتى مصر • ولولا ارتياب الصليبيين الراسخ فى الدوافع الأساسية لبيزنطة ، بالاضافة الى أنانية هؤلاء الصليبيين ، لسجل تاريخ الصليبيين العديد من صفحات النجاح للمسيحية •

حكمت القسطنطينية كلا من سوريا ومصر فى فترة تاريخية سابقة • ونظرا لنجاح السادة الاقطاعيين الغربيين فى انتزاع المنطقة الساحلية الشرقية من مجموعة الدول الاسلامية دون أن تقدم بيزنطة

مساعدة مباشرة ، لذلك فانهم ادعوا تبعية تلك الأراضى لهم ، برغم القسم الذى أدوه من قبل أمام الكسيوس بأن يكونوا أتباعا مخلصين له • وفى ذلك الحين لم يستطع الكسيوس أن يفعل شيئا ليباشر حقه بالقوة • وفيما بعد ، عندما واجهت الامارات الصليبية صعوبة فى الدفاع عن نفسها لم يكن أمامها خيار فى طلب مساعدة بيزنطة ونتيجة لذلك ، فان امارة أنطاكية ، أقرب الامارات الى القسطنطينية ، اعتبرت غالب الأحوال اقطاعة تابعة للامبراطور •

وكان وجود السلطة البيزنطية فى الأناضول ، وفى المنطقة التى تقع شرق قيليقية Cilicia أمرا خطيرا بالنسبة لوجود الامارات الصليبية • وقبل ابادة الجيش البيزنطى فى مايكريوكيفالون Mycriocephalon فى شرق الأناضول ، سنة ١١٧٦ م على يد الأتراك وهى الهزيمة التى قضت على بيزنطة كقوة عظمى فى تلك المنطقة ، لم يشعر المسلمون فى الموصل بالحرية فى حشد قواهم من أجل احتلال حلب ودمشق • وكانت هاتان المدينتان مفتاحا للسيطرة على شمال سوريا • وقد تعامل حكامهما الذين استقلوا مع المسيحيين فى طرابلس ، وانطاكية ، ومملكة بيت المقدس كامارات حاجزة عملت على حمايتهم من الهجوم المباشر من قبل الموصل وبغداد • وكان الجيش البيزنطى ، قبل كارثة ميكريوكيفالون يحافظ على توازن القوى من الناحية الواقعية بين الامارات الصليبية والمسلمين الذين تمتعوا بالحكم الذاتى فى حلب ، ودمشق ، والموصل • ان الهزيمة التى منيت بها بيزنطة فى مايكريو كيفالون يمكن اعتبارها تطورا مهما أكثر من أى شىء آخر فى تتبع قصة السقوط النهائى لبيت المقدس على يد صلاح الدين •

وارتبط علو شأن الامارات الصليبية أو أفول نجمها بالمقدرة الشخصية لحكامها • وربما يبدو هذا مدهشا مادام الملك أو الأمير سيدا اقطاعيا ـ كما كان الحال فى غرب أوربا ـ يدير مملكة يدبر شئونها عدد من النبلاء الأثرياء أشباه المستقلين الى حد كبير • ونعم هؤلاء البارونات barons بحق استشارتهم فى كل الموضوعات المهمة تقريبا ، بل وحتى فى الموضوع المهم المتعلق بالخلافة حتى انه اذا ما تبنى سيد « اقطاعى » سياسة يعارضها غالبية أتباعه اتهموه بالتهور والطيش • واذا كان هؤلاء الحكام خاضعين لوضع غير محدد المعالم على أطراف العالم الاسلامى ، الا أنهم كانوا أسعد حظا لتمتعهم بسلطة فاقت سلطة أبناء عمومتهم الاقطاعيين فى غرب أوربا • اذ كانت المسألة منسألة بقاء أغلب الأحوال لأنه ما لم تتعاون الطبقة الأرستقراطية مع سادتهم الاقطاعيين ، على الأقل فى فترات المحن ، فان

ذلك سوف يجلب الضياع للجميع • وبسبب عظم مساحة مملكة بيت المقدس ، وحقيقة أنها تضم مدينة القدس ، فان ملك هذه المملكة مارس نوعا من السيادة الاقطاعية العليا على الامارات الصليبية الأخرى •

كان جوفرى من بويون Godfrey of Bouillon أول حاكم لمملكة بيت المقدس عشية الاستيلاء عليها فى يوليو ١٠٩٩ م • وكان انجاز جودفرى الرئيسى هو الحاقه الهزيمة بجيش مصرى فى عسقلان • وهو النصر الذى ساعد على تقوية الحدود الجنوبية لمملكته • وعند موت جودفرى سنة ١١٠٤ م خلفه شقيقه بولدوين Boldwin حاكم الرها• وحتى ذلك الحين كانت بيت المقدس تابعة للكنيسة من الناحية العملية • ولقد أثبت بلدوين الأول أنه لا يقل مقدرة عن أخيه ، اذ صد الهجمات العسكرية المصرية من الجنوب ، فى حين حقق وضعا قويا فى الشمال حتى اضطرت امارة حلب الاسلامية الى دفع اتاوة منتظمة له اعترافا بتفوقه عسكريا عليها • ويرجع الفضل الى ابنه بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣١م) فى الموافقة على وجود الرهبان الداوية والاسبتارية وتشجيعهم على ممارسة المهام الحربية وذلك بأن عهد اليهم بالقلاع على امتداد الحدود الشرقية •

وخلفه الملك فولك Fulk كونت أنجو Anjou ، الذى تزوج من ابنة بلدوين الكبرى ، وفى ذلك الحين اتخذت السياسة الخارجية اتجاها مهما • وحتى هذه المرحلة شكلت كل من مصر فى الجنوب وحلب ودمشق فى الشمال تهديدات مستمرة لوجود المملكة • وبعد سنة ١١٢٨ م ازداد تهديد وجود مملكة بيت المقدس خطورة • ففى تلك السنة استولى عماد الدين زنكى أتابك الموصل على مدينة حلب ، وفى السنة التالية ، استولى على حماه ، وهى مدينة كبرى فى شمال سوريا • وعلى ضوء ما حققه زنكى من نجاح لم تستطع كل من دمشق وبيت المقدس أن تتحملا البقاء فى حالة من العداء بصفة عامة حتى مجىء الحملة الصليبية الثانية التى جانبها التوفيق • ولم يتمخض الهجوم المسيحى على دمشق عن فشل ذريع فحسب ، وانما جعل هذه الامارة المسلمة ترتمى بين أحضان نور الدين بن عماد الدين زنكى وخليفته ، وبذلك تفاقم التهديد لبيت المقدس من الشمال بدرجة خطيرة • وسعى خليفته بلدوين الثالث للرد على هذا التهديد بعقد تحالف مع الامبراطور فى القسطنطينية - وأفاد هذا التحالف مملكة بيت المقدس الى أن حلت الكارثة ببيزنطة فى موقعة مايكريوكيفالون ١١٧٦ م •

كان من الممكن أن تكون وفاة بلدوين الثالث سنة ١١٦٣ م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره خسارة مأساوية لمملكة بيت المقدس لو لم يكن أخاه الأصغر عمورى الأول قد برهن على أنه ملك موهوب لم يسبق أن

شهدت مملكة بيت المقدس مثيلا له • فمن بين انجازاته غير السياسية ، تعيينه وليم الصورى William of Tyre مؤرخا للبلاط الملكى ، اذ بدون حوليته الرائعة ، ما كان لنا أن نعرف سوى القليل جدا عن مملكة بيت المقدس ، والحملات الصليبية الأولى • واستمر عمورى الأول فى سياسة المحافظة على الصلات القوية مع الامبراطور البيزنطى ، الى حد قبول الوصاية على بيت المقدس • وتمخض هذا التحالف عن شعور خاطىء بالقوة دفع عمورى الأول والامبراطور البيزنطى الى محاولة غزو مصر • وكانت فكرتهم عن ثروة مصر الهائلة صحيحة تماما ، بيد أنهم أخطأوا الحسابات فيما يتعلق بتدهور أحوال هذه الدولة الاسلامية • وتمخض تدخلهم عن شىء واحد فحسب ، وهو اضعاف مصر وفتح الباب لتدخل نور الدين ونائبه صلاح الدين الذى جعل نفسه حاكما على مصر بعد وقت قصير •

ثبت أن موت عمورى الأول سنة ١١٧٤ م كان كارثة مأساوية بالنسبة لمملكة بيت المقدس • اذ ترك العرش الى ابنه الصغير ، بلدوين الرابع ، الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره ، والذى لم يكن قاصرا فحسب ، وانما مصابا بمرض الجذام أيضا • فمسألة خلافة العرش أزعجت عهد بلدوين بدرجة أدركها الجميع لمدة اثنى عشر عاما • وكذلك الوصاية على العرش ، لأن بلدوين ظل قاصرا لمدة عامين ، وبعد ذلك تطلب الأمر ملكا بدلا منه ، ابان فترات اشتداد المرض • وكان ريموند الثالث Raymond III ، كونت طرابلس الوصى الأول على العرش ، قد أثبت أن اختياره كان موفقا • فعلى الرغم من أن تاريخ حياة ريموند قد سجل تقييمات متباينة ، فانه برز من بين القادة الصليبيين لعصره ، على أنه أحد الذين كانوا على استعداد للاعتراف بحتمية تحقيق قدر ما من التوافق مع العرب • ووصفه وليم بأنه كان « رجلا مخيفا الى حد ما ، ومتوسط الطول ، وقسمات وجهه تشبه العقاب ، ولون بشرته داكن ، وشعره أميس وداكن ، وكان عريض المنكبين » •

وميز حادثان لهما أهمية قصوى السنوات الأولى من عهد بلدوين الرابع • الحدث الأول هو القضاء على الجيش البيزنطى سنة ١١٧٦ م ، فى مايكريوكيفالون • وأبعدت هذه الهزيمة السلطة البيزنطية كعامل فى سوريا ، وبذلك حرمت مملكة بيت المقدس بطريق غير مباشر من حليف أساسى • أما الحدث الآخر ، فقد وقع فى العام التالى سنة ١١٧٧ م ، عندما منى صلاح الدين بهزيمة مريرة عند مونت جيزارد Mont Gisard الى الجنوب والغرب من بيت المقدس • وفى ذلك الحين نجح صلاح الدين فى السيطرة على دمشق وسوريا الشمالية ، وأرسل جيشه الكبير لمهاجمة

المناطق الريفية التى ليس لهـا دفاعات ، وكذلك القرى الواقعـة بين بيت المقدس والشاطىء ، على أمل استدراج الصليبيين للدخـول فى معركة • ومن حسن حظ الصليبيين أن بلدوين الرابع رفض المعـركة ، بيد أنه ما آن تبعثر جيش صلاح الدين فى عملياته الهجومية حتى أعطى بلدوين الرابع أوامره بالهجوم • فكانت النتيجة أن تحطمت قوة العرب ، وهروب صلاح الدين المفاجىء الى مصر • ولولا استخدام صـلاح الدين لحمل سريع حمله الى مصر ، لتغير تاريخ الحروب الصليبية • والواقع أن العالم الاسلامى ظهر به رجال قلائل مثل صلاح الدين كانوا قادرين على تحقيق التعاون بين الحكام المنشقين على أنفسهم ضد المسيحيين •

كانت هزيمة صلاح الدين فى تلك الموقعة المناسبة البهيجة الوحيدة عند الصليبيين في عهد بلدوين الرابع الحزين • واذا كانت حالة بلدوين قد تدهورت بتزايد المرض عليه ، فان الموقف السياسى للمملكة تدهور أيضا • فلكى يكون هناك وريث للعرش من بعده ، فانه زوج سـيبيل Sibyl ، شقيقته الكبرى الى جى من لوزينيان Guy of Lusignan الذى كان وافـدا جديـدا من فـرنسا ، وأصبـح كونتـالمدينة يـافا ، ومدينة عسقـلان باعتبـاره أحـد الأتبـاع الاقطـاعيين فى المملكـة • وعندما فقد بلدوين بصره ، عين جى وصـيا على العرش • غير أنه عزله بعد عام بسبب عدم صلاحيته وتكبره ، وعين ريموند أمير طرابلس بدلا منه ، ولكى يمنع وراثة سيبيل للعرش ، وكذلك جى من خلالها ، فانه قام بتتويج ابن سـيبيل من زوجهـا الأول (وليم من مونتفرات) William of Montferat باسم بلدوين الخامس • بيد أن الصبى مات فجأة ، بعد موت بلدوين الرابع وعندئذ نفذت سيبيل وجى مؤامرة مع ريجنالد من شاتيون Reginald of Chatillon ورؤساء المنظمات العسكرية ، والبطريرك هرقل • وقاموا جميعا باقرار سيادة البارونات الآخرين على بيت المقدس وكذلك ريموند من طرابلس ، لكى يمكن تتويج سـيبيل وجى ملكا وملكة • بيد أن ريموند رفض التبعية الاقطاعية ، وذهب الى مدينة طبرية •

ولم يكن صلاح الدين يأمل مثل هذه الفرصة المواتية لمهاجمة مملكة بيت المقدس فى هذا الوقت من الشقاق المرير بين القـادة المسيحيين ، اذ انه كان يتطلع الى مثل هذا الأمر • وكان على أهبة الاستعداد ، وكان صلاح الدين قد واصل حركة احياء قوة الدول الاسـلامية التى بدأها عماد الدين زنكى فيما بين ١١٢٧ ـ ١٢٢٨ م ، عندما أقام حكما مبنيا على السيطرة على حلب ، وحوران ، والموصل • وفيما بعد أجبر عماد الدين زنكى امارة الرها على قبول سيادته سنة ١١٤٤ م ، بيد أن الاغتيال أنهى

حياته • وأكمل ابنه نور الدين ما بدأه والده • فاستولى على دمشق ، وأجبر الأمراء المسلمين شبه المستقلين في شمال سوريا على الاعتراف بسيادته ، واجتاح أجزاء من امارة أنطاكية التى تقع شرق نهر العاصى • وعندما طلب شاور ، الوزير المصرى الذى كان يناضل من أجل السيادة ، المساعدة من نور الدين ، أرسل اليه جيشا بقيادة أسـد الدين شيركوه الكردى ، ونجح شيركوه وعين شاور وزيرا ، بيد أنه قتله بعد وقت قصير وتولى الوزارة صلاح الدين فى مارس ١١٦٩ م •

كان صلاح الدين أشهر قادة الأمة الاسلامية فى القرن الثانى عشر ونشأ فى مدينة بعلبك حيث عين عماد الدين زنكى والده حاكما لهـا • وخدم صلاح الدين فى بيت نور الدين ، وفيما بعد ذهب مع عمه شيركوه الى مصر • وما أن صار صلاح الدين وزيرا فى مصر حتى عمـل على بناء قوة هذا البلد العسكرية ، وامتدت سلطته سريعا على شبه الجزيرة العربية واليمن • وفى سـنة ١١١٧ م قضى على الحكم الفاطمى الذى افتقر الى المقدرة فى مصر ، وأمر بالدعاء فى المساجد للخليفة العباسى فى بغداد ، وبذلك أعاد الوحدة المذهبية فى مصر وآسيا على المذهب السنى • وفى سنة ١١٧٤ م نعم بقدر كبير من الحظ السعيد عنـدما مات نور الدين تاركا خلفه ابنا وحيدا فى الحادية عشرة من عمره • فسارع صلاح الدين شمالا ، وتزوج أرملة نور الدين ، وسيطر على سوريا • وفى سنة ١١٨٥ م أجبر الخليفة العباسى فى بغداد على الاعتراف به سلطانا على العالم السنى • وفى ذلك الحين أصبح قادرا على القضـاء على مملكة بيت المقدس وكذلك الامارات الصليبية الأخرى •

وقبل أن نتابع حسن طالع صلاح الدين وسـوء طالع الامارات الصليبية فى ذروتيهما عند موقعة حطين ، فانه من المفيد أن ندرس مواطن القوة الذاتية ومواطن الضعف عند الخصمين • ان المشكلة الأساسية التى واجهت الامارات الصليبية فى جهودها للدفاع عن أنفسها ضـد هجوم المسلمين كانت النقص فى القوى البشرية ، فقليل من الأسر بخلاف طبقة النبلاء تركت أوربا للاستيطان فى الشرق ، ومن بين هذه الأسر عدد قليل من الرجال كان قد جاء الى الشرق • وظـل هؤلاء المسيحيون الوافدون يمثلون أقلية صغيرة بين السكان الأصليين الذين تألفوا فى معظمهم من المسلمين والعرب • وكان من المؤكد ألا يتوقع قيامهم بتقديم مساعدة ضد أى هجوم من قبل المسلمين •

أما فيمـا يتعلق باليونانيين والسـوريين المسيحيين الذين عاش أجدادهم فى تلك البلاد قبل ظهور الاسلام فقد عاشوا فى اطمئنان تحت الحكم الاسلامى اذ دفعوا ضرائب بسيطة ، ومارسـوا معتقداتهم بدون

تدخل • ونظرا للعلاقات الودية بينهم وبين حكامهم المسلمين ، فانهم لم يرحبوا بقدوم الغربيين بأى حماس ، واعتبروهم أدنى منهم من الناحية الثقافية بالاضافة الى أنهم يمثلون طائفة مذهبية منشقة • فقد ساعدوا الصليبيين على مضض • أما فيما يتعلق بطرد الصليبيين فانهم لم يحركوا ساكنا لمنع المسلمين •

وفى هذه الحال كان على الامارات الصليبية والقادمين لها من الغرب الاعتماد على أنفسهم بصفة أساسية لمواجهة التهديد الاسلامى • وقدمت تنظيمات الرهبان العسكرية عنصرا كبيرا للقوة • والمساعدة الأخرى جاءت من التدفق المستمر للمحاربين القادمين من أوربا • ومن حين الى آخر قدم الحجاج المساعدة • وفى بعض المناسبات كان من الممكن القضاء على تلك الامارات لولا تعاون المدن الايطالية •

على أن أكثر المصادر التى أمكن الاعتماد عليها لتقديم المحاربين كانت الطبقة الارستقراطية الاقطاعية التى تسيطر على الأرض • وفى مملكة بيت المقدس كان أكثر هؤلاء أهمية السادة الاقطاعيون للبارونيات الأربع الكبرى التى انقسمت اليها المملكة • وكان يتبع كل بارون مائة فارس • أما الفرسان المستقلون المسئولون عن الحماية المباشرة للملك فقدموا خدمات شخصية • وقدمت الجماعات المسيحية الكنسية والمدنية نصيبا من المحاربين كان بعضهم من الفرسان والغالبية من المشاة • ومن الناحية النظرية كان لدى ملك بيت المقدس ألف من الخيالة ، وحوالى عشرة آلاف من المشاة • بل ان هذا العدد النظرى كان قابلا للانخفاض ابان هجمات نور الدين وصلاح الدين على الأطراف الشرقية للمملكة أو عندما تعرضت تلك المناطق للاغارات التخريبية •

واضطر الصليبيون الى استخدام الجند المرتزقة لتعويض النقص فى القوى البشرية • فعلى سبيل المثال قبل معركة حطين مباشرة ، وفى سنة ١١٨٣ م ، فرض ملك بيت المقدس ضريبة لجمع المال لاستئجار القوات المحاربة مقابل راتب وفى الأوقات العادية استفاد ملك بيت المقدس من الهبات المستمرة التى اعتادت الجماعات المؤمنة فى الغرب ارسالها ، ومن الذين لم يكن فى استطاعتهم المجىء شخصيا ، لذلك رغبوا فى أن يكون لهم نصيب فى النعم الالهية الخاصة التى وعدتهم بها الكنيسة عن طريق هذه الوسيلة غير المباشرة • وفى الثمانينيات من القرن الثانى عشر قدم هنرى الثانى مبلغا كبيرا من المال تكفيرا عن مشاركته فى مقتل توماس بيكيت Thomas Becket •

وفى وقت الضرورة الملحة لجأ الأمراء الصليبيون الى محاولة أخيرة وهى اعلان التعبئة العامة ، والتى عرفت باسم arriere-ban

وهذه الخدمة العسكرية المبنية على مبدأ اجبار كل رجل حر على المساعدة في الدفاع عن المجتمع • ونظرا لأن الرجال الذين تم تجنيدهم على هذا النحو افتقروا في العادة الى الخبرة والمعدات الحربية ، لذلك فان نظام التعبئة العامة كان وسيلة طبقت في المواقف الحرجة فقط • على أن الرجال الذين تم تجنيدهم بهذه الوسيلة ربما كان في استطاعتهم استغلال مواهبهم المحدودة ، على أحسن الأحوال ، في الدفاع عن المدن والقلاع ، بيد أن وجودهم لايمكن على الاطلاق أن يلغي الحاجة الى الحاميات العسكرية المحترفة والكبيرة • وقد فشلت الامارات الصليبية في الاحتفاظ بالجيوش العاملة لمجابهة العدو بقوة ، وفي نفس الوقت تزويد الحاميات بالقدر الكافي للدفاع عن مدنهم ، وكان معنى هذا الفشل هلاكهم •

وعلى النقيض من ذلك فقد كان في استطاعة صلاح الدين حشد أي عدد من القوات يحتاج اليها • اذ كان في استطاعة صلاح الدين حشد القوى البشرية من مصر وسوريا ، ومن الموصل بعد سنة ١١٨٥ م ـ التي أمدته بحوالى ستة آلاف فارس في جيشه ـ حتى انه لم يشعر بأي نقص • فربما فقد صلاح الدين جيشا ، كما حدث له في موقعة مونت جيزارد سنة ١١٧٧ م ، ومع ذلك كان قادرا على معاودة تهديد المسيحيين في العام التالى • واذا كان صلاح الدين افتقر الى المواهب الادارية وكان في نفس الوقت كريما بافراط فيما يتعلق بتنظيم الموارد المالية ، فانه أيضا كانت لديه مشكلة مالية ، بالرغم من أنها لم تكن على مستوى خطورة مشكلة أعدائه الصليبيين • وظلت مشكلة صلاح الدين الرئيسية هي كسب الأمراء الأقوياء والاحتفاظ بولائهم له ، وكان كل أمير ملزما بتقديم المعونة المالية للحرب ضد المسيحيين وتقديم عدد محدد من الفرسان • ونظرا لتمتع صلاح الدين بالاحترام الشديد ، لايمانه العميق دون تكلف ، ولحسن تقديراته ، فانه تمكن من الاعتماد على تعاون الأمراء معه ، على الأقل طالما كانت بشائر النجاح تبدو في الأفق •

وعلى الرغم من أن صلاح الدين كانت لديه الوسيلة لزيادة الموارد البشرية أكثر من الصليبيين ، فان حجم جيشه في المعارك الفعلية كان مقاربا لجيش أعدائه بصفة عامة • والذى حدد عدد رجاله الذين اصطحبوه في معاركه لم يكن في العادة اعتبارات الكفاءة القتالية بقدر اعتبارات طبيعة الأرض ومناخ سوريا • ان فقر التربة وكذلك نقص موارد المياه جعلا من استخدام الجيوش الكبرى أمرا غير عملي • وينطبق هذا بصفة خاصة على المشاة ، الذين شكلوا عبئا حيث كانوا يشقون طريقهم ببطء ومشقة عبر مسافات طويلة يتحتم عليهم اجتيازها ، ولهذا السبب كانت جيوش العرب تتكون على وجه الحصر أو القصر من الفرسان تقريبا ،

فيما عدا مصر حيث حارب الرماة من المشاة • وفى سوريا وفلسطين حل رماة السهام من الفرسان محل رماة النبال من المشاة •

ومن ناحية أخرى كانت الجيوش الصليبية ، تتكون من الكثير من المشاة لأسباب عديدة • منها أنهم افتقروا الى الخيول ، فى الوقت الذى كان العرب يحصلون عليها دون عناء •

ومن ناحية ثانية ، قلما ظهر العدو فى حالة استعداد للحرب ، فقد كان على الصليبيين حشد كل ما يستطيعون حشده من الرجال ، وبخاصة المشاة ، الذين قاموا بواجب حماية القلاع والمدن • ومع ذلك فان السبب الأساسى فى استخدام المشاة ان ثبت ذلك هو عدم امكانية الاستغناء عنهم كحاجز دفاعى بين الفرسان الصليبيين المثقلين بالدروع والفرسان العرب الذين تميزوا بسرعتهم وخفة أسلحتهم • ونظرا للوابل المنهمر من السهام الحربية التى سددها العرب ، بالاضافة الى مقدرتهم على شن الغارات المتكررة ، فان فرسان الصليبيين كثيرا ما كان يتم القضاء عليهم قبل أن يتم القتال الالتحامى •

وحينما نتفحص عن كثب نوعيات المقاتلين المواجهين لبعضهم البعض فى سوريا ، نجد أن الفارس الصليبى كان أشدهم جميعا عدة وعتادا ، وهذا التفوق انما هو نمط مماثل لما كان عليه المحارب فى غرب أوربا ، حيث تمخضت الأحوال عن وجود مثل هذا النوع من المحارب • وكان تفوق هذا الفارس أمرا معترفا به فى الشرق الأدنى بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة ، والنقص فى الأعلاف ، والمياه كثيرا ، مما جعل القتال صعبا الى حد كبير • وكان هذا الفارس الصليبى يحمل رمحا وسيفا ، وخنجرا فى أغلب الأحوال أيضا • وارتدى الفارس ملابس لحمايته تتكون من قميص به دروع ذات زرد وله أكمام ، ويصل حتى ركبتيه • وقطع أخرى من المعدن لحماية ساعديه ، ومعصميه ويديه ، ورجليه ، بل وحتى قدميه • ويغطى الجزء الأمامى من رأسه خوذة اسطوانية أو مخروطية ، تحمى رقبته ، وتحمى الجزء الأكبر من وجهه قلنسوه مدرعة • وتحمى مطيته المدرعة تدريعا ثقيلا صفائح معدنية واقية ، بالرغم من أنها ليست على مستوى راكب تلك المطية • ولو كانت الصفائح المعدنية الواقية الخاصة بالحصان على مستوى الفارس بالنسبة للدروع المعدنية لاتخذ تاريخ الحروب الصليبية مجرى آخر • فعندما توقف ضجيج معركة حطين

وانقشعت سحب الغبار ، وكان من النادر وجود فارس من الجيش المسيحى على قيد الحياة ، فى حين كان هناك مئات الفرسان الذين لم يصابوا بأى أذى •

ولكي يمد الصليبيون أنفسهم بالفرسان حملة الأسلحة الخفيفة لتدعيم موقف الفرسان الأقوياء من حملة الأسلحة والمعدات الثقيلة ، وينفذوا المهمات المحددة المناسبة للفرسان الذين لديهم المقدرة على الحركة السريعة ، لجأت الامارات الصليبية الى سكان البلاد الأصليين ، واعتمدت على الحلفاء • وفى العادة عرف هؤلاء الفرسان باسم الفرسان الأتراك حملة الأسلحة الخفيفة Turcopoles اذ انهم حاربوا على غرار ما كانوا يفعلون فى بلادهم • واستعمل الأتراك النبال والسهام ، وبذلك شكلوا قوة معادلة للفرسان الرامين بالسهام المسلمين ، واستخدم الصليبيون الأتراك فى عمليات الاستطلاع أيضا • وساعدت حركتهم فى تقييد حركة الفرسان العرب فى الاغارة على المناطق الريفية • وعندما كانوا يشاركون فى القتال ضد جيش ضخم للعدو فانهم كانوا ينضمون الى الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة •

ان المشاة الذين قاتلوا مع الجيوش الصليبية أعدوا أنفسهم كشركاء عاملين مع الفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة فى كل العمليات الحربية الكبرى • واختلفت معداتهم ومهاراتهم وفقا لخطتهم القتالية • فالجنود المرتزقة ، وضعوا على رؤوسهم قلنسوة من حديد ، وأحاطوا أجسادهم بنوع من الزى الحربى ، وهو فى العادة معطف حربى gamberson أو عباءة من الجلد السميك أو الكتان المبطن • ويحمل الفرد منهم ترسا ، وقوسا ، أو قوسا ونشابا • وكان القوس والنشاب أثقل من القوس العادى ، وأكثر صعوبة فى الحمل ، بيد أن قذائفه لها قوة ماحقة لدرجة أنها تستطيع تكسير الدروع والأوصال على مدى قريب • ويقوم المشاة بالتصدى للعدو معتمدين على كثرتهم العددية بالاضافة الى السهام الشديدة التى يطلقونها الى أن تحين اللحظة التى ينقض فيها الفرسان ويشنون هجوما شديدا • « وتحرك العدو وفقا لمتطلبات المعركة : تقدم رجاله بيننا وبين فرساننا ، وظلوا محتفظين برباطة الجأش والثبات كالبنيان المرصوص • وكان كل فرد من رجالهم مرتديا عباءة من اللباد ، ومن تحتها قميص من الدروع المحكمة التى لم تحدث بها سهامنا أى أثر • وفى الوقت نفسه صوبوا تجاهنا الأقواس والنشاب ، التى أصابت الخيل والخيالة ، وطرحتهم أرضا بين المسلمين • ورأيت بينهم رجالا حمل الفرد منهم ما بين رمح الى عشرة رماح مثبتة على ظهورهم ، وبرغم معاناتهم من الاجهاد فى خطاهم العادية ، فانهم لم يتخلوا عن موضعهم بين قواتهم • وانقسم

المشاة الى قسمين : قسم تقدم ليغطى الفرسان ، فى حين تحرك القسم الآخر على امتداد الشاطىء دون الاشتراك فى القتال ، وانما استهدف الراحة • وعندما تعب القسم الأول استبدل الأماكن مع القسم الثانى ، وأخذ دوره • وسارت الفرسان بين قسمى المشاة ، وظهرت فى الوقت المناسب الذى رغبت فيه فى شن الهجوم » (٢) •

وتشير هذه القصة من كتاب مؤرخ معاصر الى نوعية التكتيك الحربى والاجراءات الوقائية التى مارسها فى العادة المسيحيون ضد الاعداء العرب • على أن كثيرا من معلوماتهم عن كيفية التعامل مع العدو قد اكتسبوها بالممارسة • بيد أن بعض هذه المعرفة اكتسبوها من المستشارين العسكريين فى القسطنطينية • واذا كان بعض الصليبيين مالوا الى الاستهزاء من تحذير هؤلاء المستشارين من الخيالة الأتراك الذين اشتهروا بسرعة الحركة ، فان تعرضهم للابادة فى موقعة دوريليوم Dorylaum فى آسيا الصغرى ، وهى المعركة الأولى للحملة الصليبية الأولى ، كان من الممكن أن يكون درسا واقعيا • وفيما بعد علمتهم تجاربهم فى سوريا دروسا أخرى كان عليهم أن يعوها من أجل بقائهم ، مثل عدم الابتعاد كثيرا عن مصادر الماء ، وعدم مواصلة مطاردة جيش منسحب ، وعدم الانتشار بحثا عن الغنائم ، والا يعرضوا أنفسهم لخطر الوقوع فى حصار على يد العرب الذين اشتهروا بالمراوغة والدهاء •

وكان الصليبيون مجبرين على أن يتعلموا درسا قاسيا بصورة خاصة وهو أهمية المحافظة على الوحدة المتماسكة والمنظمة ضد عدو كان هدفه الأساسى القضاء على تلك الوحدة • وفى فرنسا كان على الفارس أن يعتمد على نفسه الى حد كبير فى مهمته العسكرية • فبعد هجوم مفاجىء أولى ضد العدو ، ربما يقوم هذا الفارس بالهجوم على أحد أفراد العدو ، أو يهاجم جماعة من العدو متعاونا مع العديد من زملائه • بل ربما خرج من المعركة عندما يشعر أنه قد بذل كل ما هو مطلوب منه فى ذلك اليوم • بيد أن الأمر فى سوريا ليس كذلك • اذ لابد أن يظل مرافقا لجيشه ، وأن ينسق تحركاته مع تحركات المشاة ، الذين كان وجودهم حيويا بالنسبة لحياة الجيش • ويجب عليه الا يسمح بوجود ثغرات بين صفوف جيشه ، أو أن يسمح للعدو السريع الحركة بأن يباعد بينه وبين المشاة • وباختصار ، يجب عليه أن يتعلم النظام ، وهى فضيلة كانت غريبة كلية بالنسبة لشخصية الفارس •

وفى محاولة لتحقيق قدر من التماسك فى الجيش الصليبى ضد العدو الذى سعى الى القضاء على هذا التلاحم ، أصبح من المعتاد تقسيم القوة الضاربة الى وحدات صغيرة • وكانت تلك الوحدات الصغيرة تتلقى

تعليماتها المباشرة من قائد واحد اتبع بدوره استراتيجية معدة من قبل حظيت بموافقة القادة • وكانت تلك الوحدات لاتهاجم في وقت واحد ، وانما فى موجات متتالية ، وتهاجم مواضع مختلفة في خطوط العدو • ان الهجوم المفاجىء الذى تقوم به جماعة من الفرسان الأشداء ، لم يكن أمرا جديدا بيد أنه فى فرنسا كانت الحاجة الى بعض التعاون بعد هذا الهجوم أمرا نادرا ، طالما أن العدو يحارب فى العادة بنفس هذا الأسلوب المنظم • أما فى سوريا فانه يكون أمرا انتحاريا ما لم يتحقق شيء من الاتحاد بين القوات المقاتلة وعلقت الداوية Templers أهمية ، على مسألة استمرار التعاون مع الجيش ابان المعركة الى حد أنهم جسدوا هذا الشرط الأساسي في نظمهم الأساسية وعاقبوا بقسوة أى فارس ترك موقعه دون اذن •

كانت مسألة التعاون بين الفرسان والمشاة هي أشد الأمور خطورة بالنسبة للجيوش الصليبية ، وكان موضع المشاة ، فى العادة بين الفرسان والعدو ، حيث شكلوا حاجزا وقائيا ضد سهام العدو التي قد تصيب خيول الفرسان بطريقة أو بأخرى • وساعد تكتلهم أيضا على ابطاء الهجوم المباشر للأتراك الذين اتصفوا بسرعة الحركة والذين حاولوا مهاجمة جناحي الجيش الزاحف • وقدم الفرسان المساعدة بدورهم للمشاة اذا ما حاول فرسان العدو الضغط بشدة عليهم • وفى العمليات الهجومية حينما تحين الفرصة للفرسان للقيام بالهجوم ، يفتح المشاة طريقا ، ويسمحون للفرسان بالهجوم من خلاله • وكان فى استطاعة ريتشارد القضاء على كل جيش صلاح الدين لو لم ترفض الاسبتارية Hospitallers أوامره ، وقاموا بمهاجمة العدو قبل أن يعطيهم الملك ريتشارد الاشارة بالهجوم • وبالرغم من هذا الخطأ ، فان تحرك الاستبارية الذى اتسم بالعجلة ، أجبر ريتشارد على أن يأمر قواته بالهجوم وهو مكره وفتح المشاة الصفوف والحق هجوم فرسان الملك احدى الهزائم الشنيعة التى تعرض لها صلاح الدين فى حياته •

وهنا وصف لمؤرخ مسيحى لهذه المعركة ، « كانت الأرض بطولها وعرضها تعج بجماعات من الجنود الأتراك المدربين تدريبا جيدا ، وأعداد وافرة من الاعلام المتعددة الألوان ، وقد اصطفوا فى كتائب وسرايا من الخيالة ، وأما تعداد المشاة فقط الذين كانوا مزودين بالدروع ، فيبدو أنه زاد على العشرين ألفا وانقضوا على قواتنا دون ابطاء ، وبسرعة تفوق سرعة النسور أو العقاب • وتحول الهواء الى اللون الأسود من الغبار المتصاعد من سنابك خيولهم ، وأحدث العازفون على الآلات الموسيقية ضجيجا مفزعا بالنفير ، والأبواق ، والطبول ، والصنجات ، وكل أنواع الآلات النحاسية فى الوقت الذى انقضت القوات من الخلف وهى تصرخ بصيحات

الحرب • لأن (المسلمين) يعتقدون أنه كلما علا الضجيج ، اشتدت الروح المعنوية عند المقاتل المسلم ، وكذلك هاجمنا الأتراك – عليهم اللعنة – من الأمام ، ومن الخلف ، وهاجموا جناحي جيشنا ، واندفعوا بقوة ، وصاروا على مقربة شديدة الي الحد الذى لم يمكن مشاهدة الأرض الجرداء لمسافة ميلين ، اذ أنها كانت كلها مغطاة بجيش العدو الكثيف » •

وعندما أصدر ريتشارد الأمر بالهجوم فى النهاية ، وصف شاهد عيان من المسلمين ما حدث ، وقال : « اننا شاهدنا فرسان العدو ، الذين تقدموا معا فى ثلاث تكتلات ضخمة ، يلوحون برماحهم ، ويطلقون صيحات الحرب ، ويندفعون نحونا بسرعة ، وفجأة فتح لهم المشاة ثغرات بين صفوفهم ليسمحو لهم بالمرور خلالها » •

ان مقدرة الجيوش العربية على سرعة الحركة فرضت نفسها على التكتيكات الحربية التى اعتادوا عليها ضد الجيش الصليبى ، الذى كان أكثر استخداما للدروع • وطالما أن العرب لديهم المقدرة على الحركة والمناورة بدرجة أسرع من أعدائهم المسيحيين فانهم استطاعوا فى العادة تجنب المعارك التي لا يرغبون خوضها • وفى استطاعتهم اختيار الزمان والمكان لشن هجومهم • واذا بدا مصير الحرب غير موات فانهم ربما انقلبوا على أعقابهم بعد التحامهم فى القتال مع العدو ، وولوا الأدبار وربما أعادوا حشد قواهم فجأة ، وعاودوا القتال • هذا هو ما وصفهم به تماما المؤرخ المسيحى عندما تصدوا للملك ريتشارد والصليبيين عند تقدمهم صوب أرسوف • « ان المسلمين لم يرهقوا أنفسهم بالدروع الثقيلة كما فعل فرساننا ، فانهم كانوا قادرين دائما على أن يبزوهم فى سرعة الحركة ، لذلك كانوا مصدر قلق مستمر • وعندما يتعرضون للهجوم فانهم اعتادوا الانسحاب بأقصى سرعة ، وأما عن خيولهم فهى أكثر الخيول سرعة فى العالم ، ويمكن للمرء أن يشبههم بطائر الخطاف فى خفة الحركة و لسرعة • وعندما يرون أنك توقفت عن مطاردتهم ، يتحول هروبهم الى هجوم عليك ، انهم مثل الذباب المزعج الذى فى مقدروك طرده لفترة قصيرة من الوقت ، ثم يعود ثانية فى اللحظة التى تتوقف فيها عن صده بشدة ، وطالما أنك مستمر فى الصد ، فانه يظل بعيدا • وكذلك المحارب التركى اذا رغبت عنه بعد أن تجبره على الابتعاد فانه يطاردك حتى عقر دارك دون توان ، بيد أنه يلوذ بالفرار اذا استدرت اليه » •

ونظرا لادراك العرب لتفوق الفارس الصليبى بسبب دروعه وأسلحته الأثقل فانهم حاولوا انهاكه عند تقدمه عن طريق الغارات المتكررة على جناحى جيشه • واكتشفوا أيضا أن الهجوم العنيف والمستمر لفترة طويلة الذى يمارسونه ضد مؤخرة جيش زاحف يتمخض عن وقوع كل الجيش فى حالة الارتباك ، حتى لو فشل هذا الهجوم فى تدمير هذا الجزء الأساسى

من الجيش • وعندما يتجهون صوب العدو ، فانهم يطلقون وابلا من السهام من أقواسهم المخيفة ، ثم يقتربون عندما يشعرون أنهم أفقدوا العدو اتزانه ، ويهاجمون بالرمح ، والسيف المستقيم ذى الحدين ، والسيف وحيد الحد المعقوف قليلا • واذا ما نجح الجيش الصليبى فى صد الهجوم ، فانهم يولون الأدبار أو يتظاهرون بذلك ، على أن يعاودوا الهجوم بعد ساعات قلائل أو بعد أيام قلائل ، الى أن يدركوا أن العدو لا يتوقع هجوما بدرجة لا ريب فيها وأحيانا تنجح الجيوش العربية فى استدراج المسيحيين الى الدخول فى معركة مع قوة معدة كشرك للعدو أو بالتظاهر بالتقهقر • وربما ترتب على ذلك تبدد شمل الصليبيين لتلهفهم على احراز نصر مزعوم ، هذا فى الوقت الذى يجدون فيه العرب قد شنوا عليهم هجوما معاكسا محدثا كارثة مروعة • وقبل معركة حطين بمائة عام كان أتو الثانى Otto II ملك المانيا من القلة المحظوظة ، اذ استطاع الافلات عندما نصب له العرب كمينا فى جنوب ايطاليا •

ونتيجة لمقدرة القوات الاسلامية على الحركة السريعة ، ولتفوقهم البشرى والحقيقة الواضحة أن المسيحيين لا يشغلون سوى موطىء قدم على حدود العالم الاسلامى ، سلم الأمراء الصليبيون منذ البداية تقريبا بضرورة اقرار وانتهاج استراتيجية دفاعية ضد العدو • ان الصليبيين حاولوا تجنب الدخول فى معركة بكل حساباتهم • اذ كان فرسانهم المحترفون فى حد الندرة ومن الصعب وجود بديل لهم • كما أن فرحهم بالنصر كان قصير المدى ، طالما أن العدو بموارده الهائلة كان قادرا على معاودة القتال بعد وقت وجيز • ولم يدخل الصليبيون المعركة الا وهم واثقون من النصر أو عندما يصعب عليهم تجنب القتال شريطة عدم حدوث نتائج خطيرة ، اذ كان القضاء على جيشهم بمثابة كارثة لعدم توافر الموارد التى يحتاجون اليها • لذلك ما أن تم القضاء على الجيش الصليبى حتى تحددت نهاية لمملكة بيت المقدس •

ان نجاح انتهاج هذا النوع من الاستراتيجية الدفاعية عمل يعود الى ذكاء الأمراء الصليبيين ، ومع ذلك لا مفر من الحقيقة القائلة بأن لو كان العالم الاسلامى موحدا تحت حكم شخصية قادرة على شاكلة الخليفة عمر (رضى الله عنه) (٢) ، لما كانت الاستراتيجية الدفاعية كافية لبقاء الصليبيين • ولم تكن غالبية الجند العربية محترفة للقتال ، اذ كانوا يشتركون فى القتال لعدة أشهر ، وبعدها يشعرون بالملل تدريجيا ، ثم يصرون على العودة الى بلادهم وأسرهم • وبنفس القدر كانوا تواقين للعودة من حيث أتوا اذ كانوا يحاربون من أجل الغنيمة فى المقام الأول • وبعد خمسة أو ستة أشهر من القتال كان فى استطاعتهم جمع كل ما فى مقدرتهم حمله معهم ، ومن ثم فلا مبرر للاستمرار فى القتال • على أية حال ، فان

الأمطار والطقس البارد فى نهاية كل عام كانت من أسباب وضع نهاية للقتال فى العادة • وبحلول فصل الربيع التالى واجه صلاح الدين المشاكل الدائمة ، وذلك باقناع الأمراء بالتطوع ومعهم قواتهم الجديدة التابعة لهم ، ونجح فى جعلهم كالجسد الواحد بعد أن حولهم الى قوة قتالية متماسكة وقادرة على القضاء على الصليبيين قبل أن ينهى سقوط الأمطار القتال مرة ثانية •

لابد لنا من العودة للحوادث التى أفضت الى الكارثة فى حطين • ان الرجل الذى يتحمل المسئولية الرئيسية لتحريك هذه الحوادث التاريخية هو ريجينالد من شاتيلون Regnald of Chatillon (أرناط) (*) أمير حصن الكرك ، الذى اتصف بالشجاعة وان كان يميل الى التهور • لقد كان يوما كئيبا على مملكة بيت المقدس عندما قرر ريجنالد أن يجرب حظه فى سوريا ، بعد أن حضر مع لويس السابع ابان الحملة الصليبية الثانية • ويبدو أن ريجينالد كان فارســا تقليديا مولعا بالمغامرات الفروسية ، وكان متهورا ، وشجاعا ، ووسيما ، بيد انه كان يفتقر الى الحكمة والانضباط الذاتى • واستحوذت وسامته وسلوكياته المفعمة بالحيوية على اعجاب كونستانس Constance حاكمة أنطاكية الأرملة التى أقنعت بلدوين الثالث فى لحظة ضعف أن يسمح لها بالزواج من ريجنالد • وفى سنة ١١٦٠ م قدم العرب خدمة جليلة للمسيحيين عندما أسروا ريجنالد لمدة ستة عشر عاما فى حلب ولم يحرك أحد ساكنا من أجل فديته • وعند اطلاق سراحــه تزوج ستيفانى Stephanie وريثة امارة شرق الأردن المهمة • وتوجد فى المنطقة قلعة الكرك القوية ، والمعروفة باسم صخرة الصحراء ، والتى تقع فى منطقة عالية جنوب البحر الميت مما جعلها تسيطر على طريق القوافل بين دمشق الى الشمال ومصر ومكة الى الجنوب •

وفى صيف سـنة ١١٨١ م ، وابان فترة هدنة ، اعترض ريجنالد (أرناط) سبيل قافلة كانت فى طريقها الى مكة • وفى السنة التالية بنى عدة سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف على شاطىء البحر الميت ، ونقلها مفككة الى خليج العقبة حيث قام بتجميع أجزائها وشرع فى مهاجمة السفن التجارية الاسلامية على البحر الأحمر جنوبا حتى الموانى التى تخدم مدينتى مكة والمدينة • بل يقال انه اعتزم مهاجمة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فاستشاط صلاح الدين غضبا • وفى أوائل سنة ١١٨٧ م عندما انقض ريجينـــالد على قافلة للمرة الثـــانية ، ابان فترة هدنة ورفض اعادة كل ما اســتولى عليه من أمتعة وأسرى ، برغم طلب جى ملك بيت المقدس بالحاح • أعلن صـــلاح الدين الجهـــاد ، وأقســم أن يقتل ريجينالد

(*) أرناط هو الاسم الذى درجت المصادر العربية على اطلاقه عليه — المترجم •

« أرناط » بيديه . وفى الرابع والعشرين من شهر يونية ١١٨٧ م جمع صلاح الدين والأمراء التابعون له حوالى عشرين ألف مقاتل شرق بحيرية طبرية قرب حدود الأراضى المقدسة . وبعد ذلك بيومين ، وفى يوم الجمعة المبارك عند المسلمين ، والموافق السادس والعشرين من يونية ، عبر صلاح الدين نهر الأردن وبدأت الحرب .

وفى الوقت نفسه كان الملك جى ومستشاره يعدون العدة على قدم وساق نلتصدى لهجوم صلاح الدين . على أن استعداد القائد المسلم كان أشد الاستعدادات خطورة على الصليبيين . فعلى الرغم من خوفهم وكراهيتهم لريموند فان الموقف كان فى غاية الخطورة مما دفعهم الى ارسال وفد اليه طلبا لتعاونه غير أن الموقف كان من الصعوبة الى حد استحالة انقاذه ، اذ لم تكن العلاقات ودية بين ريموند وصلاح الدين فحسب نظرا لاحترام كل منهما للآخر ، وانما كان ريموند ما يزال يشعر بالمرارة بسبب الطريقة المتكبرة التى غالج بها جى وزملاؤه مسألة اعتلاء ريموند للعرش . غير أن الموقف كان خطيرا للغاية مما جعل ريموند يبلع كبرياءه ، ويقدم وعده بالمساعدة . اذ كان يدرك أنه اذا ما ضاعت مملكة بيت المقدس من أيدى المسيحيين ، فان الدور سيأتى على امارته فى طرابلس .

ولم يحدث للمسيحيين أن حشدوا جيشا كبيرا مثل ما جمعوا هذه المرة وبناء على طلب المساعدة ، أرسل بوهيموند .. Bohemond أمير أنطاكية ابنه ريموند ومعه خمسين فارسا . وأخليت المدينة والقلاع من حامياتها . وأعلن الملك التعبئة العامة arriere-ban من أجل حشد كل القوى البشرية . وتم انفاق الذهب الذى أرسله هنرى الثانى مؤخرا على الجند المرتزقة وتم احضار بقايا الصليب الحقيقى (*) من بيت المقدس ، كعمل أخير بهدف التقليل من المخاوف والعمل على رفع الروح المعنوية بأقصى قدر ممكن . وربما بلغ تعداد الجيش حوالى ثمانية عشر ألف مقاتل ـ منهم ألف ومائتان من الفرسان ثقيلى العدة وأربعة آلاف فارس خفيفى السلاح ، وباقى العدد من المشاة ـ وتجمعوا جميعا فى صفورية ، وهى مدينة صغيرة فى امارة طبرية على بعد حوالى أربعة أميال شمال غرب الناصرة .

وهناك فى صفورية ، فى الثانى من يوليو ، اجتمع الملك جى ومستشاروه فى مؤتمر خطير . اذ ان الكارثة لا ريب فيها . لقد فرض صلاح الدين المعركة الفاصلة ، ولابد من اتخاذ قرار . وعندما فشلت محاولات صلاح الدين الأخرى فى استدراج الجيش المسيحى للقتال ،

(*) هذا وفقا للأساطير الغربية ـ المترجم .

هاجم مدينة طبرية ، وسيطر على كل من فيها ، وضرب حصارا حول القلعة التى لجأت اليهـا اسكيفا Eschiva زوجـة ريموند أمير طرابلس • واستغاثت بجى مما جعله يعجل بدعوة مستشاريه ، وكان أمامه خياران هما اما أن يتحرك الجيش الصليبى الى طبرية ليفك الحصار عن القلعة ، كخطوة تؤدى الى معركة كبرى مع صلاح الدين أو أن يظل فى صفورية وينتظر الخطوة التالية لصلاح الدين •

على أنه أصبح واضحا ببساطة تامة أن وجود الجيش الصليبى ، وكذلك مملكة بيت المقدس يتوقف على ما يقرره الصليبيون • ويبدو أن المستشارين أدركوا ادراكا كاملا هذه الحقيقة ، ولذلك استمرت المناقشات بانفعال شديد لعدة ساعات • غير أن الناطق بلسان هؤلاء المستشارين الذى حبذ البقاء حيث كانوا فى صفورية لم يكن سوى ريموند زوج اسكيفا اذ كانت لدى ريموند خبرة طويلة بكل ألوان القتـال فى سـوريا ، وبالتكتيكات الحربية لصلاح الدين على وجه التخصيص • وحذر القادة الآخرون من أن هجوم صلاح الدين على طبرية ليس سوى مجرد شرك أعد باحكام على أمل دفع الجيش المسيحى الى مغادرة صفورية • وأن مركزهم فى صفورية قوى • وأن طبيعة المنطقة تحميهم من التعرض للمحاصرة ، كما أن قربهم من قلاعهم والقرى الموالية لهم يكفل لهم الحماية والطعام ويمدهم الينبوع الكبير الذى يقع جنوب صفورية مباشرة بكل ما يحتاجون اليه من الماء •

ولفت ريموند أنظار المجتمعين الى أنه اذا كانت رغبة صلاح الدين خوض معركة ، فان عليه أن يذهب اليهم فى شهر يوليو ، أشـد شهور السنة حرارة وجفافا وأن يجتاز أرضا صخرية جرداء • وباختصار يتعرض لظروف تثنى أى قائد حكيم عن الهجوم • وللسبب نفسه ، فانه سيكون عملا انتحاريا بالنسبة للمسيحيين اذا ما حاولوا المسير حوالى خمسة عشر أو سـتة عشر ميلا الى طبرية تحت تلك الظروف الشـاقة • دون أدنى أمل فى الحصول على الماء طوال تقدمهم وتعرضهم لهجمات فرسان صلاح الدين المستمرة • وحثهم ريموند على الانتظار اذ ان الوقت كان فى صالح المسيحيين ، كما أن تجنب المعركة مع صـلاح الدين لمدة شهور قلائل يساعد على تفرق الجند من حوله ، وكذلك تخفيف حدة الأزمة تدريجيا •

كان هناك بعض الأفراد الذين فندوا مزاعم ريموند بحماس شديد ، وعلى رأسهم جيرارد من رايد فورت رئيس الداوية ، وريجينالد ، ولكن أقرت غالبية المستشارين حجج ريموند ، وعنـدما انتهى الاجتماع فى منتصف الليل تقريبا كان قد أصبح معلوما أن الجيش المسيحى سيبقى فى صفورية • وقبل نهـاية تلك الليـلة ذهب جيرارد وربما ريجينالد

الى خيمة جى فى محـــاولة أخيرة لاقناعه بتغيير رأيه ولم يكن ريجينـــالد بالشـــخص الذى يتجنب مشروعا محفوفا بالمخاطر ، فى حين أن حقد رايد فورت المستمر على ريموند ، ربما دفعه الى اكتشاف مواطن الضعف فى الاستراتيجية التى أوصى بها عدوه الشخصى ٠

وربما كان هناك سبب مبـاشر لشعور رايد فورت بالمرارة تجاه ريموند ٠ اذ يقبل بعض العلماء صحة رواية المؤرخ المسلم أن ريموند سمح منذ شهرين على بدء معركة حطين ، لابن صلاح الدين ، باجتياز طبرية لكى يغير على الأراضى المسيحية ، بناء على طلب من صلاح الدين ٠ وكان هذا انتقاما لاستيلاء ريجينالد على القافلة بالقرب من حصن الكرك ٠ ولقد أعلن ريموند موافقته على هـــذا الطلب المدهش لغرابته لكى يحـافظ على مشاعر صلاح الدين الودية نحوه ، وان كان قد أصر على أن تدخل الجماعة المغيرة المنطقة بعد غروب الشمس ، وأن تغادرها قبل الغروب ٠ على أن ريموند أرسل تحذيرا الى المسيحيين بأن يظلوا فى قراهم حتى لا يتحرش أحد بهم ، والهدف من ذلك هو حمايتهم من التعرض للخسائر الفادحة ٠ ومن الواضح أن المغيرين أخذوا قليلا من الأذى ٠ بيد أنهم واجهوا جماعة من الفرسان الداوية والفرسان الآخرين ابان عودتهم بالقرب من الناصرة وقضوا على الغالبية العظمى منهم ، تاركين حوالى ستين قتيلا من الفرسان الداوية فى أرض المعركة ٠ وكان رايدفورت من بين القلة التى أفلتت من المذبحة ٠ واذا كانت هذه الحادثة قد تمت ، فانها لابد وأن أقنعت ريموند بضرورة مصالحة جى لكى يضفى غطاء على موقفه المثير للشكوك ، وأنها تقدم الدليل للشك فى مدى الاعتماد على ريموند ٠

ان مسألة ولاء ريموند هى التى سيطرت على حديث رايدفورت مع جى اذ قدم رايد فورت الدليل على أن ريموند ليس بالرجل الذى يمكن الثقة فيه ٠ اذ كان قد رفض ذات مرة استضافة جى ، كما أن كل فرد يعلم أنه صديق لصلاح الدين : أليس هو الذى أصر على البقاء فى صفورية ليحمى صديقه صلاح الدين من الهزيمة ؟ وربما حذر رايدفورت جى من أن العذوف عن محاربة صلاح الدين فى ذلك الحين قد يضفى عليهم الاتهام بالجبن ٠ وذكره بأنه اتهم بالجبن منذ سنوات مضت ، سنة ١١٨٣ م ، عندما رفض الدخول مع صلاح الدين فى معركة عندما تقدم صلاح الدين فى ذلك الحين ، وضرب المناطق الريفية بالقرب من توبانيا ٠ ولابد أن رايدفورت قد ذكر جى باعتبـاره سيدا اقطاعيا أعلى ، أن الواجب الأول للملك يحتم عليه الاسراع فى مســاعدة سكيفا Eschiva تابعتـــه الاقطاعية ، التى الحت فى طلب مساعدته ٠ وفوق ذلك لابد أنه قد أقنع جى أنه برغم اشتداد درجة الحرارة والنقص فى مورد المياه ، فمن المحتمل أن يقضى عليهم صلاح الدين اذا هاجمهم فى مكانهم ، لذلك فمن الواجب

تحرك الجيش صوب طبرية • وأنه والداوية سيتوليان حماية مؤخرة الجيش اذ من المحتمل أن يركز العرب أعنف هجماتهم عليها ، ويبدو أنه استطاع أن يضمن للملك أن هذا الجزء من الجيش سوف يؤدى واجبه •

وأيا كانت الحجج التى حاول كل من رايدفورت وريجينالد عرضها ، فقد غير جى رأيه ، واستعد الجيش المسيحى الذى انتابته حالة من الاضطراب للرحيل فى الساعات الأولى من صباح الثالث من يوليو • وكان ريموند فى مقدمة الجيش ، بينما كان جى قائدا لقلب الجيش ، وتولى الداوية ورايدفورت المؤخرة • وتزايد الاحساس بالتطير لدى كثير من الصليبيين منذ تحركهم وبخاصة عندما ازدادت حرارة الجو وزاد عطش الرجال والحيوان ، فى الوقت الذى أمطرهم فيه الرماة بالسهام فى جيش صلاح الدين بوابل من السهام من كل صوب وأصبح الموقف لا يحتمل شيئا فشيئا •

وعند الظهر أبلغ رايدفورت الملك جى أن رجاله لم يعد فى استطاعتهم التحرك الى الأمام ، اذ أصبحوا فى حالة انهاك • اذ أنه بسبب شدة حرارة الجو ، ونقص المياه ، والهجمات الشرسة التى واصلها فرسان العدو دون توقف لم يعد فى امكان رجاله المسير • واذا لم يأمر جى بالتوقف عن المسير ، فسيحدث العدو ثغرة بين رجال رايدفورت ، وباقى الجيش يترتب عليها حتما القضاء التام على الجميع وبرغم أنه كان قرارا خطيرا ، فان جى شعر أنه ليس أمامه خيار فى هذه الحالة • فأصدر جى الأمر بالتوقف ، واقامة معسكر ، وهم فى وسط الصحراء حيث أطلق العدو الصيحات العالية ، بعد أن حشد أعدادا كبيرة من حولهم ، مع أنهم ما زالوا فى منتصف الطريق الى طبرية ، وعلى بعد عدة ساعات من مكان الماء ، وبالنسبة لريموند والعديد من القادة الآخرين كان قرار جى بالتوقف بمثابة كارثة ووفقا لما ذكره أحد المؤرخين ، فان ريموند ، ما أن علم بقرار جى حتى صرخ قائلا : « وا أسفاه ! لقد انتهت الحرب يا الهى ! وأصبحنا فى عداد الموتى » !

وعسكر الجيش الصليبى بصفة مؤقته فى العراء ، فى مكان يدعى ملريسكاليا Marescallia بالقرب من قرية حطين ، عند أسفل سفح هضبة صغيرة داكنة اللون بلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة آلاف قدم عن قرية طبرية • ويطلق السكان الأصليون على الهضبتين الصغيرتين عند قمة التل اسم قرنى حطين ، ويقال ان المسيح (عليه السلام) القى موعظة على الجبل فى هذا المكان المرتفع : وبالنسبة للمسيحيين تكشف لهم أن تلك الليلة كانت من ليالى الجحيم بكل حق وصدق • اذ لم يكن هناك ما يطفىء ظمأهم . فلم يكد الغبار أن يهدأ حتى أشعل العرب أغصان شجيرات أحدثت دخانا خانقا كاد أن يقضى عليهم خنقا • وكتب المؤرخ ان الحصار

الذى ضربه العدو حول الصليبيين كان محكما للحد الذى جعل من المستحيل على هرة اجتيازه • وبالاضافة الى حالة اليأس التى انتابت المسيحيين ، عندما أطلق العدو صيحة الابتهاج بالنصر قائلين : الله أكبر لا إله الا الله ! » ، وأدى ضعف الروح المعنوية للجيش المسيحى الى حالة من الاجهاد البدنى الشديد والذعر الكامل •

وفى صباح اليوم التالى ، فى الرابع من يوليو ، استأنف الجيش الصليبى الذى علت وجوه رجاله وملابسهم الأتربة والغبار سيره الشاق حتى حوالى الظهيرة استمر الرجال فى التقدم ، وفى ذلك الحين كانت قد تلاشت مقدرة المشاة على المقاومة كلية • لقد عانوا الأمرين من متاعب اليوم السابق ، وفى ذلك الحين رفضوا أن يلحقوا بالفرسان وتسلق المشاة سفح التل • ومن المحتمل أنه أحد قرنى حطين ، وتسمروا فى مكانهم برغم توسلات قادتهم ، ونصائح الأساقفة الذين أرسلهم جى ليحضهم على القتال • وهناك التقى بهم العرب • ومن لم يذبح من الجنود كالماشية ، أو يصاب بجروح قاتلة ، ساقه العرب ليباع فى أسواق النخاسة •

وفى الواقع كان الموقف باعثا على اليأس • فبدون حماية المشاة أصبح الفرسان مكشوفين لهجوم رماة السهام العرب بشكل مباشر • وتمكن ريموند وأتباعه من أن يشقوا طريقهم عبر الحصار ، ولاذوا بالفرار • وكانت قلة أخرى قادرة على النجاة بنفس الطريقة • ويقال ان ستة من الفرسان تمكنوا من الفرار • وربما أغرى صلاح الدين الحال الحرج للجيش الصليبى ، ولذلك أمر صلاح الدين بشن هجوم أخير •

ودارت أشرس المعارك ضراوة على قمة أحد القرنين ، ومن المحتمل أنها نفس القمة التى شهدت مذبحة المشاة فى أوائل النهار • ووفقا لشهادة ابن صلاح الدين فان الفرسان المسيحيين شنوا هجوما مروعا ضد المسلمين وصلاح الدين الذى بدا حزينا وشاحب الوجه • وحينئذ وبناء على أمر صلاح الدين شن المسلمون هجوما مضادا على المسيحيين تمخض عن ترك المسيحيين لمكانهم ، والنزول الى سفح التل للمرة الثانية غير أنهم صدوا المسلمين ثانية • على أن هجوما مضادا للمسلمين حقق نجاحا • وما أن رأى صلاح الدين سقوط علم الملك على الأرض حتى قفز من على صهوة جواده وسجد لله شكرا ، اذ تأكد أنه أحرز النصر النهائى •

كانت المذبحة كبيرة جدا ، وتم أسر أعداد كبيرة من المسيحيين ويقال ان صلاح الدين ذبح ريجينالد بيده • وأطلق صلاح الدين سراح جى ، وبعض كبار رجال دولته وأى شخص آخر استطاع أن يفدى نفسه بما طلبه صلاح الدين من الذهب ، باستثناء الداوية والاسبتارية • اذ قام صلاح الدين باعدامهم علنا • ونجا رايدفورت حيث تجرع مرارة الكارثة

التى تحمل مسئوليتها الى حد كبير . أما الصليب الحقيقى فلا يعلم أحد شيئا عن مصيره .

كانت نتيجة معركة حطين مفجعة ، وعاجلة ، ودائمة . فنظرا لأن الحاميات فى كل أنحاء مملكة بيت المقدس قد استنفدت فى حشد قوات الجيش الصليبى ، فان كثيرا من القلاع استسلمت دون مقاومة تقريبا . وذكر مؤرخ عربى أن اثنتين وخمسين قلعة تمت السيطرة عليها فى الحال . وفى العاشر من يوليو سقطت عــكا . وفى الرابع من سبتمبر سقطت عسقلان . وفتحت بيت المقدس أبوابها لصلاح الدين فى الثــانى من أكتوبر ، وصارت مملكة بيت المقدس أثرا بعد عين . على أن صلاح الدين واجه صعوبات فى المدن الساحلية نظرا لتلقيها المساعدات من البحر . وظلت كل من طرابلس وأنطاكية ، وصور فى أيدى المسيحيين ، غير أن الهزيمة الشنيعة التى نجم عنها فقدان الكثير فى وقت قصير ، هزت أوربا الغربية من الأعماق ، ودفعتها للقيام بعمل فورى ـ ففى يناير الذى تلا سقوط مملكة بيت المقدس كان كل من ريتشارد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا يخططان بالفعل للقيام بالحملة الصليبية الثالثة .

ولو أخذ القادة المسيحيون بنصيحة ريموند ولم يغادروا صفورية من أجل فك الحصار عن طبرية ، لما كانت هناك حاجة الى حدوث معركــة حطين ، أو حملة صليبية ثالثة ، وربما ما احتاجت أوربا لارسال جيوش كبرى الى سوريا . وبعد موقعة حطين ، بدأت مكانة صلاح الدين العالية ، ونفوذه فى الازدهار ، ولم يحدث للعالم الاسلامى أن أنجب قائدا فى مثل منزلته الرفيعة استطاع مواصلة الحرب ضــد الصليبيين . وبالنسبة لأوربا الغربية ، فمنذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر فصاعدا ، فان ملوكها كانت لديهم أهداف أكثر أهمية من أن يشغلوا اهتمامهم بالقيــام بحملة صليبية أخرى .

٦ ـ معركة بوفين

كان هنرى الثانى ملك انجلترا ، ولويس السابع ملك فرنسا فى منازعات متكررة • اذ كان لويس متضايقا بسبب الأعداد الكبيرة من الاقطاعات التى كانت فى حوزة هنرى فى فرنسا ، ومنها الاقطاعات المهمة مثل نورماندى Normandy وأنجو Anjou ، واقطاعية تولوز Toulouse فى جنوب فرنسا التى تنازعا عليها • واكتسب هنرى حقوقه عندما تزوج اليانور من اكويتيين Eleanor of Aquitaine التى كانت زوجة للويس من قبل • وكان لويس قد طلقها لعدم قدرتها على انجاب ولد له • ولما تزوجت هنرى أنجب منها خمسة أبناء ! (١) واختلف الملكان أيضا بسبب توماس بيكيت Thomas Becket رئيس أساقفة كانتربرى Canterbury وكانت الاجراءات القاسية التى اتخذها هنرى لتشويه سمعة هذا الأسقف تشويها كاملا دافعا له على الهروب الى فرنسا ، حيث وجد المأوى عند لويس • وأخيرا ظل لويس يشجع أبناء هنرى المشاكسين على تحقيق طموحاتهم الخاصة بالسيطرة على اقطاعات والدهم التابعة له فى فرنسا •

وكانت تلك المنافسة الصفة المميزة لملوك العصور الوسطى الذين تربطهم علاقات الجوار • ولم يكن يحمل أحدهما للآخر أى كراهية أو حقد • ويبدو أن هذين الملكين استفادا من علاقاتهما الزوجية القوية التى ربطتهما باليانور ، التى كانت عالية الهمة ، الأمر الذى جعلهما يشعران بمشاعر الرفقاء • على أية حال رحب هنرى بالملك الذى تربطه به صلة القربى فى دوفر Dover ومنها اصطحبه الى مزار توماس بيكيت الشهير بالقرب من مدينة كانتربرى سنة ١١٧٩ م • وقد حدث أن نال لويس شفاعة القديس لابنه العليل فيليب الذى كان يحتضر وشاركه هنرى فى صلواته • ولو كان هنرى يعلم ما تخفيه الأيام لما شارك لويس فى صلواته ، ولما سمح له بالقدوم الى كانتربرى ليلتمس شفاعة القديس العظيم • ذلك لأن الصبى فيليب استرد صحته ، وخلف والده تحت اسم فيليب أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣ م) بزت أعماله ، وكان ذلك على حساب انجلترا

ومصالح هنرى هناك • وفى بوفين Bouvines احدى المعارك الفاصلة فى العصور الوسطى ، قضى فيليب على هذه المصالح •

وأبدى فيليب الثانى ، والمشهور فى التاريخ باسم فيليب اغسطس قدرا يسيرا من الدلالة التى تبشر بعلو شانه وبأنه سيصبح أعظم ملوك فرنسا فى العصور الوسطى • وكان لا يرى الا بعين واحدة ، وربما كان ذلك سببا فى جعل الناس يتخذونه مادة للمزاح • بيد أنه لا يوجد شىء يقلل من مكانة الرجل نفسه • وقليل من الحكام امتلكوا قدرا كبيرا من المعرفة العملية أو المقدرة والمثابرة لتحقيق أهدافهم •

وكما حدث قدمت مشاكل فيليب مع زوجته انجبورج مثالا واضحا آخر على اصراره ومثابرته ، اذ كان قد تزوج أنجبورج شقيقة ملك الدانمرك سنة ١١٩٣ م ، لكى يحصل على مساعدة الأسطول الدانمركى فى غزو انجلترا • وفى سنة ١٢١٣ م أعاد فيليب أنجبورج الى عصمته ، لكى يقود حملة صليبية بابوية ضد انجلترا عندما أراد البابا انوسنت الثالث Innocent III عزل الملك حنا • وتلك كانت الفكرة المتسلطة تسلطا مطلقا على فيليب وعاش لها طوال حياته • ولم يكن قانعا بحرمان ملك انجلترا من كل الاقطاعات التابعة له فى فرنسا فحسب ، وهو الشىء الذى حققه تقريبا ، وانما كان هدفه الأساسى هو التوحيد الفعلى لتاجى انجلترا وفرنسا بشكل واقعى تحت اسمه أو اسم ابنه •

تعلم فيليب منذ صباه أن ينظر الى انجلترا كعدو • بل ان أى شاب قليل النضج العقلى كان يدرك هذه الفكرة ، اذ كان هنرى ملك انجلترا يحكم أجزاء من فرنسا تزيد على مساحة الأجزاء التى كان يحكمها والده لويس ، على أن الأراضى التى امتلكها هنرى فى فرنسا كانت فى حوزته على أنها اقطاعات تابعة لملك فرنسا ، وكان على هنرى أن يقدم كل مستلزمات الولاء الاقطاعى المادية فى شكل خدمات أو أموال • على أن هذه العلاقة الاقطاعية لم تخف حقيقة أن هنرى مارس نفوذا أو سلطة أكبر فى تلك الأقاليم • وجنى منها موارد مالية أكثر مما حصل عليه لويس • وربما قبل لويس هذا الوضع ، بيد أن ابنه فيليب وجد أنه أمر لا يمكن السكوت عليه •

واشتملت ممتلكات هنرى على سلسلة من الاقطاعات التى امتدت على طول كل الشاطىء الأطلسى من نورماندى فى الشمال الى أكويتين Aquitaine فى الجنوب • ولا يوجد ملك فرنسى لديه الوسيلة للعمل بطريقة أو بأخرى يقبل موقفا يرى فيه ملكا أجنبيا يدير شئون مساحات كتلك من الأراضى الفرنسية ، لذلك بذل فيليب كل جهد لتغيير ذلك الموقف •

واولى فيليب معظم عنايته باقليم نورماندى الذى يقع فى مواجهة بحـــر المانش ، الذى يفصل بين انجلترا وفرنسا ، والذى من المحتمل أنه كان أغنى وأفضل الاقطاعات بالنسبة للاقطـاعات التى كانت تحت يد ملك انجلترا • وأبدى عناية أقل باقليم أكويتين الذى كان بالجنوب ، وان كان أكبر الاقطاعات التي كانت تحت يد ملك انجلترا • بيد أنه من الصعب السيطرة عليه ، وفى الوقت نفسه كان أبعد الأقاليم عن انجلترا • أما اقليم تولوز Toulouse فقد تجاهله تقريبا ، كما تجاهل الحملة الصليبيــة الالبجنيسيــة Albigensian Crusade التى كانت تقاتــل هناك ، اذ كان من الممكن ترك تلك الأقاليم فى الجنوب والجنوب الغربى الى حين ، حيث كانت انجلترا أشد أعداء فيليب خطورة • لذلك ما أن وضع فيليب يده على نورماندى ، فانه لم يحقق لنفســـه الأمان من تهديدات انجلترا فحسب ، وانما جعل نفسه فى موضع يسمح له بتهديد انجلترا •

وباستثناء انجلترا أبدى فيليب اهتماما كبيرا باقليم الفلاندر وذلك لأن موقعه فى الشمال الغربى لفرنسا وفى مواجهة انجلترا ، أضفى عليه أهمية غير عادية ، اذ كانت هناك تجارة نشطة متزايدة بين انجلترا وبينه تقوم على انتقال الصوف الانجليزى الخـام اليــه فى مقابل المصنوعات الصوفية الفلمنكية • وكان لويس والد فيليب قد أدرك الأهمية الاستراتيجية للاقليم بالنسبة للدفاع عن فرنسا ، وكذلك الخطر الذى تشكله تجارة الأصواف على فرنسا فى المستقبل • وخطب لويس لابنه فيليب وريثة الاقليم المتاخم لذلك الاقليم من ناحية الجنوب ، والذى يقع فى المنطقة التى عرفت باسم أرتوا Artois فيما بعد • ثم تزوج فيليب الفتاة • وعندما كان فيليب فى سوريا مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة ، جاء نبـــأ وفاة والد زوجته • لذلك ترك ريتشار قلب الأســد والحرب مع صلاح الدين ليعود الى وطنه لوضع يده على اقليم ارتوا الذى آل اليه بحـــكم الوراثة فى تلك الفترة الحرجة •

ومنذ غادر فيليب سوريا فجأة ، لم تعد هناك أى محبة أو ثقة بينه وبين ريتشارد • اذ كانوا من قبل أصدقاء وحلفاء ، على عكس ما كان عليه الحال مع هنرى الثانى والد ريتشارد • وكان فيليب أصغر سنا من ريتشارد ، بيد أنه كان أكثر دهاء من زميله القوى البنية ، وعمل على تقوية المشاعر الودية مع ريتشارد على أمل استغلاله ضد والده • وكان قد قام بتشجيع ريتشارد الابن العـــاق ، فى طموحاته للسيطرة على اقطاعات هنرى فى فرنسا • وهو مطمع سوف يؤدي الي اثارة الوالد على ابنه بالاضافة الى وضع ريتشارد تحت تصرف فيليب ، حيث كان فيليب

واثقا من مقدرته على السيطرة عليه • وتشمل تلك الاقطاعات الجزء الأغنى ، والأكثر سكانا فى امبراطورية هنرى التى عمل من أجل اقامتها بكل جهد منذ زمن طويل • ورغم أنها كانت مملكة مترامية الأطراف ، فان هنرى لم يكن مستعدا للتخلى عن ادارة أى جزء منها ليس لمجرد الأنانية ، وانما الخوف من أن اساءه أبنائه لادارتها ، قد يسمح بتحويلها الى فيليب • وفى النهاية انقلب كل أبناء هنرى على والدهم ، وكان ريتشارد قد تبرأ من ولائه لوالده قبل وفاته فى يولية ١١٨٩ م ، وأعلن تبعيته الاقطاعية لفيليب باقطاعاته التى يملكها اسميا من والده فى نورماندى ، وأنجو Anjou •

واذا كان فيليب قد اعتقد أن ريتشارد قد يكون عدوا أقل خطورة من والده هنرى الثانى ، فانه كان مخطئا • اذ عوض ريتشارد عن افتقاره الى القدرات الادارية والدبلوماسية بمعرفته للشئون الحربية وتمتعه بقدر من الشجاعة الشخصية ، التى توازنت مع تفوق فيليب فى درايته بفن ادارة شئون الدولة ، وابان فترة بقاء ريتشارد فى سوريا لمحاربة صلاح الدين كان فيليب قد دخل بقواته الى اقليم نورماندى فى مؤامرة مع حنا الأخ الخائن لشقيقه ريتشارد الذى أغراه فيليب بمحاولة اعتلاء عرش انجلترا • وعندما عاد ريتشارد من الحملة الصليبية ومن سجنه فى ألمانيا ، استرد على الفور الأراضى التى كان فيليب قد وضع يده عليها • ثم سلم ريتشارد الاقليم المعروف باسم فكسين Vexin الى فيليب على أمل الوصول الى تسوية دائمة معه ، وهذا الاقليم عبارة عن قطعة أرض مثلثة الشكل متداخلة بين أراضى نورماندى وأنجو ، وهى بمثابة مفتاح يمكن منها السيطرة على نورماندى • ولكى يحبط كل محاولات فرنسا للسيطرة على اقليم نورماندى ، شيد ريتشارد قلعة جيار Chateau Gaillard على جزيرة نهر السين Seine وهى أقوى قلعة عرفها غرب أوربا • وهكذا قابل فيليب شخصا لا يقل عنه فى شىء ويصعب عليه اخضاعه اليه • ولولا اصابة ريتشارد بسهم ملوث (٢) أودى بحياته فى ابريل ١١٩٩ م ، لتغير مجرى تاريخ انجلترا وفرنسا ، ولما كانت معركة بوفين Bouvines ولما انتهت بالنصر لصالح فيليب •

وجد فيليب فى حنا (جون) شقيق ريتشارد خصما أقل تشددا • الا أنه فيما يتعلق بمدى موطن الضعف فى شخصية حنا فقد يختلف العلماء فى تقديرهم ، وبصفة عامة وصفوه بأنه كان غادرا وقاسيا ومتهورا ، وشديد الدهاء ومخادعا ، ولم يخلص الا لوالدته ، اذ كانت والدته اليانور Eleanor صديقته الوحيدة • ورغم ما قيل عن حنا ، فانه كان من الممكن أن يترك سجلا تاريخيا ايجابيا فى صالحه ، لولا المؤرخون الديريون المعادون

له الذين كانوا يخشون بأسه ، ولولا المشاكل الخطيرة التى جابهته • على أن العديد من تلك المشاكل كانت من صنعه • ومن أمثال تلك المشاكل خلافه الذى طال أمده مع البابا انوسنت الثالث Innocent III بسبب ستيفن لانجتون Stephen Langton الذى اختاره لمنصب رئيس أساقفة كانتربرى ، بيد أن حنا لم يوافق عليه • وفى هذا النزاع استطاع حنا أن يبرهن على أن أسلافه الملكيين قاموا جميعا باختيار الرجل الذى كان يشغل هذا الكرسى الأسقفى • ومع ذلك فان رفضه المتشدد لقبول ستيفن ، ولم يكن من سبب لهذا الرفض سوى العناد الذى جلب عليه صدور قرار الحرمان الكنسى ضده ، والكثير من البلايا على انجلترا ، وكان من أسباب ذلك أيضا حاجته الى موارد الكنيسة المالية التى صادرها فترة الحرمان الكنسى •

وكان زواج حنا المفاجىء من ايزابلا وريثة أنجوليم Angouleme Isabella of عقبة أخرى فى طريقه ، وربما كان هذا الزواج وليد الحب عندما قابلها فى اكويتين وهو فى طريقه الى قشتالة Castile حيث كان عليه اتمام استعدادات زواجه من وريثة البرتغال • ويبدو أن والدة حنا باركت هذا الزواج ، التى ظلت متوقدة الذهن رغم تقدمهـا فى السن ، وكانت ايزابيلا وريثة لاقليم أنجوليم ، وهو الاقليم الذى له تاريخ طويل فى معارضة الحكم الانجليزى فى اكويتين • وكانت مخطوبة من قبل الى هوج الأسمر Hugh the Brown من بيت لوزينيان Lusignan ، وهى أيضا أسرة معادية للحكم الانجليزى ، وكان من الممكن أن يوحـد زواج ايزابيلا من هوج تلك الأسرتين القويتين فى تحالف قوى • معرضا للخطر أى أمل انجليزى فى السيطرة على اكويتين ، وبالمثل كان من الممكن أن يقطع وسيلة المواصلات البرية بين اكويتين فى الجنوب ، والاقطاعات الانجليزية الأخرى فى الشمال •

وعلى الرغم من أن زواج حنا السريع يمكن تفسيره وفقا للدوافع الدبلوماسية ، فانه قدم لفيليب أغسطس الذريعة القانونية لاعلان مصادرة اقطاعات حنا عندما تخلف عن المثول أمام القضاء فى باريس لسماع قرار المحكمة الاقطاعية • وكان هوج وعائلة لوزينيان قد ناشدوا الملك فيليب أن يدفع لهما التعويضات التى طالبا بها بعد رفض حنـا • وكان اقحام فيليب نفسه فى هذا النزاع أمرا مناسبا تماما فى مثل هذه الحالة ، حيث انه السيد الأعلى لكل من حنا وعائلة لوزينيـان • وكان فيليب قد أعد العدة لغزو نورماندى • ولو لم يقدم احتقار حنـا للمحكمة برفضه الحضور أمامها المبرر لفيليب لاعلان مصادرة ذلك الاقليم ، لكان قـد اخترع بعض المبررات الأخرى للغزو •

كان من الممكن أن يواجه فيليب صعوبات في تنفيذ قرار محكمته في باريس لولا الأخطاء الأخرى التي ارتكبها حنا • اذ لم تكن نورماندى سعيدة في عهد حكم حنا المتسلط ، وثار هذا الاقليم بسبب أعمال السلب والنهب التي مارستها قواته المرتزقة بصفة خاصة • ومع ذلك فان اقليم نورماندى كان من الممكن أن يواصل بعزم وعناد مقاومته لفيليب لولا معاملة حنا لآرثر شقيقه الأكبر ، وكان كونتا Count لاقليم بريتانى • ولو أن قواعد الوراثة تم تطبيقها بكل دقة لأعطى آرثر العرش الانجليزى عند وفاة ريتشارد ، وهو الأمر الذى تمنى فيليب حدوثه • بيد أن ريتشارد وايليانور أعلنا موافقتهما على اعتلاء حنا للعرش ، لأن كلا منهما شعر بعدم مقدرة آرثر على التصدى لخطة فيليب الماكر في الاستيلاء على نورماندى • والاقطاعات الانجليزية الأخرى • ولفترة من الوقت راود فيليب الأمل في أن يعتلى آرثر العرش • ولكن أخيرا في سنة ١٢٠٠ م اعترف بحنا كملك شرعى على كل هذه الاقطاعات في فرنسا •

ثم غير كل ذلك صدور قرار المحكمة في باريس • اذ اعترف فيليب على الفور بآرثر كحاكم على بريتانى . ومين Maine ، وأنجو Anjou وأكويتين ، أما نورماندى فقد آلت الى فيليب مباشرة وفقا لقرار المحكمة • وبدا الموقف سيئا بالنسبة لحنا ، اذ كان على آرثر وعائلة لوزينيان وأصدقائهم الاتجاه جنوبا الى أكويتين ، في الوقت الذى اتجه فيه فيليب بقواته الى نورماندى • وقامت قوات آرثر بهجوم سريع واحتلت مدينة ميربيو Mirebeau التي تصادف وجود اليانور ، والدة حنا بها • ونجحت ايليانور في الهروب الى قلعة المدينة • وأرسلت منها رسالة عاجلة الى حنا طلبا للمساعدة • وهذه هي المرة الوحيدة في حياته التي أبدى فيها حنا استعدادا حقيقيا وعن طيب خاطر • اذ وصل على وجه السرعة لانقاذ والدته ، وأسر آرثر الذى لم يكن يتوقع ذلك ، وكذلك أسر لوزينيان وهما في فراشهما •

وكان وقوع آرثر بين يدى حنا نذيرا بتبدد أحلام فيليب • وعندما اختفى آرثر ، انطلقت شائعات أن حنا قتله في ثورة غضب انتابته وهو ثمل • على أن جريمة حنا الحقيقية أو المزعومة جعلت المقاومة في نورماندى والأقاليم الشمالية الأخرى ضد فيليب تتضاءل • وفي ديسمبر ١٢٠٣ م تخلى حنا عن كل فرنسا باستثناء أكويتين ، على الرغم من صمود قلعة جيار حتى مارس من العام التالى • وبنهاية سنة ١٢٠٦ م صارت كل الممتلكات الانجليزية في فرنسا تحت سيطرة فيليب باستثناء أكويتين •

ولو أن حنا رضي بضياع تلك الأقاليم لتغير مجرى الحوادث في غرب أوربا ، ابان العقد التالى بشكل جوهرى • وربما لم يصل الأمر فى انجلترا الى حد المواجهة كما حدث في رينميد Runnymed بين حنا وباروناته • وربما لم يصدر العهد الأعظم (الماجنا كارتا) نتيجة للاجراءات القاسية التي اتخذها حنا لجمع الأموال وحشد الرجال لاسترداد الأقاليم التي ضاعت في فرنسا الأمر الذى أدى الى ثورة باروناته عليه • ومن الواضح أنه لم يكن هناك مبرر لمعركة بوفين ، اذ ان هذه المعركة دارت رحاها لتقرر بصفة نهائية اذا ما كان حنا قادرا على استرداد تلك الأراضى من عدمه ، (وكما سيتم ذكره فيما بعد ، صار فردريك ملك صقلية الصغير فردريك الثانى ملك ألمانيا ، نظرا لخوف فيليب من حنا ، ومن أوتو الخامس حليفه الذى كان يحكم ألمانيا ، الأمر الذى جعل فيليب يساعد فردريك فى طموحه ليحل محل أتو) •

على أنه من الصعب ادانة حنا لجعله مسألة استرداد تلك الأقاليم هدفه الأسمى فى عهده حتى لو كان دافع هذا هو العناد اذ ان الواجب الأول لأى ملك يحتم عليه الحفاظ على ما ورثه عن أسلافه • وكان اقليم نورماندى تحت حكم الانجليز منذ سنة ١٠٦٦ م ، عندما جعل وليم دوقها من نفسه ملكا على أنجلترا • أما معظم الممتلكات الأخرى فانضمت الى بريطانيا فى عهد والده هنرى الثانى ، الذى أصبح كونتا على أنجو ، وبريتانى ودوقا على أكويتين بعد زواجه من اليانور •

على أن أكويتين الاقليم الوحيد الذى ظل تابعا لحنا فى فرنسا لم يكن معرضا لخطر الضياع • اذ لم يمارس أبدا ملك فرنسا سلطة مباشرة على الاقليم ، بالاضافة الى أن الطبقة الارستقراطية به فضلت من الناحية الفعلية دعاوى ملك الانجليز البعيد عن دعاوى الملك الفرنسى القريب • وظلت على ولائها لملك انجلترا طالما لم يحاول الانتقاص من تمتعها بالحكم الذاتى • وابان الحكم الانجليزى للاقليم نشطت تجارة الخمور المزدهرة بين انجلترا وجاسكونى Gascony فى أقصى الجنوب من اقليم أكويتين • وكان للشعور الودى الذى فجرته هذه التجارة تأثير وقوة عند سكان جنوب غرب فرنسا أكثر من الشعور القومى فى عصر لم يكن لدى الانسان سوى القليل من الاحساس بهذه الفكرة العاطفية •

لقد أدرك حنا ادراكا كاملا قوة سحر المال مثل والده • ولا ريب أنه لا يوجد شيء يمكن أن يضاهى المال فى كسب الرجال والمعارك • ولكن هنرى أبدى اعتدالا فى زيادة الموارد المالية ، على النقيض من ابنه • واستحدث هنري البدلية Scutage وهى رسم يدفعه أتباع الملك الاقطاعيين اذا ما رغبوا ، بدلا من تقديم الخدمة العسكرية المفروضة عليهم تجاه

ملكهم • بيد أن هنرى فرض هذه الضريبـــة وفقا للحاجة • لكن حنا لم يفعل كما فعل والده • اذ طلب البدلية سنويا حتى سنة ١٢٠٦ م ، ثم سنويا مرة ثانية من سنة ١٢٠٩ م الى أن ثار البارونات عليه • وبرغم ذلك فان المطالب المالية التى الزم بارونانه بسدادها ، من المحتمل لم تكن هي التي عجلت بقيام الثورة • وانما هناك حوادث أخرى وعلى رأسهـا هزيمة حلفائه فى موقعة بوفين • وفى تلك الفترة وجد حنا فى الكنيسة الانجليزية ضحية أكثر استسلاما لسياسته المالية الاستبدادية ، فمنذ سنة ١٢٠٨ م حتى سنة ١٢١٣ م ، وهى مدة قرار الحرمان الكنسى الذى أصدره البابا ضد حنا ، قام موظفوه بمصادرة الموارد الكنسية ، وتركوا رجال الكهنوت يعيشون على الكفاف • وبفضل المبـــالغ الضخمة التى صادرها ـ كان حنا على استعداد لسداد ما يزيد على عشرة آلاف مارك Mark (١) واستأجر حنا القوات المرتزقة لحروبه ، هذا فى الوقت الذى أرسل فيه مندوبوه ومعهم حقائب مملوءة بالذهب لشراء الأصدقاء من بين الطبقة الارستقراطية فى الأراضى المنخفضة أو ألمانيا •

لقد كان حنا فى أمس الحاجة الى الحلفاء بنفس قدر حاجته الى القوات المرتزقة ، من أجل تحقيق أمله في استرداد الأقاليم التى صارت فى أيدى فيليب • وكان اقليم الفلاندر ، وكذلك الإمارات على امتداد الحوض الأدنى لنهر الراين منطقة حرجة ، غير أن نواب حنا توقعوا أن يفتحوا الأبواب عن طريق المال • وكان فيليب مدركا لهذا الخطر • وكان أخطر ما فى الأمر علاقة الصداقة مع اقليم الفلاندر • ففي سنة ١٢١٢ م سعى فيليب الى اتمام زواج وريثة ذلك الاقليم بفيراند Ferrand ابن سانكو الأول Sanch I حاكم البرتغـــال ، بل انه عمـــل على أن يتم عقد زواج الخطيبين فى كنيسة القصر الملكى في باريس • وربما كان الاجراء كفيلا بضمان ولاء العريس الشاب لفيليب ، لولا قيام لويس بن فيليب بانتزاع العديد من مدن اقليم الفلاندر بموافقة والده ، ومن بين تلك المدن الموطن المزدهر لجماعة القديس أومير Saint Omer فانضم فيراند الغاضب على الفور الى حلفاء حنا الذين تزايد عددهم • وانضمت كونتيه Boulogne التى تقع على الحدود الجنوبية لاقليم الفلاندر الى حنا • وفى مايو ١٢١٢ م قام رينو من دامارتين Reneaud of Dammetrin بقبول اقطـــاع مالى من حنا • وعندما طرد فيليب المتشكك رينو من بولون ، صار الكونت

(١) المارك وحدة نقد انجليزية قديمة تعادل ١٣ شلنا و ٤ بنسات ، وتزن حوالى ثمانى أوقيات أو ما يعادل ٢٢٦٫٨ أو ٢٤٨٫٨ جراما ـ المترجم •

رينو أشد أتباع حنا تحمسا فى منظمة التحالف الأنجلو ـ جرمانى ضد ملك فرنســـا ٠

والأمر الذى جعل هذا التحالف الشـــمالى خطيرا جدا على فيليب هو ولاء أوتو الخامس ملك ألمانيا والامبراطور الرومانى المقدس لهـــذا التحالف ٠ وكما جرت الحوادث أصبحت ألمانيا شريكا فى التحالف ليس بسبب الصراع بين حنا وفيليب ، وانما لأن التاج الألمانى أصبح طرفـا فى هذا النزاع ٠ ولمعرفة الخلفية التاريخية للموقف فى ألمانيا ، فمن الضرورى العودة الى سنة ١١٩٧ م ، وهى السنة التى مات فيهـا هنرى السادس ملك ألمانيا والامبراطور الرومانى المقدس ٠ اذ ان موته المبكر وهو فى الحادية والثلاثين من عمره سبب الفوضى والشقاء لألمانيا ، لأنه ترك ابنه فردريك الذى لم يبلغ الثالثة من عمـره ليحـكم أراضى متراميـة الأطراف ٠ وكانت كونستانس Constance والدة فردريك ابنة لملك صقلية التى كانت ضمن امبراطورية هنرى السادس ٠ وكانت كونستانس تأمل فى أن تستعيد تلك الجزيرة لابنها ونجحت فى ذلك ، وكان فيليب من سوابيا Swabia شقيق هنرى السادس قد أبدى رغبة فى التمسك بتولية فردريك عرش ألمانيا ، غير أنه كان واضحا أن الأمراء الألمان لن يقبلوا ملكا طفلا ، لذلك نادى لنفسه بالعرش ٠ واختارت الغالبية العظمى من الأمراء فيليب ، على الرغم من أن مجموعة كبيرة قبلت من ريتشارد ملك انجلتـرا الأمـوال ، وأعلنوا تأييدهم لابن أخت زوجتـه أتـو من برونسويك Otto of Brunswick ٠

وفى ذلك الحين شهدت ألمانيا خمس عشرة سنة من الحرب الأهلية التى ليس لها هدف محدد ، برغم ما أحدثته من خراب ودمار ، والتى لم تنته الا بقرار دخول معركة بوفين ، وبرغم خلافات أمراء ألمانيا التقليدية فانه كان فى امكانهم اختيار ملك لو تركوا لأنفسهم بيد أن افتقارهم الى الوحدة جلب عليهم التدخل الأجنبى ٠ وكان ملوك انجلترا وفرنســـا والبابا انوسنت الثالث على رأس هؤلاء الأجانب ٠

عمل ريتشارد على اعتلاء أتو للعرش ٠ اذ انه كان ابن شقيقة زوجته المفضل اليه ٠ وكان أوتو قد تربى تحت رعاية البلاط الأنجلو ـ نورمانى حيث حظى بحب زوج خالته لشجاعته ولياقته البدنية الفائقة ٠ كما كان أتو ممثلا لمـا أطلق عليه اسم المصالح الويلفية Welf interests التى تعنى أن يترك الملك حكم الولايات الواقعة على امتداد بحر الشمال والحوض الأدنى لنهر الراين الى حكامها ٠ وحينئذ تستطيع المصـــالح الانجليزية أن تزداد قوة بالمثل تقريبا ٠ ونظرا لما حظى به أوتو من تأييد بريطانى قوى ، فانه كان فى امكانه النجاح فى توحيد ألمانيا لولا مواطن

الضعف فى شخصيته اذ وصفه مؤرخ بأنه كان « متكبرا ، أحمق ، ولو أنه كان شجاعا » ٠

ونظرا لأن ريتشارد ومن بعده خليفته حنا ساعدا أوتو فى الصراع على التاج الألمانى ، كان من المسلم به أن يعارض ذلك فيليب أغسطس ملك فرنسا ، وأن يؤيد ترشيح فيليب من سوابيا Philip of Swabia ملكا على ألمانيا ٠

كان فيليب أحد أفراد أسرة الهوهنشتوفين Hohenstaufen أشهر أسرة فى تاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى ٠ وحكمت هذه الأسرة ألمانيا ابان النصف الثانى من القرن الثانى عشر ٠ ففى عهد فردريك بارباروسا Frederick Barbarrossa (١١٥٩ ـ ١١٩٠ م) ، فاخرت ألمانيا به كأقوى ملك ومحارب صليبى فى أوربا ٠ وتمركزت مصالح الهوهنشتوفين فى سوابيا وجنوب ألمانيا ، وهى الأقاليم التى كان لفيليب بها مصالح قليلة ٠

أشار المؤرخون بصفة عامة الى البابا انوسنت الثالث الذى غطت فترة بابويته تلك الفترة التاريخية الحرجة ، كأقوى بابوات أوربا فى العصور الوسطى وأكثرهم طموحا اذ كان اصلاح الكنيسة من بين أهداف انوسينت الكبرى ، وهو هدف كان من الممكن الا يحظى سوى باهتمام قليل من الملوك لو أنه لم يتعرض لنفوذهم فى اختيار الأساقفة ٠ ولكى يخفف البابا انوسينت الثالث من ذلك النفوذ اذ لم يكن فى استطاعته القضاء عليه دخل فى صراع مرير وطويل الأمد مع حنا ملك انجلترا الذى رفض الاعتراف بستيفن لايختون كرئيس لأساقفة كانتربرى ٠ أما فى حالة فيليب الذى اشتبك معه انوسينت فى نزاع أيضا ، فان موضوع الخلاف كان شخصيا الى حد كبير ، اذ كانت أنجبورج زوجة فيليب قد استغاثت بالبابوية من أجل استرداد حقوقها كزوجة شرعية ، وشرع البابا فى مساعدتها ، بهدف اقناع الملوك بأنهم لا يتمتعون بامتيازات خاصة تسمو على امتيازات أى قروى من ناحية الأخلاق ٠

ومما عمل على تعقيد العلاقات بين انوسينت وألمانيا مركز الملك الألمانى المهيمن الذى قد أعطاه الحق منذ أمد بعيد فى التدخل فى شئون الكنيسة الألمانية ، وكذلك نفوذه فى ايطاليا باعتباره امبراطورا رومانيا مقدسا وربما زاد طموح الملك الألمانى ، تحت هذا اللقب الى ممارسة السلطة ليس فى ألمانيا فحسب وانما فى ايطاليا أيضا ٠ وشمل ذلك روما مدينة البابا ٠ ونظرا لأن كل ملوك ألمانيا منذ ١١٥٢ م كانوا من أسرة الهوهنشتوفين وحملوا لقب أباطرة رومان مقدسين فانهم ادعوا لأنفسهم

سلطات قانونية كبيرة فى ايطاليا • ولذلك قام البابا انوسينت بمساندة قضية أتو من برونسويك Otto of Brunswick بشأن خلافة العرش منذ بداية النزاع أملا فى تقليص هذا التدخل فى ايطاليا الى الحد الأدنى فى المستقبل • لذلك بذل البابا ومستشاروه كل ما فى وسعهم من أجـــل تقديم الأدلة القانونية على أحقية أوتو فى عرش ألمانيا •

بدأ الصراع على خلافة عرش ألمانيا بمجرد وفاة هنرى السادس سنة ١١٩٧ م • ومرت سنة بعد أخرى من الفوضى والمنازعات دون أن تنجلى عن ظهور ملك • وفى ذلك الوقت التف غالبية الأمراء حول فيليب من سوابيا ، شقيق هنرى تحت تأثير فقدان انجلترا لاقليم نورماندى ، وتوقف تدفق الأموال الانجليزية • وفى سنة ١٢٠٦ م تدهور مركز أتو فى ألمانيا الى الحد الذى أجبره على مغادرة البلاد • وبعد أن أدرك انوسينت أن الوقت يضيع ، وعلى أمل انقاذ ما يمكن انقاذه ، توصل البابا الى اتفاق مع فيليب فيما يتعلق بحقوقهما الذاتية فى ايطاليا • وفى ســـنة ١٢٥٨ م عندما بدا أن اختيار فيليب سيجعل ألمانيا تنعم بالسلام ، قضى خنجر عدو شخصى على الملك الجديد • وكان الأمراء الألمان قد وصلوا الى حد الارهاق والانهاك ، ومن ثم رفضوا كل البدائل الأخرى ، واختاروا أوتو Otto على الفور •

غير أن انوسينت لم ينعم طويلا بهذا الكسب المفاجىء ، ونعنى بذلك، اختيار الملك الذى كان يريد لعرش ألمانيا ، اذ فى خلال شهور قلائل كان أوتو يعلن مطالبته بالأراضى والحقوق الامبراطورية فى ايطاليا بنفس القدر الذى أكد عليه أباطرة الهوهنشتوفين • ولو وضع أوتو حدا لمطالبه لكان من الممكن أن يتسامح انوسينت معه • ولكن اختلف الأمر عندما تحرك أتو بقواته الى ايطاليا ، عبر الأراضى البابوية الى الجنوب الايطالى ، وأعـد العدة لقيادة جيشه الى صقلية • فأعلن انوسينت وهو فى حالة من الألم النفسى المبرح ، أنه ليس أمامه من خيار سوى التبرأ من أوتو ثم وافق على مرشح للعرش يمكن قبوله دون اعتراض كملك ألمانى وامبراطور رومانى مقدس • ولم يكن هذا الشخص سوى فردريك الشـاب من بيت الهوهنشتوفين ، وهو ابن هنرى السادس الذى حكم ألمانيا وايطاليا • وحصل انوسينت على وعد فردريك بترك صقلية لابنه هنرى ، على أن يظل هو فى ألمانيا شمال جبال الألب •

وسارع كل من أتو وفردريك الى مغادرة شبه الجزيرة الايطالية الى ألمانيا ، التى تنازعا عرشها • على أن مصير الشاب الذى كان معلقا بخيط ، تحسن رويدا رويدا ، اذ ان اسم الهوهنشتوفين جذب بعض الأمراء ،

وبخاصة فى جنوب ألمانيا ونجح فردريك فى كسب النبلاء الآخرين بالدبلوماسية والأموال التى قدمها اليه فيليب أغسطس ومن ناحية أخرى ، فان أساليب أتو العنيفة بالاضافة الى افتقاره الى فن ادارة شئون الدولة ، ونزوعه الواضح الى السيطرة على ألمانيا لامجرد حكمها عوامل أفقدته بعض الأصدقاء • ومع ذلك فطالما ظلت أموال الملك حنا تتدفق ظل مركز أوتو فى شمال ووسط ألمانيا فى أمان •

ومن ثم بدأت سنة ١٢١٣ م ، وقد انقسم غرب أوربا الى حلفين متحفزين : الأول ضم أوتو الذى ظل ملكا لألمانيا فى نظر الكثير ، وحنا ملك انجلترا ، وكونت الفلاندر ، بالاضافة الى غالبية الأمراء بالأراضى المنخفضة والحوض الأدنى والأوسط لنهر الراين • أما الحلف المعارض ، فضم فردريك الذى نازع أوتو على عرش ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا • وكان أمام المتنافسين الكبار الكثير من المخاطر • فبالنسبة لحنا كان النصر يعنى استرداد اقليم أكويتين ، وستجلب عليه المتاعب من البارونات عند العودة الى وطنه • وكان النصر يعنى لفيليب أغسطس تأمين سيطرته على اقليم نورماندى ، ومستقبل مشرف للطموحات الملكية لأسرته ، اذا ما أحرز أوتو وخلفاؤه النصر • فسيكون عرشه آمنا فى ألمانيا ، أما الهزيمة فكانت تعنى النسيان • واذا ما كسب فيليب أغسطس المعركة ، فسيكسبها أيضا فردريك الذى سيحكم عندئذ ألمانيا كملك وكامبراطور رومانى مقدس ، أما اذا خسر فيليب المعركة فعليه أن يقنع فردريك بأملاكه فى صقلية •

أين كان يقف البابا انوسينت فى هذه المعركة المرتقبة ؟ انه لم يكن متأكدا تماما ، ومن حسن حظه أنه لم يكن لديه ما يقدمه أكثر من الصلوات لأنه تحير فى اختيار الحلف الذى يعلن مساندته له • اذ كان يرى أن على المسيحيين محاربة المسلمين الذين استولوا على بيت المقدس لا أن يحاربوا المسيحيين الآخرين • أما ملكا ألمانيا فردريك وأوتو فكان الأول من أسرة الهوهنشتوفين • والثانى طموحا مثل أى فرد فى أسرة الهوهنشتوفين • ووجد انوسينت الثالث صعوبة فى تحديد أيهما أشد خطورة • وكان الأمر كذلك بالنسبة لحنا وفيليب اذا نال فيليب الحظوة من جديد فى ذلك الحين لدرجة أنه رد زوجته أنجبورج الى عصمته ، كما أن حنا لم يعد عدوا كذلك • ان امكانية اشتراك بارونات حنا الميالين الى اثارة القلاقل ، فى حملة مسيحية تؤيدها البابوية بقيادة فيليب تعبر القناة الانجليزية لخلع حنا عن العرش دفعت ذلك الملك العنيد للاذعان لمطالب انوسينت اذ أقر اختيار ستيفن لانجتون فى منصبه • ثم لجأ الى مناورة بارعة ، فسلم انجلترا الى انوسينت وتسلمها منه كاقطاعة على

أمل أن يحميه دوره الجديد كتابع اقطاعي للبابا من هجوم فيليب وتمرد باروناته عليه ٠

وكانت بعض المناوشات قد بدأت في أواخر ربيع سنة ١٢١٣ م ، في أعقاب استعدادات فيليب الذي جمع أسطوله وقواته في بولونيا في شهر أبريل ، ثم تحرك في مايو الى جرافلين على الحدود الفلمنكية ٠ ولم يكد فيليب يصل الى ذلك الموقع الذي يسمح له بالاقلاع الى انجلترا حتى سلمه ممثلوا البابا أمرا بابويا بأنهاء كل الاجراءات العدائية ضد حنا التائب في ذلك الحين ٠ غير أن فيليب الذي كان له تاريخ طويل في تجاهل الأوامر البابوية تجاهل هذا الأمر البابوي أيضا ٠ وواصل احتلاله لعدد من المدن الفلمنكية بما فيها مدينتا بروج Brugos ، وجينت Ghent ثم تخلى عن التفكير في غزو انجلترا عندما فاجأ أسطول انجليزى أسطوله ودمر الجزء الأكبر منه ٠ وكان هذا الاسطول الانجليزى تحت قيادة ايرل ساليزبرى Earl of Salisbury الذى كان أخا غير شقيق للملك حنا ٠ وزاد من شعور فيليب بالحزن وخيبة الأمل اختيار كونتات بولونيا ، والفلاندر ، وهولندا تلك اللحظة لاعلان انضمامهم الى حلف حنا ٠

لم تكن آمال حنا في القضاء على فيليب استعادة اقليم نورماندى تبدو قريبة المنال ٠ وفي أواخر يوليو سنة ١٢١٣ م ، أرسل حنا وفدا الى ألمانيا للانتهاء من اعداد الخطط الحربية لتحركات الجيوش ٠ وكان على أتو ومن معه من الحلفاء الفلمنكيين ، والذين يعيشون في الحوض الأدنى لنهر الراين ، أن يقوموا جميعا بغزو فرنسا من الشمال الشرقي ، في الوقت الذى يتقدم فيه حنا ، وما يستطيع تجنيده من الأصدقاء في اقليم أكويتين عبر اللوار في اتجاه باريس ٠ وكان حنا مصمما على التحرك للقتال ، بيد أن البارونات في بلاده رفضوا ذلك ٠ وتذرعوا بأنهم ليسوا ملزمين بتقديم الخدمة العسكرية لسيدهم الاقطاعي الأعلى لأن تلك الحملة الحربية خارج حدود المملكة الانجليزية ٠ ولم يكن في مقدرتهم المجادلة على هذا النحو مع هنرى الثاني والد حنا ٠ اذ كان هنرى محبوبا للغاية من الشعب الانجليزى وقويا جدا الى الحد الذى يمكنه من قبول مثل ذلك التحدى ٠ كما أن عدد البارونات الانجليز الذين كان لهم اقطاعات في اقليم نورماندى في عهد هنرى ، فاق بكثير عددهم في عهد حنا ٠ ومن ثم لم ير هؤلاء فائدة تعود عليهم من هذه الحرب ٠ وعلى ذلك أرجأ حنا حملته العسكرية ، وهو يعاني من مرارة خيبة الأمل ٠

وفي شهر فبراير سنة ١٢١٤ م ، تغيرت الظروف وأصبح حنا قادرا على التحرك مرة ثانية ، اذ نجح في حشد جيش معظمه من القوات التي تقاتل مقابل راتب ٠ ووصلت تلك القوات الى بلده لاروشيل

La Rochelle . في الخامس عشر من ذلك الشهر • وسارت الأمور على مايرام فى تلك الفترة ، اذ كان هدف حنا الفورى استعادة بواتو Poitou التى تقع شمال أكويتين ، وهو الأمر الذى دفع كثير من نبلاء اكويتين الى الاشتراك معه • واندفع حنا شمالا على وجه السرعة ، الأمر الذى جعل فيليب الذى كان يرقب تحركات الحلفاء الشماليين يتجه جنوبا عن طريق سومور Saumur وشينون Chinon فى محاولة للحاق بحنا ، ليقطع عليه خط التراجع الى اكويتين • ولو كان حلفاء حنا الشماليين على استعداد لشن هجوم فى تلك الفترة لكانت نهاية فيليب ومن سوء حظ حنا ، أن حلفاءه كانوا غير مستعدين بالرغم من أن فيليب كان قد رأى أنه ليس من الحكمة أن يعهد الى كل جيشه بالتصدى لحنا وعهد الى ابنه لويس بقيادة نصف القوات ، وعاد الى الشمال •

وعند اقتراب فيليب تراجع حنا جنوب نهر اللوار ثم عبره مرة ثانية وفى التاسع عشر من يونيو حاصر قلعة لا روش أو موان La Roche-au-Moine آخر عقبة فى طريقه الى باريس • ومع ذلك ، عندما جاء لويس بجيشه ، فك حنا حصاره ، ورجع ثانية صوب الجنوب • ولم يترك له حلفاؤه من البواتين حق الاختيار ، اذ رفضوا تماما أن يحاربوا ابن سيدهم الاقطاعى الأعلى ، فيليب ملك فرنسا • وكل ما استطاع أن يفعله حنا هو التقهقر الى لاروشيل ليواجه مصيره مع أوتو وحلفائه فى الشمال •

وبعد انتظار طويل أعد أوتو حلفاءه للقتال • واذا ما وضع المرء فى اعتباره افتقار أوتو للكياسة فى التعامل مع زملائه الارستقراطيين لما تعجب من طول هذا ولولا المال الانجليزى لما تأتى تشكيل حلف قوى من أدواق برابوانت Braboant ، اللورين ، وبولونيا وهولندا ، ومن النبلاء الفرنسيين الذين تعرضوا للتشتت لخوفهم من فيليب أو من الذين طردهم • وكان كونت نيفر Nevers أكثر هؤلاء النبلاء شهرة • وأخيرا كانت فرقة انجليزية تحت قيادة حاكم ساليزبيرى • وتجمعت قوات الحلفاء فى هانيو Hainaut على مقربة من فالينسين Valenciennes على بعد بضع أميال من بيرون Peronne حيث يوجد فيليب وجيشه • وجاء اليوم المحتوم لكثير من السادة الاقطاعيين ولأربعة من الملوك ولممتلكاتهم جميعا •

ورغم الأهمية غير العادية لهذه المعركة ، لانعرف على وجه الدقة عدد الرجال الذين حاربوا فى كل من الجانبين ، والمشكلة هنا هى الاحصاءات التى تركها الكتاب المعاصرون ، الذين كانوا يكتبون لجمهور من القراء والمستمعين كان اهتمامهم بالأعداد الصحيحة يقل عن اهتمامهم

بالتشويق الدرامى ، مما دفعهم الى اثارة اهتمام الجمهور والهاب خياله بالمبالغة فى الأرقام ، كما فعل ريتشارد من سين Richard of sens الذى ذكر أن جيش أوتو يبلغ ما يزيد على مائة ألف مقاتل من المشاة ، بالاضافة الى خمسة وعشرين ألفا من الفرسان • ومن الصعب الوصول الى الأرقام الصحيحة اذ أن المؤرخين الذين يعتد بهم شعروا بأنهم لم يجانبوا الصواب عندما افترضوا أرقاما تتناسب مع أهمية المعركة •

ولقد قام أومان Oman ، أشهر عالم انجليزى كتب فى فن الحرب ، بتخفيض الأرقام التى وردت فى المصادر المعاصرة عن جيش فيليب الى حوالى ألفين وخمسمائة فارس ثقيل العدة ، وخمسة وعشرين ألفا من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان خفيفى العدة • وبالنسبة لأوتو وحلفائه خصص لهم حوالى ألف وثلاثمائة فارس وأربعين ألفا من المشاة • ويرى العلامة الألمانى الكبير ديلبروك Delbruck أن عدد قوات فيليب من الفرسان زاد بحوالى ألف وخمسمائة فارس عن عدد فرسان أوتو ، فى الوقت الذى خفض فيه عدد المشاة فى كل من الجانبين ، بحجة أنهم لم يلعبوا دورا مهما فى المعركة • أما العلامة الأمريكى بيلر Beeler فيرى أن الجيش الفرنسى تكون من ألف ومائتين من الفرسان ثقيلى العدة (٣) وثلاثة آلاف من الفرسان خفيفى العدة وربما عشرة آلاف من المشاة • ونظرا لأن فيليب كان قد عين ابنه لويس قائدا على حوالى عشرة آلاف من قواته التى تحت قيادته ، وذهبت تلك القوات للتصدى لحنا ملك انجلترا ، استنتج بيلر أن القوات التى بقيت تحت قيادة فيليب والتى خاضت معركة بوفين كانت أقل من عدد قوات أوتو • أما المؤرخ الفرنسى فردينان لوت Ferdinand Lot • فيرى أن جيش أوتو كان أكثر عددا من جيش فيليب بعض الشىء ، ويعتقد أنه كان ألفى ومائة من الفرسان ثقيلى العدة • وعشرة آلاف من المشاة • ومع ذلك كان للفرسان أهمية كبرى ، فى تحديد مصير المعارك ، وهنا كان لفيليب عنصر التفوق العددى والنوعى • ومن المحتمل أن الفرسان الفرنسيين كانوا أفضل فرسان فى العالم ، وهذا التفوق يمكن ارجاعه الى خبراتهم فى الحروب الصليبية والأعمال الحربية المستمرة التى شهدتها فرنسا على امتداد معظم القرن الثانى عشر •

وظل بعض الجدل قائما بشأن الدور الذى لعبه المشاة فى معركة بوفين • اذ ورد ذكر جندى المشاة فى اشارة عابرة ، وهى حالة دفعت معظم الكتاب الى الاستنتاج ان دوره كان قليل الأهمية بالنسبة لنتيجة المعركة • ويبدو ذلك أمرا مدهشا لغرابته ، وذلك لأنه فى ذلك الوقت أثبت جندى المشاة أنه شريك لا غنى عنه للفارس عند محاربة المسلمين فى سوريا • وبالرغم من أن الموقف فى شمال فرنسا كان مختلفا عن الموقف

فى سوريا ، وفى الشرق الأدنى الشديد الحرارة والجاف ، قام الجندى المسيحى من المشاة بدور الحاجز لحماية الفارس الثقيل العدة والبطىء عند الهجمات العنيفة التى قام بها الخيالة المسلمون الذين تميزوا بالسرعة فى الحركة • فى حين أن المشاة فى غرب أوربا لم يمارسوا مثل ذلك الدور ، بل انهم كانوا خلف الفرسان أحيانا ، كما حدث فى معركة تاجليا كوزو Tagliacozzo (١٢٦٨ م) ، ومارشفيلد Marchfield (١٢٧٨ م) •

وربما كان السكسون Saxon خير جنود المشاة فى معركة بوفين • وكان الجرمان أبطأ من الانجليز والفرنسيين فى التحول التدريجى من القتال كجنود مشاة الى القتال على صهوة الخيل • وفى معركة بوفين ظل كثير من السكسون يقاتلون كما كان يفعل أبناء عمومتهم من الأنجلو ـ ساكسون فى معركة هيستنجز ، التى حدثت قبل بوفين بحوالى مائة وخمسين عاما ، اذ حملوا رماحا وكانت خطاطيف يمكنهم بها طرح الفرسان أرضا من على صهوة خيولهم ، وحملوا خناجر ثلاثية الأطراف لطعن الفرسان فى المواضع الضعيفة فى عدتهم • ولابد أن وجود هؤلاء الساكسون هو الذى دفع فيليب أغسطس الى أن يصيح فى جنوده قبل بداية المعركة مباشرة قائلا : « ان الجرمان سيقاتلون كمشاة أما أنتم يا أبناء شعب الغال فستقاتلون ، وأنتم على ظهور الخيل دائما » •

كان دور المشاة الأساسى فى معركة بوفين ١٢١٤ م هو مساندة الفرسان لذلك كان جندى المشاة يحمل سيفا وحربة ، أو القوس والنشاب ، وارتدى كل منهم قميصا مدرعا ، ووضع على رأسه قلنسوة من الفولاذ • وفى الوقت الذى كان على جنود المشاة أعاقه هجوم الفرسان المعادين أو التصدى لهم الى أن يستعد فرسانهم للهجوم ، فان مسئوليات الفرسان المساعدين بصفة عامة تحددت فى تزويد الفرسان الذين يفقدون مطاياهم بمطايا أخرى ، وطعن خيول الأعداء ، اذا ما كانوا على مقربة شديدة ، وقتل أو أسر أى فارس يسقط من على صهوة جواده ، بمجرد مشاهدته • وبعد مرور مائة سنة على معركة بوفين أحرز المشاة نصرا مؤزرا للفلمنكيين على فيليب الخامس ملك فرنسا عند كورترايا Courtria (١٣٠٢ م) • ثم أثبتت الهوسيت Hussites ، والسوسريون فى القرن الخامس عشر أن جندى المشاة قادر على القيام بمعركة هجومية •

لم تتغير الملابس الحربية التى ارتداها الفارس فى معركة بوفين ولا الأسلحة الحربية التى حملها الا فى القليل منذ معركة هيستنجز ، اذ زاد طول قميصه المدرع ، والمشقوق من أسفل ليقى الساقين حتى السمانة • وبدلا من القلنسوة المعدنية المخروطية الشكل التى كان

يستخدمها من قبل ، فانه وضع على رأسه خوذة على شكل قدر من المعدن • وهى نوع من الخوذ المعدنية الاسطوانية الشكل بها شقوق طويلة وضيقة للعينين • وصارت الملابس الحربية أكثر سمكا ، وتغطى مساحة أكبر من الجسم أما ترس الفارس فقد نقص حجمه • وحتمت الملابس الحربية الثقيلة استعمال مطايا اضافية ، اذ كان الفارس يمتطى جوادا الى المعركة ثم ينتقل الى جواد آخر غير مجهد عند الدخول فى المعركة • واتبع الفارس أيضا طريقة مختلفة فى استخدام رمحه ، فبدلا من رميه تجاه العدو أو استخدامه كخنجر مستطيل ثبتـه على كتفه أو على ذراعه ، وبذلك تمكن من تسديد ضربة أشد تأثيرا الى عدوه •

على أن جواد الفارس الذى ليس عليه دروع تقيه ظل نقطة الضعف فى عدة الفارس الحربية ، لذلك صار هدفا لهجوم العدو أكثر من الفارس نفسه الذى ازدادت دروعه احكاما • ومنذ منتصف القرن الثانى عشر بذلت الجهود لحماية الجواد ، بيد أنه ظل أكثر تعرضا لضربات الأعداء من راكبه • وعلى سبيل المثال أمر شارل من أنجو Charles of Anjou رجاله بتركيز هجومهم على الخيول ، لا على راكبيهـا فى معركة بنفنتوم Beneventum سـنة ١٢٦٦ • وما أن يفقد الفارس جواده حتى أصبح لا حول له ولا قوة مثل رينو Renaud كونت بولونيا Boulogne الشجاع فى معركة بوفين ، الذى وجد ساقيه مثنية تحت جواده عندما تعرض الجواد الى اصابة طرحته أرضا • وأوشك أحد جنود المشاة أن يقتله بعد أن صفعه على وجهه ، لولا أن أنقذه أربعة من الفرسان كانوا يتنازعون بشأن من له الأحقية القانونيـة فى وضع يده على هذا الأسير المهم جدا •

على أن الوسائل التى اتبعها كل من حنا ، وفيليب ، وأوتو لجمع المجندين لجيوشهم فاقت فى أهميتها عمليات التطوير التى أجريت على العدد الحربية أو أسـاليب القتال التى يؤديهـا الرجال الحاصلون على اقطاعات لمدة أربعين يوما كل سنة قد تحولت تدريجيا الى رسم عرف باسم البدلية Scutage حيث كان للفرد الفارس حق الاختيار فى سداد مبلغ بدلا من الخدمة العسكرية • وفضل كثير من الناس دفع البدلية على تأدية الخدمة العسكرية ، على الرغم من أن البارونات بصفة عامة اختاروا قيادة أتباعهم الى الميدان سعيا للشهرة ، وعلى الأرجح ليظلوا يلقون الحظوة عند ملكهم الذى كان سيدهم الاقطاعى الأعلى • وفضلت المدن والمؤسسات الكنيسة دفع الرسم ، ولكن أميان Amiens وبيافين Beavines وكومبين Compiegne وآراس earls أرسلت رجالهـا للقتـال فى بوفين • على أن الفائدة الكبرى التى حققتها البدلية للملك ، هى أنها مكنته من جميع جيش من المرتزقة ، وعين قيادة ذلك الجيش وفقا لاختياره • وكان

حشد فيليب لحوالى سبعة وعشرين ألفا من الجنود وتقسيمهم تحولا أساسيا فى نظم حشد القوات منذ أن أعد كل من هارولد الأنجلو سكسونى ، ووليم النورماندى جيشهما لخوض معركة هيستنجز •

ان الميزة التى تفوق بها فيليب على أعدائه فى بوفين ، بغض النظر عن التفوق العددى عنده فى الفرسان هى انفراده بقيادة كل قواته دون منازع (وعين الأسقف جيران Guerin ، وهو اسبتارى Hospitaller سابق كقائد أعلى للتنظيم والادارة فى الجيش) ، على النقيض من خصمه • واذا ما أشار المرء الى الافتقار الى عناصر التلاحم والاتجاه كنقطة ضعف صارخة فى الجيوش الاقطاعية لتلك الفترة ، فان نقطة الضعف تلك ، ظهرت بوضوح فى جيش أتو ، الذى تكون من جماعات من المحاربين من عدد مختلف من الولايات • وكان من الممكن أن يتفق أوتو وحلفاؤه على عمل عسكرى ، بيد أن جيوشهم ظلت دائما وحدات منفصلة تحت قادتها المباشرين ، الذين قد يغيرون الاتجاه ليتحولوا عن أى خطة استراتيجية ، اذا ما شعروا أن مصلحتهم اجراء ذلك • ولقد انكشفت خطورة القيادات المقسمة فى معركة بوفين عندما أمر دوق برابانت Brabant وجاله بالانسحاب، من ميدان القتال مما أدى بوضوح الى الانهيار الكامل لجيش الحلفاء •

حشد أوتو وحلفاؤه قواتهم فى نيفيل Nivelles أولا الى الجنوب من بروكسيل ثم تحركوا فى الثالث والعشرين من يوليو الى فالينسين ثم الى هاينوت • وفى ذلك اليوم نقل فيليب جيشه من بيرون Peronne الى تورناى Tournai ربما بقصد منع أوتو من الوصول الى القناة الانجليزية • على أية حال ، لم يتأكد أى من الجيشين من مكان وجود الآخر ، وهو الأمر الذى يفسر سبب وجود الفرنسيين الى الشمال من الجيش المحالف • وما أن اكتشف فيليب موقع جيش أوتو ، حتى غير اتجاهه بسرعة ، وتحرك جنوبا فى اتجاه ليل Lille وهى منطقة منخفضة ، ورخوة • وكان على فيليب أن يقاتل على أرض صلبة ، ذلك لأنه وضع كل آماله فى فرسانه ، لذا اتجه الى بوفين التى وصلها فى صباح السابع والعشرين من يوليو ، بيد أن الأرض كانت رخوة ، لذلك أمر جنوده المشاة بالتحرك غربا عبر الجسر الوحيد المقام فوق نهر مارك Marq فى تلك المنطقة • وما أن تقدم هؤلاء الرجال حوالى أربعة كيلو مترات خلف الجسر حتى وصلتهم أوامر عاجلة بالعودة الى بوفين • اذ بلغ فيليب نبأ تقدم جيش أتو ، وأن بعض القوات الغازية كانت بالفعل فى حالة قتال مع مؤخرة جيشه • ومن الواضح أن أوتو تحرك بأسرع مما كان يتوقع فيليب • وربما كان يأمل أوتو فى قطع خط الرجعة على فيليب تجاه باريس ، حتى يتركه معزولا فى بلاد الغال المعادين له •

وللمرء أن يتصور أن أوتو تقدم الى الغرب في محاولة للحاق بفيليب، بينما اتجه فيليب شرقا • وفى أثره مشاته العائدة عبر نهر المارك ، ولم يحدث التحول سوى القليل من الفوضى نظرا لشدة انضباط قواته • وعندما اندلعت نيران المعركة اتخذ المشاة موقعهم الصحيح أمام الفرسان • ومن ناحية أخرى ، فان جيش أوتو لم يكتف بالتقدم فى جبهة ضيقة ، والتحرك على صورة خط طويل لمسافة عدة أميال فحسب ، وانما اندفع بسرعة متلهفا للحاق بالفرنسيين الأمر الذى هدد تماسكه • وكذلك كتب فيربروجين Verbruggen ، « ويبدو أن سرعة تحرك قوات أوتو كانت السبب فى هزيمتهم الى حد كبير » (٤) •

ويبدو أن فيليب كان واثقا تماما من هزيمة العدو • ولو أنه ركن الى الهواجس لتجنب المعركة واستمر فى تحريك قواته نجاه الغرب عبر نهر المارك ، ولا ريب أن فيليب كان لديه وقت كاف لمواصلة المسير بثبات• واستطاع جنود المشاة الذين كانوا على بعد أربعة كيلو مترات خلف النهر العودة على الفور ، واصطفوا أمام الفرسان فى مواجهة الشرق • على أن اختيار فيليب مقاتلة أتو ، وهذا النهر من خلفه حيث لايوجد سوى جسر وحيد يسمح له بالهروب انما ينم ذلك كله عن تفاؤله • ويقــال ان أوتو كان مندهشا لوجود كل جيش فيليب فى بوفين وليس مجرد الجزء الذى بقى شرق نهر المارك وأدرك رينو خطورة الموقف ، وحذر أتو من القتال ، بيد أن الامبراطور رفض الاستماع الى تلك النصيحة •

واتخذ الجيشان مواقعهما للمعركة القادمة ، وكان فيليب فى قلب الجيش الفرنسى مواجها الشرق ، ووجد نفسه أمام أوتو الذى ســاعده فرسان النورين ومشاة السكسون الوستفاليين Westephalian Saxon وعلى ميسرة أوتو كان هناك رينو من بولون ، وكونت ساليزبيرى ، ومشاة برابانت • وتحت أشعة الشمس ، وبعد منتصف النهار بوقت قليل فى يوم الأحد الموافق الخامس عشر من يوليو بدأ الرماة الفرنسيون يطلقون سهامهم و بدأت المعركة •

وتحركت ميمنة الجيش الفرنسى تحت قيادة الأسقف جيران وبعد قتــــال عنيف أجبروا الفلمنكيين على الارتــــداد ، وأسر كونتهم فيراند Ferrand • وحقق فيليب وقلب جيشه نجاحا أقل • وشن المشاة من السكسون هجوما شرسا قضوا فيه على قوات المشاة من الشعوب الفرنسية • وسقط فيليب نفسه من على صهوة جواده • وكان من الممكن قتله لولا بيير ترستان Pierre Tristan الذى اتخذ من جسده درعا واقيا لجسد فيليب وحماه من أى ضربة قاتلة الى أن أتى الفرسان الفرنسيون لنجدته • وتعرض أتو لموقف مماثل • وبعد فشل محاولات عديدة لاحضار الجواد الملكى الذى كان يمتطيه ، قتل أحد المشاة ذلك الجواد بعد ذلك • وحاول

أوتو النجاة من الأسر على جواد أحضره تابعه برينهارد من هورتسمار Bernard of Hortsmar ، وكان القتال بين ميسرة الجيش الفرنسي ومشاة برابانت أشد شراسة وأكثر خطورة • وما أن أعطى دوق برابانت الأوامر بالتراجع حتى سادت حركة عامة من الانهيار كل الجيش على الفور • وهناك بعض الاشارات التى تدل على أن فيليب كان قد قدم الرشوة الى ذلك الدوق كما كانت بعض التشكيلات بما فيها قوات البرابانت ، وليمبورج Limbourg ، والبروج Bruges والجنت Ghent الذين وصلوا مؤخرا قد قررت عدم الدخول في المعركة عندما علموا بمصير المعركة • وهذا يعنى أن حلفاء أتو أكثر من حلفاء فيليب من الناحية النظرية أو على الورق فحسب ما دامت أعداد كبيرة لم تدخل المعركة •

ويقول أومان ان المعركة إستمرت ثلاث ساعات ، ويقول فيربروجين Verbuggen انها استمرت أطول من ذلك ، بيد أن العلماء الآخرين يشكون في ذلك ويشيرون الى قلة المشاهير الذين ورد ذكرهم بين القتلى • فعلى سبيل المثال ، لم يذكر المؤرخ ميلروز Melrose سوى ثلاثة من الفرسان من بين القتلى فى معركة بوفين ، وأقل من مائة فارس من جيش الغزاة (ربما حوالى سبعين) من القتلى على الرغم من وجود أكثر من مائتين من الأسرى (٥) • وظل كونت الفلاندر ، وكونت بولون فى السجن ثلاثة.عشر عاما حتى مات الثانى وقضى كونت الفلاندر المدة نفسها فى السجن الجديد في لوفر Louvre ، قبل أن يسمح فيليب للنبلاء الذين أمضوا فترة طويلة في السجن بالعودة الى أقاليمهم •

كانت معركة بوفين نصرا مبينا لفيليب ، اذ أصبحت بلاد الفلاندر ، وبولونيا في الشمال تحت قبضته ، ولم يعد هناك أدنى شك في أن نورماندى ، وأنجو : والأقاليم الأخرى : شمال نهر اللوار ستكون تحت حكم الملك الفرنسى • وهكذا قدر لأسرته البقاء فى باريس والاستقرار على العرش الفرنسى • لقد أضاعت بوفين آخر أمل عند جنا فى إستعادة الأقاليم التى كانت تحت سيطرة والده هنرى الثانى في فرنسا • وتوالت النكبات ، اذ لم تكد أنباء بوفين تصل انجلترا حتى بدأ باروناته فى الثورة على « طغيانه » ولولا الهزيمة في بوفين لما ظهر العهد الأعظم Magna Carta بكل ترجيح •

أما بالنسبة لأوتو فكانت بوفين تعنى نهاية المطاف اذ تعرض لسلسلة من المتاعب المستمرة حتى وفاته سنة ١٢١٨ م فى هارتس بورج وهى قلعة تقع فى برونسفيك Brunswick Harzburg وهى ولاية صغيرة آلت اليه بحق الارث نجح فى التمسك بها • واعتلى فردريك الثانى عرش المانيا برغم انه لم يشارك فى معركة بوفين • إن فردريك الثانى

مدين بتاجه لفيليب ، وكذلك أيضا بالعربة الامبراطورية التى عليهـــا صورة العقاب وتنين ، التى كان يستخدمها أوتو الذى لاذ بالفرار • وادعى لنفسه حق استخدام لقبى ملك المانيا والامبراطور الرومانى المقدس برغم أنهما لم يكن لهما هيبتهما القديمة ابان عهد سلفه فردريك برباروسا • وبفضل انتصـــار فيليب والجيش الفرنسى فحسب آل للقبـــان الى فردريك الثانى • وبزغ فجر جديد على غرب أوربا • وحلت فرنسا محل المانيا كقوة فعالة فى غرب أوربا ، وقال المؤرخ لوتربرج Louterburg والأسى يخالجه : « ان سمعة الألمان تهاوت الى الحضيض بين الأجانب » •

٧ ـ معركة كريسى

ربما لو أن لويس التاسع كان أقل تمسكا بالتعاليم الدينية ، لما حدثت حرب المائة عام ، ولما كانت معركة كريسى Crecy . كان هنرى الثالث ملك انجلترا وصهر لويس قد حرض النبلاء المتمردين بفرنسا على خلع لويس عن العرش مرتين . ومن ثم توافرت المبررات لطرد هنرى والانجليز خارج فرنسا . (كان الانجليز يسيطرون على اقليم جاسكونى Gascony في جنوب غرب فرنسا) . وكان لويس قادرا تماما على طرد الانجليز . ولم تكن انجلترا على عهد هنرى المستقيم أخلاقيا وان كان ضعيفا ندا لفرنسا . بيد أن لويس لم تكن لديه رغبة فى محاربة المسيحيين ، هذا فضلا عن أصهاره اذ كان يرى أن على الحكام المسيحيين أن يعيشوا فى وئام ، وأن يشاركوا بمواردهم فى الصراع الذى لا نهاية له مع المسلمين فى سوريا ، (تولى لويس قيادة الحملتين الصليبيتين الأخيرتين) .

ولم يكتف لويس بالسماح للانجليز بالاحتفاظ باقليم جاسكونى فحسب ، وانما صدق على معاهدة باريس ١٢٥٩ م ، التى منحت هنرى أحقية امتلاك ذلك الاقليم بل وسلمه العديد من الأراضى المجاورة على أمل أن يقنع هنرى والانجليز . وأعلن هنرى من جانبه تخليه عن الادعاءات الانجليزية بالمطالبة بنورماندى ، وأنجو ، والأقاليم الأخرى شمال نهر اللوار ، التى كانت تحت يد جده هنرى الثانى والتى أخذها فيليب أغسطس من حنا ، والد هنرى . ونظرا لعدم وجود بارقة أمل فى استعادة تلك الأقاليم ، قدم هنرى قليلا من التنازل فى معاهدة ١٢٥٩ م عن طيب خاطر ، اذ قبل أن يفى بالتزامات التبعية الاقطاعية الى لويس بالنسبة لجاسكونى ، ومن ثم استمرت انجلترا فى ادارة شئون ذلك الجزء من فرنسا واستمر ذلك الوضع حتى اندلاع حرب المائة عام عندما وجد الفرنسيون فى القرن الرابع عشر أن الوجود الانجليزى فى جنوب غرب فرنسا لم يعد أمرا يمكن احتماله .

لم يســجل التاريخ عدوات بين شعبين مثلما حدث بين الشعب الفرنسى والانجليزى منذ سنة ١٠٦٦ م ، عندما نجح وليم دوق نورماندى فى هزيمة هارولد الأنجلو سكسونى فى هيستنجز الى أن تحالفا ســنة ١٩٠٤ نتيجة لخوفهما من المانيا ٠ وكان انتصار وليم سنة ١٠٦٦ م قد جعله ملكا على انجلترا ، ودوقا لنورماندى ، وهو الاقليم الذى ربما كان أهم أقاليم فرنسا فى ذلك الحين ٠ وكان غرب أوربا فى العصر الاقطاعى مستعدا تماما لقبول وضع يحكم فيه ملك أجنبى اقليما كبيرا فى مملكة ملك آخر ٠ بل انه أذعن بالقبول عندما حكم هنرى الثانى ملك انجلترا أقاليم ، أنجو ، وأكويتين ، وبريتانى ، وأقاليم أخرى كتابع اقطاعى للملك الفرنسى ، بل انه فى الحقيقة أدار الشئون الداخلية لأراضى فرنسية أكثر من الأراضى التى كانت تحت يد الملك الفرنسى فى أواخر القرن الثانى عشر ٠

ولم يتقبل فيليب أغسطس ذلك ، كما أن انتصـــاره على الجيش المتحالف فى بوفين ســنة ١٢١٤ م ، قدم له ما يبرر غزوه لنورماندى ، وأنجو ، وكل الأراضى التابعة للانجليز ، والواقعة شمال نهر اللوار ٠ وكان عصر الاقطاع قد اتخذ طريقه للزوال رويدا رويدا ، فى عهد فيليب أغسطس ٠ وفى أوائل القرن الرابع عشر كان قد انتهى تماما ٠ وما كان يمكن قبوله كأمر مناسب ســنة ١٠٦٦ م ، وأنه ليس مخالفــا للقواعد والأصول بشكل واضح ابان حياة هنرى الثانى ، لم يعد فى الامكان قبوله فى القرن الرابع عشر ٠ ومن ثم كانت سيطرة ملك انجلترا الأجنبى على جزء كبير من جنوب غرب فرنسا السبب الرئيسى لحرب المائة عام ٠

ان ملوكــا من طراز مختلف عن « ادوارد الثالث » ملك انجلترا وفيليب السادس ملك فرنسا ، اللذين كانا فى السلطة سنة ١٣٣٧ م ، عندما بدأت حرب المائة عام ، كان من الممكن أن يقبلوا الوضع البغيض فى اقليم جاسكونى ٠ والحقيقة أن الموقف فى جاسكونى كان سيئا ، ففى سنة ١٣٠٤ م ، كاد ادوارد الأول ، وفيليب الرابع أن يقتتلا ، اذ ان حدود اقليم جاسكونى كانت غير واضــحة ، وكذلك حقوق الاقطاعيين الصغار ، فيما يتعلق بامتيازاتهم الاقطاعية لذلك كانت الخلافات والمنازعات متكررة ، وكذلك كانت الدعاوى القضائية التى عرضها الأتباع الاقطاعيون المتضررون أمام محكمة الملك فى باريس ضد موظفى التاج البريطانى فى جاسكونى ٠

ومع ذلك لم تبدأ الحرب فى عهدى ادوارد الأول ، وفيليب الرابع ، ولا فى عهد خلفائهما المبــاشرين ، وانما قامت الحرب فى عهدى ادوارد الثالث ، « وفيليب السادس » ٠ وكانت رغبة « ادوارد الثالث » فى تحقيق الشهرة العسكرية أحد أسباب تلك الحرب ٠ حيث تشبه بعمه الأكبر

ريتشارد قلب الأسد الشـــهير • غير أن ادوارد كانت تنقصـــه شجاعة ريتشارد الشخصية ، وان كان قد شاركه فى مقدرته على قيادة الرجال فى ميدان القتال ومهارته فى فن تنظيم القوى الحربية وتحريكها للقتال • ولم يحب الرجلان شيئا أكثر من حبهما لمهاجمة عدو ، ومعهما بارونا تهما وهما واثقان من الحاق الهزيمة بذلك العدو • ونظرا لأن الحرب تمهد السبيل لأسرع طرق الشرف والمجد ، لذلك فان ادوارد لم يجد صــعوبة فى اقناع نفسه بايجاد المبررات فيما يتعلق باقليم جاسكونى •

وكان فيليب السادس ندا لادوارد فى الشـــجاعة والفروسية • (أوجد فيليب أعلى لقب يمنح فى مراتب التشريف فى فرنسا وهو وسام النجمة وأوجد ادوارد أعلى لقب يمنح فى مراتب الشرف فى انجلترا وهو الوشاح • ومع ذلك كان فيليب تنقصه مقدرة ادوارد فى التأثير على الرجال ، واستثارة هممهم كما أنه كان قليل البراعة فى وضع الخطط وادارة العمليات الحربية من ناحية ثانية • وكان فيليب مترددا ، ويسمح للآخرين بالتحكم فيه ، واذا ما فقد السيطرة على أعصابه ، كان عرضة للتصرف بتهور • على أن كليهما لم يبد اهتماما بالادارة الحكومية الدقيقة • فبالنسبة لادوارد لم تكن هذه مسئوليته القانونية ، منذ أن اكتسب البلاط أولويته بفضل المجنا كارتا التى وقعها هنرى الثانى (١١٥٤ ــ ١١٨٩م) • وكان بلاط فيليب أقل مركزية ومقيدا دائما فى عمله بوجود أربعة اقطاعات كبرى مستقلة فى جاسكونى ، وبريتانى ، وفلاندر ، وبورجوندى • وربما نجح ادوارد فى أن يكيف نفســه فيما يتعلق بحقوقه ومسئولياته فى جاسكونى • بيد أن فيليب السادس لم يكن من نوعية الملك القادر على اجبار البلاط الفرنسى على ذلك التوافق •

كانت أول بادرة للحرب فى مايو سنة ١٣٣٧ م ، عندما أمر فيليب بمصادرة جاسكونى وهى المصادرة الثالثة فى مدى أربعين عاما • مما جعل الحرب حتمية بين فيليب السادس وادوارد الثالث • ان ملوك القرن الرابع عشر أصـــبحوا أكثر مثابرة فى جهودهم للسيطرة على أتبـاعهم الاقطاعيين • وان طموح فيليب فى اجبار أتباعه الاقطاعيين فى جاسكونى على قبول قانـــون يخضعهم لسلطانه جعـــل الموقف خطـــيرا لسببين : أولهما ، أن ملك انجلترا الذى كان يحكم دوقية جاسكونى لم يكن على استعداد للاستسلام للأساليب المتنمرة التى مارسها الموظفون الفرنسيون فى جهودهم لاضعاف السلطة المتبقية لأتباع الملك الاقطاعيين دون اللجوء للعنف • وثانيهما أن جاسكونى أمدت الملك الانجليزى برأس جسر مهم فى فرنسا اذا ما رغب فى استغلاله ، ولهذا السبب فان الملك الفرنسى أصر على ضرورة أن يدرك ادوارد المعنى الحقيقى لمركزه كتابع اقطـــاعى لملك فرنسا •

وفى السنوات التى تلت تتويج فيليب سـنة ١٣٢٨ م ازدادت حساسية ادوارد بالنسبة لمركزه « كتابع » فى جاسكونى • وكانت ايزابيلا زوجة ادوارد الثانى المخلوع وعشيقها روجر مورتيمير Ragumoyrimer يحكمان انجلترا ابان تتويج فيليب ، ولذلك فان غياب التابع الاقطاعى الانجليزى ، وعدم التزامه بالتزامات التبعية الاقطاعية فى تلك المناسبة لم يخلق أى أزمة • وما أن قام ادوارد الثالث باعدام مورتيمير ، وطرد والدته الى قلعة بعيدة ، وتوليـه مسئوليـة الحكم بصفته الشخصية ، حتى ذكره القصر الفرنسى بما عليه من التزامات اقطاعية ، وأعقب ذلك بعض التردد من جانب ادوارد ، وتهديد بالمصادرة من جانب فيليب ، بيد أنه فى آخر المطاف وافق ادوارد على سداد ما عليه من التزامات اقطاعية • وعبر ادوارد القناة الانجليزية فى يوليو سـنة ١٣٢٩ م وقام بسداد الالتزامات المالية بصفة رسمية •

واذا كان ادوارد قد اعتقد أن هـذا قد أنهى الأمر ، فقد جانبه الصواب • ففى السنة التالية تسلم ادوارد أمرا سريعا وغير مهذب من البلاط الفرنسى يقطع الشك باليقين بأن الالتزامات الاقطاعية التى أقسم عليهـا فى أمين Amines لم تكن الا تعهدا بالارتبـاط الاقطاعى الذى يضمن تبعية ادوارد لسيده الاقطاعى فيليب • فاستشاط غضبا من أمر البلاط الفرنسى الذى فسره على أنه مناورة من جانب فيليب لتبرير مصادرته لاقليم جاسكونى ، بيد أن الحرب لم تبدأ • وفى النهاية أعفى فيليب ادوارد من تقديم التزامات اقطاعية أخرى ، ووافق على أنه قانع باعلان ادوارد الكتابى أن الالتزامات الاقطاعية التى قدمها فى اميان كانت فى الواقع تعهدا بالولاء نحو فيليب سيده الاقطاعى الأعلى • وعندما ذهب ادوارد الى فرنسا فى أبريل سنة ١٣٣١ م ليؤكد بنفسه ما أعلنـه كتـابة ، أظهرت الحالة السائدة بالكامل أن الملكين ، طرحا مسألة جاسكونى خلف ظهريهما ، وفى تفاهم ودى شديد ناقشا موضوع حملة صليبية مشتركة ضد المسلمين • بل انهما توصلا الى اتفاق بشأن الحملة الصليبية ، وأنهما سيركبان متن السفينة من موانى البحر المتوسط فى ربيع سنة ١٣٣٥ م بناء على ذلك الاتفاق • وربما كان الملكان جادين ، اذ كانت قرارات الحكومة فى العصور الوسطى شخصية الى حد بعيد ، وكذلك كان معظم الحمـاس للحروب الصليبية تشنجيا بيد أنه فى مدى عام تفجرت الاضطرابات على امتداد الحدود الاسكتدلندية ، ومن ثم صرف النظر كلية عن التفكير فى حملة صليبية •

ان الاضطرابات التى أثارها الاسكتلنديون أضافت مظهرا آخر لخلفية المائة عام • وكان أمرا متوقعا أن يفرض الاسكتلنديون أنفسهم على خلفية الصـورة اذ كانت العـلاقات بين انجلترا واسكتلندا متوترة • وكانت

حدودهما المشتركة مسرحا للمنازعات المتكررة • وكان ملوك انجلترا قد ادعوا حق السيادة على اسكتلندا منذ أن أسر هنرى الثالث الملك مالكولم Malcolm وأجبروه على أن يقسم يمين الولاء الاقطاعى • وفى سنة ١٢٩٠م أصر ادوارد الأول على حقه فى اختيار ملك للعرش الاسكتلندى باعتباره سيدا اقطاعيا أعلى عليهما ، وبعد أن صار الجيش الاسكتلندى لا وجود له ، أعلن موافقته على حنا بواليول John Balliol من بين الراغبين فى اعتلاء ذلك العرش • وفى سنة ١٢٩٥ م فرض ادوارد التزامات على بوليول ، اعتبرها الأخير غير مقبولة ولجأ الاسكتلنديون الى فرنسا طلبا للمساعدة والتأييد ، ونظر الاسكتلنديون والفرنسيون الى انجلترا كعدو مشترك وظل الشعبان حليفين بشكل رسمى أو غير رسمى •

وظل ادوارد ينظر بعين الحذر الى اسكتلندا • وفى الوقت الذى لم يشن فيه ادوارد هجوما مباشرا على البلاد ، الا أنه أمد ادوارد بوليول ابن حنا بوليول بالأموال والرجال فى جهوده لعزل ادوارد الثانى عن عرش اسكتلندا • وعندما علم ادوارد ملك انجلترا أن فيليب كان يقدم العون المالى الى داود ، تحرك شمالا واستولى على بيرويك Berwick • وفى الحادى عشر من يوليو سنة ١٣٣٣ م أحرز نصرا ساحقا على الاسكتلنديين فى هاليدن هيل Haliddon Hill ولو توقف ادوارد عند ذلك النصر لخفت حدة الأزمة المتفاقمة بينه وبين فيليب ، ولما انتقلت الحرب الى القارة الأوربية • بيد أن ادوارد استمر فى تقدمه داخل اسكتلندا • وفى صيف سنة ١٣٣٦ م أمر فيليب سفنه التى كانت راسية فى مارسيليا استعدادا للذهاب فى حملة صليبية ، أن تبحر الى الموانى النورمانية ، ومنها الى اسكتلندا • ودفع تصرف فيليب ادوارد الى تأجيل غزوه لاسكتلندا لأنه اقتنع أن غزوه سيكون مستحيلا طالما كانت فرنسا قادرة على التدخل • وقرر ادوارد تسوية مسألة جاسكونى بالقوة ، وفى النهاية ألزم أعضاء البرلمان سنة ١٣٣٦ م بدفع الاعانات المالية من أجل الأسطول والتحصينات على امتداد الشاطىء • فقام فيليب بدوره بارسال قوات الى حدود جاسكونى، حيث ضربت حصارا حول عدة قلاع • وأخيرا وفى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٣٣٧ م ، وبعد اتهام ادوارد بالاخلال بالتزاماته الاقطاعية لذلك الاقليم أعلن فيليب مصادرته له •

لقد عجل التدخل الفرنسى فى اسكتلندا باشتعال الحرب بين ادوارد وفيليب بسبب جاسكونى • كما أن التآمر الانجليزى فى اقليم الفلاندر أفضى الى نفس النتيجة • وكان اقليم الفلاندر اقليما كبيرا غنيا يواجه بحر الشمال ، وهو من أهم الأقاليم الصناعية فى أوربا • وفاخر ذلك الاقليم بالمدن المزدهرة مثل بروج Bruges وجينت Ghent وفى أوائل القرن

الثانی عشر بدأ ملوك فرنسا فی المطالبة بضم الأقاليم المجاورة وعمل فيليب أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٣٠ م) على ضم العديد من المناطق الجنوبية بما فيها أرتوا Artois وفيراموندوا Vermondois وبعد ذلك بقرن، وفى سنة ١٣٠٢ م حاول فيليب الخامس ، فرض سيطرته المباشرة على كل الأقاليم ، الا أن فرسانه تعرضوا لهزيمة نكراء على أيدى سكان الاقليم من المشاة فى كورتريا Courtria وخال أهل الاقليم أن تهديد فرنسا لاستقلال اقليم الفلاندر قد انتهى الى غير رجعة ولكن ظنهم تبدد سنة ١٣٢٨ م عندما حقق فيليب السادس نصرا ساحقا على الفلمنكيين فى كاسيل Cassel وهى المعركة التى محت ذكرى الهزيمة فى كورترايا ، وقضت أيضا على كثير من مظاهر الحكم الذاتى لذلك الاقليم ومكن النصر فى كاسيل ملك فرنسا من املاء ارادته فى الشئون العامة الفلمنكية عن طريق كونت الفلاندر الذى كان عليه أن يعتمد على التأييد الفرنسى لكى يحتفظ بمركزه • وتدخل الموظفون الفرنسيون على نحو منتظم فى الشئون البلدية للمدن الفلمنكية وفرضوا بالقوة استعمال العملة الملكية الفرنسية •

حظى كونت الفلاندر ببعض من التأييد فى نطاق اقليمه • فعلى سبيل المثال اعتمد التجار الأثرياء على النفوذ الملكى الفرنسى ، فى الهيمنة على الاستثمار الصناعى للاقليم برغم استياء الحرفيين والتجار فى المجتمعات الأصغر ، نظرا لأنهم يحصلون من انجلترا على معظم الصوف الخام الذى تصنعه أنوالهم • وكان من المقدر أن تضع التجارة النشطة فى الصوف والمنتجات الصوفية بين الفلاندر وانجلترا الملك الانجليزى فى الصورة • اذا رحب باقامة علاقات ودية مع بلد يقع فى الجانب الشمالى لفرنسا ، والأكثر أهمية أنه بدأ يعتمد على ضرائب الصادرات على الصوف كجزء كبير من الموارد المالية • ونظرا لأن ادوارد لم يكن يرغب فى عرقلة تدفق الموارد المالية فقد عارض جميع محاولات ملك فرنسا التى هدفت الى وضع الاقليم تحت حكمه المباشر حتى لا يصبح فيليب قادرا على تعطيل التجارة وفقا لرغبته • ونظرا لأن كونت الاقليم والتجار الأكثر ثراء ربطوا مصالحهم مع ملك فرنسا ، لذلك قدم ادوارد التشجيع الودى للحرفيين وصغار التجار •

وفى أغسطس سنة ١٣٣٦ م وفى حركة لحث الفلمنكيين على قطع علاقاتهم بفيليب والتعامل معه ، فرض ادوارد حظرا على شحنات الصوف الانجليزى الى الفلاندر • ثم أرسل ادوارد الصوف (١) الى برابانت Brabant حيث مدن أنتويرب Antwerp وبروكسيل Brusseles ومالين Malines التى كانت لديها الرغبة فى اقامة صداقة مع ادوارد مقابل الحصول على الصوف الانجليزى الذى يمكنها من اقامة صناعات المنسوجات الخاصة بها • واستعمل ادوارد المال فى ولايات الأراضى المنخفضة لكى يكسبها الى صفه ، حيث وزعه ممثلوه بسخاء على عواصمهم فى فالينسين

وبرج Berb وجولير Juliers وكلير Cleres ومارك Mark Valenciesnes وجلدرلانـد Gelder land وهيانوت Hainaut
وليمبورج Limburg وكلها انضمت الى الحلف المعادى للفرنسيين على أن أكبر كسب حققه ادوارد كان فى أغسطس سنة ١٣٣٧ م عنـدما انضم الى قوات معسكر حلفائه لويس من بافاريا Louis of Bavaria الامبراطور الرومانى المقدس ، وصهر الملكة الانجليزية • ووعد لويس هذا بتقديم الفى رجل مسلح على أن يقوم ادوارد بدفع ثلاثمائة الف فلورين Florins (*) مقابل خدماتهم •

ان الرجل الذى أثبت أنه مفيد بصفة خاصة لادوارد فى مفاوضاته مع هؤلاء الحلفاء ، هو روبرت من أرتوا Robert of Artois صهر فيليب السادس • وكان فيليب قد نفى روبرت ١٣٣٢ م بسبب أساليبه الملتوية فى حكم أرتوا • وكان أن سمح ادوارد لروبرت باللجوء الى بريطانيـا ، وهو النبيل المهم بصرف النظر عن فضائله أو نقائصـــه ، فان روبـرت هذا حث ادوارد على استمالة أصـــدقاء أكثر فى الأراضى المنخفضـة ، وأراضى الراين عن طريق الاغراء المالى لمحاربة فيليب • غير أن أنشطة روبرت لم تكن خافية ، وبخاصة بالنسبة للبابا بندكت الثانى عشر الذى عمل بكل اصرار على منع نشوب الحرب • اذ نصح البابا الملك ادوارد بطرد روبرت لمصلحة السلام ذلك لأن فيليب أعلن أنه سوف يهاجم أى بلد تقبل لجوء روبرت على أراضيها •

ومن سوء حظ ادوارد أن كلفته تلك الأحلاف الكثير من المال كمـا حذره البابا بندكت الثانى عشر وأنه ما أن نفدت أمواله حتى فقد أصدقاءه فى القارة الأوروبية • كما أن عملية انزال قوات ادوارد فى أراضى القارة الأوروبية التى خطط لها سنة ١٣٣٧ م ، اضطر الى تأجيلها بسبب نقص الموارد المالية • غير أن امكانات النجاح والتقدم بدأت تشرق عليه عنـدما قلده الامبراطور لويس شارة نائب القائد الأعلى للامبراطورية فى سبتمبر التالى • على أن المنصب منح ادوارد من الناحية النظرية على الأقل السلطة على الأمراء الذين كان يقدم اليهم المساعدات المالية • وتطلبت هذه الوظيفة اقامة سلسلة من الاحتفالات التى يســـودها المرح ، وان كانت باهظـة النفقات ، وكان على أمراء الأراضى المنخفضـة أن يقسموا فيهـا يمين الولاء الأبدى • وبعد تلك الاحتفالات وجـد ادوارد نفســه أنه فى أشد الحاجة للموارد الماليـة حتى اضطر الى رهن التــاج الرائع الذى كان قد أمر أن يتزين به عند اعتلائه للعرش كملك لانجلترا وفرنسا •

(*) الفلورين عملة منسوبة الى فلورنسا باقليم توسكانيا وكانت من الذهب وتم صكها لأول مرة فى القرن الثالث عشر الميلادى وفى سنة ١٨٤٩ م صكتها انجلترا من الفضة او النحاس المطلى بالنيكل وكانت تساوى شلنين • وتم الغاء تداولها سنة ١٩٧١ م — المترجم •

على أن مصير ادوارد اعتمد على ما حدث في اقليم الفلاندر ، وهناك كان الموقف يبدو مشجعا • وأدى توقف الأموال عن العمل في جينت وبروج والمدن الأخرى في الفلاندر بسبب نقص الصوف الانجليزى الى البطالة التى أشعلت المظاهرات ثم انتهت بقيام الثورة • واستفحل الاستياء ضد ملك فرنسا ، وضد كونت الفلاندر ، وضد التجار الأثرياء الذين أشاع رجال الملك الانجليزى أنهم كانوا مسئولين عن تدهور أحوال العمال • وفى أوائل سنة ١٣٣٨ م وضعت حركة تمرد فى جينت نهاية لسلطة كونت الفلاندر لصالح جيمس فان أرتفلد Jame Van Arteveld وهو تاجر ثرى انتخبه المواطنون قاطبة « قائدا » وانضمت المدن الأخرى الى الحركة المعادية للفرنسيين حتى وقف الجزء الأكبر من الفلاندر متحديا الكونت • وفى فبراير سنة ١٣٣٩ م هرب الكونت من البلاد بعد محاولة فاشلة لاجبار جينت وبروج على الخضوع ، ثم أعلن اقليم الفلاندر استقلاله تحت رياسة أرتفيلد Arteveld •

وتوقع ادوارد أن ينضم اقليم الفلاندر الى حلفه دون تأخير ، بيد أن أرتيفيلد اعترض على ذلك • اذ طالب أرتيفيلد باستئناف شحنات الصوف الانجليزى وهو الشىء الوحيد الذى كان كفيلا باصلاح الموقف فى الفلاندر، وبضرورة اتخاذ موقف بشأن الصوف الذى يذهب الى مدن اقليم برابانت Brabant ، واقامة صناعة منسوجات منافسة هناك • وبعد اجراء مفاوضات مستفيضة حصل ادوارد على وعد بالتحالف من الاقليم مقابل تعهده بارسال الصوف من أنتويرب Antwerp الى بروج وأن يرسل أسطولا وقوات مسلحة لمساعدة الفلمنكيين فى حالة محاولة فيليب مهاجمة الاقليم •

وقدم ادوارد وعدا ثانيا الى ارتيليد والفلمنكيين ـ وهو أنه سيتخذ لنفسه لقب ملك فرنسا ـ وبعد هزيمة الفلمنكيين فى معركة كاسيل Cassel سنة ١٣٢٨ م ، تعهد الفلمنكيون بدفع مليونى فلورين Florins وألا يعلنوا الثورة ضد السيد الاقطاعى الفرنسى الأعلى • وتم ايداع المبلغ كأمانة مع الهيئة البابوية فى آفينون Avignon على أن يصادر هذا المبلغ اذا ما تحدى الفلمنكيون ملك فرنسا • على أن أبسط وسيلة للمراوغة • قد تحدث عندما يدعى ادوارد أحقيته للتاج الفرنسى •

وكما حدث كان ادوارد راغبا تماما فى المطالبة بهذا الحق • وفى الحقيقة كان مصرا على حقوقه فى التاج الفرنسى منذ عدة سنوات • ان أساس هذا الادعاء نما نتيجة لعدم انجاب أبناء فيليب الرابع الثلاثة • وهم لويس العاشر (١٣١٤ ـ ١٣١٦ م) (٢) ، وفيليب الخامس (١٣١٦ ـ ١٣٢٢ م) ، وشارل الرابع (١٣٢٢ ـ ١٣٢٨ م) • على أن الشىء الذى جعل ظاهرة عدم الانجاب هذه تبدو غريبة بصفة خاصة ، هو

نجاح أسرة كابيه من الملوك فى انجاب البنين ، الذين شكلوا سلسلة متصلة لمدة زادت على ثلاثمائة عام ، منذ سنة ٩٨٧ م ، عندما أسس هوج كابيه Hugh Capet الأسرة ٠

وعندما مات شارل الرابع سنة ١٣٢٨ م ، لم يترك بنينا ، ولم يجد الشعب الفرنسى سوى فيليب من فلوا Philip of valois أحد أقارب شارل الرابع لكى يكون ملكا عليهم ٠ هنا ادعى ادوارد أنه أكثر أحقية بعرش فرنسا ، اذ أنه ابن شقيقة شارل الرابع ٠ بيد ان رجال القانون من الفرنسيين ، قالوا ان المرأة لا ترث منصب الملك ، وليس لها حق نقل هذا العرش لابنها ٠ وكان ادوارد فى السادسة عشرة فقط فى ذلك الحين ، وهى حقيقة لم تساعد على تقوية دعواه ٠ كما أن وجود والدته المنحرفة وروجر مورتيمور على رأس السلطة فى انجلترا ، فى ذلك الوقت كان سببا كافيا لعدم أخذ دعوى ادوارد بعين الاعتبار ٠ واحتجت ايزابيلا على اعتلاء فيليب الخامس للعرش باسم ابنها الذى من حقه اعتلاء ذلك العرش ، بيد أنه لم يهتم أحد باحتجاجها على الاطلاق ٠ وفى سنة ١٣٢٩ م ذهب ادوارد الى فرنسا ٠ وقدم فروض الولاء الاقطاعى الى فيليب السادس فى احتفال رسمى عن اقليم جاسكونى ٠

ثم أعلن ادوارد بصفة رسمية أنه الملك الشرعى على انجلترا وفرنسا ، بيد أن مشاكله المالية ظلت حادة وملحة ، كما كانت فى كل الأوقات ٠ ويمدنا التاريخ بحوادث ، وحقائق شاذة وغريبة عن افلاس وعجز ادوارد عن سداد ديونه ٠ لقد كانت حالة ادوارد المالية باعثة على اليأس لدرجة أنه تسلم فى فبراير ١٣٤٠ م انذارا من أصحاب الديون الهولنديين فى مدينة جينت بأنهم سوف يدخلون انجلترا ليجمعوا الأموال مالم يرسل اليهم زوجته الحامل ، وأطفاله كرهائن لسداد ديونه ٠ كما أن ابنه الثالث حنا ، عرففى التاريخ باسم حنا من جونت John of Gaunt لأنه ولد ابان غياب والده ٠

وعلى الرغم من أن سنة ١٣٤٠ م بدأت بهذه المذكرة الكئيبة والقابضة للصدر فان ادوارد شعر بشىء من الرضا الحقيقى فى صيف ذلك العام عندما دخلت سفنه فى معركة مع أسطول فرنسى فى ميناء سلوى Sluys وهى فى طريقها الى اقليم الفلاندر وقامت بتحطيم الأسطول الفرنسى ٠ لقد كان الأسطول الفرنسى متفوقا على الأسطول الانجليزى فى العدد ، « وكانت صواريه تشبه غابة كبرى » على حد قول المؤرخ فرواسار Froissart وفى الحقيقة كان هناك عدد كبير جدا من السفن فى مكان ضيق للغاية ٠ وكاد التعاون أن يكون منعدما بين السفن الفرنسية ، وكذلك

بين السفن الفرنسية الأخرى التى جاءت من قشتالة Castile ومن جنوا Genoa للمساعدة • ولقد زود النصر الانجليز الذين كانوا يعانون من الاحساس بالاحباط بالشعور بالابتهاج الى حد ما ، وأعطاهم الحرية فى استخدام بحر المانش ، وفقا لمشيئتهم طوال عدة سنوات تالية • وقام الانجليز بمحالة باكرة لاستثمار هذا النصر بيد أن هذه المحاولات منيت بالفشل الذريع • ان أرسل ادوارد جيشا قويا بلغ تعداده حوالى خمسة وعشرين ألف مقاتل بالاضافة الى القوات الشعبية من الفلمنكيين الى تورناى Tournai بيد أنهم وقعوا فى شرك المستنقعات • وكان ادوارد تنقصه أدوات الحصار الضرورية للاستيلاء على المدينة ، على حين ظل الجيش الفرنسى عن قرب ، ورفض دخول المعركة ، واكتفى بشن غارات متكررة على خطوط مواصلات ادوارد • وبحلول شهر سبتمبر كان الجيشان الفرنسى والانجليزى ، قد استهلكا مخزون الأعلاف ، لذلك قبلا الوساطة البابوية عن طيب خاطر ، ووافقا على عقد هدنة تستمر حتى شهر يونية التالى •

وبعد المواجهتين فى سنة ١٣٤٠ م فى سلوى ، وتورنارى ، لابد أن حلفاء انجلترا قد أدركوا عدم مقدرة ادوارد على الاستيلاء على تورناى المهمة، لذلك شهد فصل الخريف انهيارا لنظام الأحلاف الذى كلفه كثيرا فى بلاد الأراضى المنخفضة • وفى يناير سنة ١٣٤١ م الغى الامبراطور لويس تعيين ادوارد نائبا للامبراطورية ، وأعلن نهاية تحالفه • ولا شك أن المال الفرنسى لعب دوره مع افتقار ادوارد للموارد المالية فى صنع هذا التحول السيىء فى مصيره •

وفى سنة ١٣٤٢ م عاد ادوارد المثابر الى الأراضى الفرنسية بسبب أمر جعل الحظ يبتسم له • اذ مات دوق اقليم بريتانى فى أبريل سنة ١٣٤١ م • ولم يترك ابنا ، وأسوأ من ذلك طالب شخصان بأحقيتهما بحكم الدوقية • أحدهما كونت مونتفورت الذى شعر أن أمله الوحيد فى تحقيق هدفه أن يتحدى ملك فرنسا ، ويعلن تحالفه العلنى مع ادوارد • وأدت خطة حنا الى ذهاب ادوارد الى بريتانى فى نهاية سنة ١٣٤٢ م ومعه جيش بلغ تعداده حوالى اثنى عشر ألف مقاتل • وبتلك القوات وببعض الظروف المواتية استطاع ادوارد ، فى نهاية سنة ١٣٤٥ م أن يسيطر على الجزء الأكبر من بريتانى • وكان امتلاك بريتانى بالطبع أمرا قيما فى حد ذاته ، بيد أنه كان أمرا أكثر أهمية عند ادوارد حيث الموانىء البريتانية Breton التى كان فى احتياج شديد للغاية اليها متمكنه من الحصول على رأس جسر فى شمال غرب فرنسا • اذ كان اغتيال أرتيفيلد Arteveld فى أوائل ذلك العام وانهيار تحالفه مع الفلمنكيين قد حرمه من الموانى الفلمنكية •

وفى الوقت نفسه فان الهدنة المتكررة التى نظمها المبعوثون من قبل البابوية قد حولت المعارك القتالية فى بريتانى وجاسكونى الى عمليات عسكرية قليلة الأهمية نسبيا • ومن ناحية ثانية ، ان آمال البابوية فى الوساطة بشأن تسوية نهائية بين ادوارد وفيليب كان من الممكن أن تتحقق ، الا أن ادوارد لم يتخل اطلاقا عن هدفه فى تحقيق سيادة كاملة على جنوب غرب فرنسا - وفى صيف سنة ١٣٤٦ ، شعر بأن الوقت مناسب للقيام بمجهود آخر كبير فى ذلك الاتجاه • لذلك حشد جيشا فى بورتسماوث Portsmouth وربما وضع خطته الأولى على أساس ارسالهم الى جاسكونى لكى يساعد قواته ضد أتباع فيليب ، الذين كانوا يحاولون طردهم • بيد أن الرياح التى كان مقدرا لها أن تسوق السفن جنوبا ، أتت بما لا تشتهى السفن ، وساقت سفن ادوارد تجاه كورنوول Cornwall ، ويقال ان ادوارد أعلن أنه سيذهب الى أى مكان تسوقه الرياح اليه ، ابان هذه الحادثة الناتجة عن سوء الحظ • وسواء كانت هذه القصة حقيقية ، فان الرياح تغيرت تغيرا كاملا ومفاجئا الى الاتجاه المعاكس بعد فترة قصيرة ، وتحكم ادوارد فى سفنه على نحو ملائم الى شاطىء نورماندى ، وميناء لاهاى ، التى أعلن صاحبها الاقطاعى تاييده لادوارد ، بعد أن أعلن فيليب طرده • ودخل ادوارد ميناء لاهاى فى الثانى عشر من يوليو ، وخلال الأيام التالية أنزل من السفن جيشه الذى بلغ تعداده حوالى ثمانية آلاف فارس ، وعدة آلاف من المشاة •

واتضح أن التحصينات بالمنطقة كانت ضعيفة ، لذلك لم يجد صعوبة فى التقدم الى الأمام • ففى السادس والعشرين من يوليو استولى على مدينة كاين Caen الجميلة وعرضها للسلب والنهب • ولم ينتظر حتى يستولى على قلعة المدينة • ومن كاين انطلق صوب باريس بحذاء الضفة اليمنى لنهر السين • ولم يكن واضحا فى فكره أكثر من رغبته فى الحاق أكبر قدر من الدمار والخراب بالمناطق الريفية • وعندما وصل ادوارد الى المنطقة المجاورة لباريس بلغه أن فيليب أعد جيشا ضخما للتصدى له • واقتضت الحكمة أن يسارع بالعودة الى انجلترا بيد أن أسطوله كان قد عاد بالفعل • وكانت السفن قد ذهبت الى انجلترا بناء على أوامره لنقل الجرحى والغنائم التى حصل عليها فى كاين ، بيد أن السفن الباقية أعلنت التمرد ، وبدا الموقف حرجا بالنسبة الى ادوارد فهو من بلد معاد بها جيش متفوق عليه يتحرك لقتاله ، وليس لديه سفن تحت يده تمكنه من الانسحاب • فاتجه بجيشه صوب اقليم الفلاندر على أمل أن يجد حلفاء هناك أو سفنا تحمله الى بريطانيا • على أن العقبة الأولى والشديدة كانت فى نهر السين ، ذلك لأن كل الجسور المقامة عليه اما أنها كانت من قوة التحصين الى الحد الذى يصعب عليه العبور عليها أو أنها قد تم تدميرها • وطالما أنه لم يكن لديه

الوقت لشن هجوم فقد كان من حسن حظه أن وجد جسرا ضعيف التحصين عند بلده بواسى Poissy ، وفى السادس عشر من أغسطس قاد جيشه على وجه السرعة فوق هذا الجسر ، واتجه الى نهر السوم Somme ٠

وفى ذلك الحين كان فيليب وجيشه على مقربة من ادوارد بشكل خطير ، اذ كان الملك الفرنسى لديه آمال كبرى فى اللحاق بادوارد المنسحب والحاق الهزيمة به ٠ وعلى الرغم من أن ادوارد قد نجح فى عبور نهر السين ، كانت لا تزال هناك فرصة طيبة لمنعه من الحركة بين ذلك النهر ونهر السوم ٠ وكان ادوارد حريصا على ألا يقع فى كمين ، ولم يساعده الا حسن الحظ من النجاة من كارثة ٠ اذ قام أحد أهالى قرية أشوAcheux بافشاء سر مكان يبعد عشرة أميال شمال مدينة أبيفيل Abbeville حيث يمكن عبور نهر السوم سيرا على الأقدام ، ودون ما حاجة الى جسر أو قوارب عند حدوث الجزر فى مقابل مكافأة سخية ٠ ونجح ادوارد فى العبور فى الرابع والعشرين من أغسطس فى اللحظة التى كاد فيها الحرس الفرنسى المتقدم يلحق به ، كما وجد الفرنسيون أنفسهم وقد حال المد المتزايد دون تمكنهم من عبور النهر ٠ وأدرك ادوارد أن جنوده من المشاة قد وصلوا الى حد الانهاك ، ولم يعد فى مقدرتهم مواصلة السير طويلا أمام الفرسان الفرنسيين ، لذلك تفحص ما حوله بحثا عن مكان مناسب ليستريح به ٠ أما بالنسبة للمعركة التى قررت مصيره ، فقد اختار مكانا على تل صغير شرقى قرية كريسى Crecy ٠

وقبل وصف ما حدث فى كريس ، أول وأكبر معركة فى حرب المائة عام ، فمن المفيد أن نأخذ بعين الاعتبار القوة النسبية للجيشين والموارد المالية التى اعتمد عليها كل ملك ٠ وفيما يتعلق بالقوى البشرية والثروة يمكن من أول نظرة تشبيه انجلترا بقزم على وشك أن يطبق عليه عملاق ! اذ بلغ عدد سكان فرنسا حوالى ستة عشر مليونا ، منهااثنا عشر مليونا عاشوا على أراضى التاج ، وتحت الحكم المباشر لفيليب ، أما عدد سكان بريطانيا فلا يزيد عن مليونين ٠ وفاق تطور فرنسا الصناعى مثيله فى انجلترا بكثير ٠ والواقع أن تعداد سكان فرنسا ، وكذلك ثروتها جعلها أكبر دولة فى غرب أوربا دون ريب ، على حين يمكن وضع بريطانيا فى الدرجة الرابعة ٠

ومع ذلك فان تعداد السكان أو التقدم الصناعى فى العالم الوسيط للقرن الرابع عشر لم يكن لهما تأثير يدنو من التأثير الذى لهما فى الحرب الحديثة ٠ اذ كان المال وما زال العنصر الأساسى الذى لابد أن يؤخذ فى الاعتبار ٠ وبصفة خاصة كلما زاد المال عند الحاكم واستطاع أن يجند الرجال ، ويجمع المرتزقة والحلفاء ، كلما ازدادت قوة الجيش الذى يمكن

أن يتحدى به العدو • واذا ما أدخل المرء فى حساباته جهود ادوارد الاولى النشطة التى كلفته الأموال الباهظة لتكوين الصداقات ، فمن المدهش أن نعرف أنه لم يجد أحدا يقدم اليه يد المساعدة فى كريسى • أما فيليب فمن المحتمل أنه أصاب نجاحا أكثر قليلا من ادوارد فى هذه الناحية • وعلى الرغم من عدم وجود أى حليف رسمى لمساعدة فيليب ، فقد انضم اليه عدد قليل من الفرسان الراغبين فى اثبات براعتهم العسكرية وشجاعتهم القتالية من أمثال حنا من لوكسمبرج ، وملك بوهيميا الضرير ، الذى حضر المعركة ومعه حاشيته من الفرسان واستخدم الملكان الأموال لحشد المقاتلين •

وتأهب الجيشان للقتال : جيش ادوارد على شكل حملة مغيرة ضخمة أما جيش فيليب فقد احتشد ليقوم بعملية مطاردة • وزود كل جيش نفسه بالمؤن ابان تقدمه وفقا للطريقة المتعارف عليها فى ذلك الوقت ، وأعنى بذلك أنهم اعتمدوا على المناطق الريفية فى الحصول على ما يحتاجون اليه من طعام ومال • وهذه الضرورة حتمت تحديد حجم الجيوش بشكل مؤثر • أما بخصوص مقدار الأموال التى أنفقها كل من الملكين على الصدام المتوقع ، فلم يجد أى منهما تجاوبا يرقى الى ضخامة المهمة من مجلسيهما المناط اليهما مهمة التصديق على تحديد الضرائب ولقد كان الملك الانجليزى يقاتل فى معارك اعتبرها معظم الشعب الانجليزى تدور فى أراضى أجنبيـة • ولذلك لم يجد ادوارد استجابة من البرلمان • أما فرنسا فكانت مفككة وغير متحدة وبهـا النـزعة الاقليمية الأمر الذى أعاق نمو الاحساس بالروح القومية ، وهو احساس كان من الممكن أن يدفع الولايات الى استجابة كبرى عندما طالب الملك بالأموال • ان الأمر كان يتطلب سقوط بلد آخـر ، واستمرار وجود الانجليز المكروهين ، وظهور البطلة جان دارك قبل أن يأمل الملك الفرنسى فى أن تعمل مناشداته على خلق شىء يشبه الجهد الموحد ضد الأجنبى ، ومن الراجح تماما أن انجلترا البلد الأفقر أمدت ملكها بمساعدة مالية أكبر مما قدمت فرنسا لملكها •

لم يكتشف الجيش الفرنسى فى عهد فيليب السادس سنة ١٣٤٦ م عن تغير أساسى بالنسبة للجيش الفرنسى الذى حارب معركة بوفين فى عهد فيليب أغسطس • غير أن تغيرا ما حدث بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن ابان السنوات الأخيرة ، من حرب المائة عام • وما يمكن قوله عن تشكيل قوات فيليب الحقيقية فى جيشه أنها ظلت فى طبقة النبلاء الذين امتطوا صهوة الخيول والفرسان المدرعين بدروع ثقيلة الذين لازموهم • لقـد تغيرت تجهيزات وأسلحة هؤلاء المحاربين بعض الشىء منذ موقعة بوفين • اذ صارت البذلة الحربية أثقل قليلا ، وأغلى ثمنا ، كما زودت الخوذات بجزء أمامى متحرك لتغطية الوجه ، وحملت الخيول قدرا أكبر من الدروع لحمايتها • لقد أدت التكاليف المتزايدة للدروع الحربية للفرسان وخيولهم

الى انقاص عدد الفرسان الذين يحملون أسلحة ثقيلة على حين ازداد عدد أولئك الذين يرتدون ملابس وقائية أقل • وعرف هؤلاء الفرسان المسلحون بأسلحة خفيفة عادة باسم الخيالة المساعدين أو أتباع الفرسان • وربما وجدوا أنفسهم منخرطين فى جماعات أطلق عليها المهاجمون routiers تحت قيادة قادة مدربين ، باعوا خدماتهم لمن يدفع • واستخدم النبلاء الصغار والطموحون من الشباب هذا النوع من المسلحين لأنهم حققوا لهم أهدافهم بطريقة أكيدة وسريعة • وبعد كارثة بواتيه Poitiers التى حدثت بعد معركة كريسى بعشر سنوات ، عندما ترنح العرش الفرنسى على حافة الهاوية صارت لكلمة (المهاجمون) دلالة شائنة بسبب عمليات السلب والنهب التى مارسها هؤلاء الجند فى المناطق الريفية فى فرنسا •

واعتقد الانجليز والفرنسيون أن مصير الحرب يمكن أن يحدده الفرسان الذين يحملون معدات حربية ثقيلة • ومن الممكن أن يحقق أفراد من الفرسان فى كل من الجيشين تميزا ، لما يبدونه من شجاعة غير عادية ، بيد أن عدد الفرسان هو الذى يحدد فى النهاية نتيجة المعركة • ولهذا كان فيليب واثقا من النصر ، اذ كان يتمتع بعنصر التفوق فى هذا المجال • وكان ادوارد فى موقف الدفاع • ومن المحتمل أنه كان يحاول الهرب مع أن بعض العلماء قالوا له أنه متفوق عدديا ، والسبب فى ذلك افتقاره الى الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة • ومن المحتمل أن تفوق الفرنسيين فى عدد الفرسان أدى الى ثقتهم الزائدة عن الحد ، الأمر الذى ثبت أنه أتى بعواقب وخيمة عليهم ، كما فعلت الاجراءات الدفاعية التى لجأ اليها ادوارد بسبب افتقاره الى الفرسان •

وكان تحت امرة فيليب قوات من المشاه فى موقعة كريسى ، وكانوا من سكان المدن بصفة أساسية ، حيث جندهم وهو فى طريقه الى كريسى • وحمل هؤلاء الرجال الرماح فحسب • وأما دور الجنود الذين حملوا الرماح فى المعركة التالية فكان التصدى لهجوم فرسان الأعداء • ولم يتوقع فيليب ومستشاروه الاعتماد الكلى على هذا الصنف من الجنود فى القتال ، لذلك كان على الفرسان أن يكونوا أمام المشاه • وكان فيليب فى حاجة الى الرماة من أهل جنوة لاحداث توازن مع تأثير الأعداد الكبيرة من الرماة الذين أحضرهم ادوارد معه • ولم يسبق للفرنسيين أن شغلوا أنفسهم بالرماية سواء كلعبة رياضية أو كسلاح حربى • ولم يكن لهم من خيار سوى استئجار الرماة بالقوس والنشاب الأجانب • على أنهم استخدموهم فى أضيق نطاق • واذا كان هؤلاء الرجال يتقاضون أجورا عالية فضلا عن ميلهم لعمليات السلب والنهب ، اذا لم يكونوا تحت ادارة حازمة • (واستعان ادوارد ببعض الرماة من جاسكونى) •

وعلى الرغم من أن الجيش الفرنسى ظـل مؤسسـة اقطاعية بصفة أساسية منذ قرن مضى على معركة كريسى ، بقوته التى ترتكز على الفرسان ثقيلى العدة ، فان الجيش الانجليزى أجرى تعديلا أو تغيرا أو تغيرين مهمين. وكان حدوث ذلك نتيجـة للتجربة الشـاقة التى اكتسبها الانجليز فى معاركهم مع سكان مقاطعة ويلز وكذلك سكان اسكتلندة ، وليس لمجرد أى تفوق فى المهارة حققها الانجليز فى معرفتهم لفنون الحرب • ولم يكن فى استطاعة شعب ويلز أو شعب اسكتلنده الفقراء تحمل نفقـات الفرسان المسلحين بمعدات ثقيلة ، بل انه حتى لو كان فى استطاعتهم ذلك لكان من الصعب استخدامهم بسبب الطبيعة الجبليـة فى البلدين • لقد اكتشف الانجليز لأول مرة عندما محاربتهم أهالى مقاطعة ويلز مدى تأثير السهام عندما تنطلق من الأقواس الطويلة بمعرفة الرماة المتحصنين خلف الصخور • وكان ادوارد قد اعتمد على تسليح جنود المشاة بالرماح عند محاولته الأولى لغزو مقاطعة ويلز ، بيد أنه أدرك فى المحال مدى قوة الأقواس الطويلة واستخدامها • وأصدر ادوارد الأول قانون ونشستر Statute of Winchester (سنة ١٢٨٥ م) الذى ألزم به كل المـلاك الأحرار للمتلكات التى تزيد قيمتها عن أربعين شلنا أن يزود كل فرد منهم نفسه بقوس وسهم • وفى عهد ادوارد الثالث ، شكل المزارعون الأحرار من الانجليز ، طبقة صغار مالكى الأرض واستعان بهم الملك فى محاربة الانجليز • وكان لهؤلاء الرماة تأثير كبير فى الحرب فضـلا عن رخص تكاليفهم نسبيا • ولم يكن لدى الفرنسيين ما يمكن أن يقارن بهم •

وبلغ طول القوس الذى استخدمته تلك الطبقة من الفلاحين الأحرار ستة أقدام ، ومن ثم أطلق عليها القوس الطويلة • ونظرا لأنها كانت أطول من القوس التقليدية فان مداها كان أطول فضلا عن أنها كانت أكثر دقة فى اصابة الهدف • وعلى بعد مائتى ياردة استطاعت السهام أن تخترق طبقتين من القمصان المصنوعة من الجلد المغطاة برقائق معدنية التى كانت تحمى الفرسان ، برغم أن الدقة فى ذلك المدى يمكن أن تكون محدودة • على أن هذه الأقواس اذا ما تم اطلاقها على يد مجموعة كبيرة من الرماة على مجموعة من الفرسان المتقدمة ، فانها يمكن أن تقضى عليهم قضاء تاما • فحتى لو لم تحدث بعض القذائف الموت الفورى ، فانها كانت تترك الكثير من الرجال جرحى فى الوقت الذى يمكن فيه أن تسقط الغالبية العظمى على الأرض عندما تثب خيولهم التى أصابها الذعر • ويمكن أن تكون النتيجة وجود حشد كبير من الرجال والخيول ، وقد أصابتهم جميعـا حالة من الاضطراب والارتباك وضعف المعنويات •

ان طول مدى الاصابة للقوس الطويلة أعطاها ميزة مهمة على القوس والنشاب الأثقل والأصعب فى عملية الاطلاق ، وهناك ميزة أكثر أهمية

أن الفرد الخبير في الرمي بالسهام يمكن أن يطلق من ستة الى سبعة سهام في الدقيقة • لقد تعلم ادوارد كيف يستخدم هؤلاء الرماة بالسهام على الوجه الأمثل اذ وضعهم فى مقدمة جيشه حيث أمطروا الرماحين المعادين بوابل من السهام • وما أن حلت الفوضى والاضطراب بين هؤلاء الرماحين ، حتى أفسح الرماة بالسهام الطريق لفرسانهم الانجليز حيث تقدموا للهجوم • واذا شن الفرسان المعادون هجومهم دون الرماحين ، أمر ادوارد بتمركز الرامين بالسهام على ميمنة قلب الجيش وعلى ميسرته ، وعندئذ استطاعوا تسديد سهامهم القاتلة الى جناحى العدو المتقدم •

وذهبت قوة من الفرسان مع ادوارد الى كريسى على الرغم من أنها لم تكن كثيرة العدد مثل نظيرتها ، التى كانت مع فيليب ،وربما كانت الأفكار التقليدية عن الفروسية أقوى فى فرنسا عن أى بلد آخر فى غرب أوربا • لقد حدث القتال أيضا فى الأراضى الفرنسية ، أما بخصوص طبقة النبلاء الانجليزية ، فان الغالبية من أعضائها ظلت فى أرض الوطن لأن القتال دار على تربة أجنبية ، كما أنهم لن يجنوا ثمرة واحدة لجهودهم • وكان ادوارد راغبا فى بقاء معظم نبلائه بأرض الوطن ـ اذ أوضحت له التجربة أنهم طبقة من الصعب التعامل معها ـ وساعدته هذه الطبقة فى التصويت على القرار الذى مكنه من جمع الأموال الكافية لجمع جماعات من الفرسان الذين وضعهم تحت قيادة ضباطه • واستخدم ادوارد أيضا اعانات أعضاء البرلمان فى تجنيد الرامين بالسهام والرماحين • أما عن المحاربين الذين لم يشكلوا عبئا على خزانة ادوارد ، فكانوا الايرلات earis والبارونات Barons الذين كان عددهم قليلا وهم الذين وقفوا بجانب التاج ، وذهبوا للمعركة ومعهم أتباعهم من الفرسان •

ولقد وجد المؤرخون صعوبة أقل فى تحديد الأنواع المختلفة من المحاربين ونوعية الأسلحة التى استخدموها عن تحديد العدد الفعلى الذى اشترك فى المعركة • اذ ان الأرقام التى ذكرها المؤرخون المعاصرون لا يمكن الاعتماد عليها ، اذ كان هؤلاء الكتاب أكثر اهتماما باثارة اهتمام قرائهم بنفس قدر اهتمامهم بالكتابة بدقة حتى ولو كان تحت أيديهم الأدلة لذكر الأرقام الصحيحة • على أن السجلات التى يمكن الاعتماد عليها هى الوثائق الادارية القليلة الموجودة حاليا ، التى تقدم معلومات مقبولة ودقيقة عن مسألتى التجنيد والامدادات • ومع وجود ما قدمته تلك السجلات فما زال هناك تباين شاسع فيما يتعلق بالأعداد الاجمالية التى ذكرها العلماء المحدثون •

وقبل العالم لوت Lot الأعداد التى ذكرها المؤرخ الانجليزى رمزى Ramsy اذ قال ان جيش ادوارد اقترب من عشرة آلاف رجل منهم ألف ومائتا فارس ، والباقى من الرماة وحملة الرماح ، والعديد من هؤلاء كان يمتطى صهوة الخيول • ويشير العالم Delbruck الى عدد ما بين أربعة عشر ألفا وعشرين ألفا من أساس حجم الجيش الذى استخدمه ادوارد عند محاصرته لميناء كاليه Colais بعد معركة كريسى مباشرة • أما الأعداد التى ذكرها أومان Oman فكانت أقل قليلا فهو يفترض أن الجيش تكون من ألفين وأربعمائة من الفرسان ، حوالى عشرة آلاف من المشاة • واعتقد كل من ديلبروك ولوت أن الجيش الفرنسى ربما كان أقل الجيشين عددا ، ويعزو ديلبروك ثقة فيليب الى التفوق العددى الذى تميز به بالنسبة للفرسان المسلحين بأسلحة ثقيلة ، والى حقيقة أن ادوارد حاول تجنب الدخول فى معركة بكل وضوح •

وأوقف ادوارد جيشه شرقى كريسى تماما ، ولم يكن مكان التوقف على الطريق الذى توقع اجتياز الفرنسيين له عند قدومهم من أبيفيل Abbeville وانما اختار هضبة صغيرة شمال هذا الطريق وموازية له ، وحقق وجود غابة وجدول صغير بعض الحماية لميمنة جيشه • كذلك أمر ادوارد بحفر الخنادق لتحقيق حماية أكثر لذلك الجناح من جيشه ضد هجوم فرسان العدو • واستنتج ادوارد أيضا أنه اذا واصل الفرنسيون تقدمهم على الطريق ، فسيكون من الصعب على الفرسان ، مهما كانت قوة تنظيمهم اختراق صفوف الجيش اذا ما قدر لهم أن يقتربوا وصاروا جنبا الى جنب مع القوات الانجليزية • وكان أمل ادوارد فى حدوث هجوم عاجل وغير منظم على قواته ذلك لأنه شعر بأن مثل هذا النوع من الهجوم فحسب هو الذى يمكنه من الحاق الهزيمة بالعدو • واذا ما أجلت طلائع الجيش الفرنسى هجومها الى أن يتخذ كل الجيش مواقعه فى مواجهة الجيش الانجليزى فان احتمالات انتصار الانجليز سوف تتضاءل بلا ريب •

قام ادوارد بصف جنوده فى ثلاثة أقسام كل قسم يتكون من قلب من الرماحين والرماة والفرسان الذين ترجلوا عن خيولهم ويحمى كل قسم جناحين وحاجز من الرماة والسهام • وأمر ادوارد فرسانه جميعا بالترجل عن خيولهم والانضمام الى المشاة نظرا لأن قلة عددهم لاتمكنهم من العمل العسكرى كوحدة قائمة بذاتها • كما أن وجود الفرسان بين الرماحين فيه تأكيد لهؤلاء الجند المشاة أن الفرسان الراجلين الذين شاركوهم القتال لن يتمكنوا من الهروب اذا ما دارت المعركة فى غير ما يتمنى الجميع ووضع ادوارد قسمين من جيشه فى مواجهة الطريق على الجهة اليسرى

واحتفظ بالقسم الثالث بالقرب من طاحونة هوائية التى استعملها كبرج للمراقبة • وما أن اتخذ رجاله مواقعهم حتى تناولوا طعام الغذاء وانتظروا التطورات •

أما فيليب فقد قضى الليل فى أبيفيل على بعد ميلين ونصف جنوب كريسى • وفى الصباح وبعد أن سمع فيليب موسيقى القداس اجلالا واحتراما لجده الأعلى الورع لويس التاسع بدأ فى التحرك ليلاقى الانجليز • غير أن وقتا ثمينا ضاع فى البحث عن العدو • لقد كان معروفا أن ادوارد بالقرب من كريسى الا أن الطريق الذى سلكه الفرنسيون قادهم الى غرب تلك القرية • كما أدت السرعة فى تصحيح مسار الجيش الى حدوث تأخير واضطراب شديد • وبسبب الوقت الضائع فى تصحيح مسار تقدم الفرنسيين ، فانهم لم يلحقوا بالانجليز حتى وقت متأخر بعد الظهيرة ربما كان حوالى الساعة الرابعة • واقتضت الحكمة أن يسمح فيليب لرجاله الجرحى والمرهقين أن ينالوا قسطا من الراحة ، قبل الدخول فى المعركة وهو الأمر الذى حدث بناء على رأيه ورأى جهازه الاستشارى • وتم ابلاغ الكونت الينكون Alencon الذى كان يرأس القسم المتقدم بما تم الاتفاق عليه (كان الجيش الفرنسى مقسما أيضا الى ثلاثة أقسام) •

وعلى الفور جرت الأمور وفقا للأوامر • اذ أوقف الينكون وجيشه الأمامى تقدمهم بناء على الأوامر ، حيث كانوا فى ذلك الوقت جنبا الى جنب ميمنة جيش ادوارد تقريبا ، بيد أن الجنود الذين فى المؤخرة ظلوا يضغطون الى الأمام • ويبدو أنهم لم تصلهم التعليمات على الوجه الأكمل عن مسألة التوقف ، أو أن درجة عدم انضباطهم هى التى حالت دون تنفيذ الأمر • وساد الاضطراب بسبب اندفاع الجنود من الخلف الى الأمام وازدحامهم بين أولئك الذين كانوا قد توقفوا بالفعل • وربما من أجل انقاذ الموقف الذى أنذر بالتحول من سيىء الى أسوأ ، وربما بسبب تهور واندفاع فيليب الذى سيطر عليه ، أو ربما ادراكه أنه لن يستطيع أمر فرسانه بالرجوع للخلف بعد أن تحركوا فى مواجهة العدو مباشرة — وان كان التعليل ضعيفا فقد أصدر الملك الفرنسى الأوامر بالهجوم •

ويتحدث المؤرخ فرواسار Froissart عن هطول وابل شديد من الأمطار عند بداية المعركة ، ثم انقشعت السحب ، وظهرت الشمس ساطعة ، لتسلط أشعتها على أعين المهاجمين الفرنسيين مباشرة • ولم تكن المزايا التى تمتع بها الانجليز قاصرة على وجود الشمس من خلفهم ، وانما امتدت لتشمل مزايا نفسية وبدنية اذ كانوا على منطقة أعلى من المنطقة التى بها العدو ، وتمتعوا بوضوح الرؤية والمشاهدة لذلك العدو أيضا •

بدأ الرامون بالقوس والنشاب من أهالى جنوا Genoese المعركة • فبعد أن أطلقوا ثلاث صيحات عالية على أمل القاء الرغب فى قلوب الرماة من الانجليز ، أطلقوا سهامهم القصيرة • فسقط معظمها أمام الانجليز دون أن تحدث أى أذى (٣) • ويقال أن الأمطار جعلت السيور الجلدية للأقواس والنشاب رطبة وأضعفت من فعاليتها بشكل خطير • ثم اتخذ الرماة الانجليز خطوة الى الأمام ، وأطلقوا سهامهم بكميات كثيفة جعلت المؤرخ فرواسار يقول ان الأمر بدا وكأن السماء تمطر ثلجا • وعندما أدرك الرامون بالقوس والنشاب من أهالى جنوه فشل هجومهم استداروا للنجاة من سهام الانجليز المميتة • بيد أنهم وجدوا الطريق مغلقا فى وجوههم لتقدم جماعات الفرسان عند ذلك اعتقد فيليب أن الجبن أو الخيانة هى السبب الرئيسى فى حمل الرماة بالقوس والنشاب على الانسحاب • لذلك أمر فرسانه بالتقدم وأن يقتلوا أى رام بالقوس والنشاب يعترض سبيلهم ، حيث صرخ قائلا : « اقتلوا هؤلاء الأوغاد لأنهم يعترضون سبيل طريقنا دون أى سبب » •

كان هجوم الفرسان الفرنسيين الأول شديد الضراوة • ومن بين الخمس عشرة هجمة أو الست عشرة هجمة التى حدثت كان آخر الهجمات فى المساء • (اذ يقول فرواسار ان الأخيرة كانت عند صلاة المساء) واتضح أن احدى تلك الهجمات ضد ميمنة الجيش الانجليزى كانت من الشراسة الأمر الذى وجد فيه ادوارد ضرورة لارسال ثلاثين فارسا لتخفيف الضغط الشديد الذى تعرض له أمير ويلز قائد ذلك الجناح • غير أن الأمور سارت بصفة عامة فى غير صالح الفرنسيين • اذ تعرضوا للسهام الطويلة التى أشاعت الموت والهلاك ثم كانت هجمات الرماحين الانجليز الذين استخدموا مديهم الطويلة والحادة فى بقر بطون الخيول ، وقطع رقاب الفرنسيين الذين وقعوا تحت أيديهم • وقال فرواسار أن ادوارد نفسه كان غاضبا بسبب الحماس المجرد من الرحمة الذى أبداه الرماحون الانجليز • وكتب فرواسار قائلا : « من بين الانجليز يوجد بعض الأوغاد الذين ساروا على الأقدام ومعهم مدى طويلة وقاموا بذبح وقتل الكثير من الرجال الذين كانوا مطروحين على أرض المعركة الأمر الذى أثار استياء الايرلات ، والبارونات ، والفرسان ، وأتباع الفرسان بما فيهم ملك انجلترا ، لأنه كان يفضل أسرهم » • ان الكونت القتيل لايفيد ادوارد بأى شيء ، وانما الفدية الكبيرة التى يحصل عليها من عشرين كونتا مقابل اطلاق سراحهم ربما يمكن أن تغطى نفقات الحرب !

ويصف المؤرخ الفرنسى بيروى Perroy المعركة على أنها انتهت بنصر الانجليز بيد أنها لم تحقق الا القليل من الفخر والشرف • اذ كتب

يقول : « في الحقيقة ان ادوارد مدين بانتصاره الى احساسه بالنقص بقلة عدد قواته ، وهو الأمر الذى يبدو شاذا . اذ ان مواجهته للعدو فى العراء ، ومحاولته اجراء قتال متلاحم بين الفرسان وأعنى بذلك شن حرب وفقا للقواعد التى يحترمها شخصيا ، ويرغب أتبـاعه الاقطاعيون فى مشاهدتهـا ، كان من الممكن أن تكون حمـاقة لاتغتفر ، فكان عليـه أن يلجأ الى خدع دون اعداد مسبق لها وربما يكون قد شعر ببعض الخجل فى أعماق قلبه من جرائها .. فالأسوار الخشبية والشجيرات الصغيرة ، أخفت المشاة الذين لم يكن لهم نصيب فى الاحترام . وفى بداية الأمر صدرت الأوامر للرماة من أهالى منطقة ويلز بأن ينقضـوا على الخيول والفرسان الذين يقاتلون دون خيولهم بأقصى درجات السرعة بل ان قليلا من الموانع التى لاتستخدم سوى فى أعمال الحصـار استخدمها ادوارد لاشـاعة الذعر فى الوقت المناسب . وعنـدما بدأ القتال ذبح ايرل ساليسبيورى الجنود المشاة الذين أرسلتهم المدن العديدة والذين وصلوا متأخرين وأبادهم عن بكرة أبيهم .

لقد كانت خسائر الفرنسيين فادحة للغاية . وللدلالة على شـدة ضراوة المعركة وبشاعة الكارثة التى منيت بها فرنسا وجود قائمة طويلة للنبلاء الكبـار الذين لقوا حتفهم بهـا . ومن بين هؤلاء دوق اللورين Torraine ، والينكون Alencon وكونتـات الفلاندر Flanders وأوكسير Auxerre وهـاركور Harcourt وسانسـير Sancerre وبلوا Blois وجراندبر Grandpre ، وسـالم Salm وبلامونت Blamont وفورين Forez وملك بوهيميا Bohemai الغرير . ويقال ان حوالى ألف وخمسمائة فارس وأتباعهم ماتوا ذبحا . وأصيب فيليب فى هذه المعـركة بجرح فى رقبته من سهم ، كما نفق جواده . ولم يكن هناك افتقار الى البطولة من جانب الفرنسيين . وكانت الخسائر الانجليزية طفيفة .. وبالطبع لم تكن هناك خسائر بين النبلاء الانجليز الكبار اذ أن معظمهم ظل فى انجلترا .

ومن بين الأسباب المهمة التى ساهمت فى انتصـار الانجليز كان الموقع الدفاعى الذى اختاره ادوارد والذى اسـتطاع الاحتفاظ به طوال القتـال . وكان قد انتصر على لاسكتلنديين فى معـركة هاليدون هل Holidon Hill فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٣٣٣ م ، عندما أمر جيشه من الرماة والفرسان بالنزول من فوق خيولهم فى موقع دفاعى قوى مشابه للمكان الذى حدثت به معركة كريسى . وأنه لعمـل يدل على ذكائه ، اذ أنه كان قادرا على أن يقود جيشه فى معركة دفاعية بحته . بل انه بعد المعركة أعطى أوامر مشددة بعدم تعقب الفارين . اذ لو أن

جماعة من الخيالة الانجليز انطلقوا لجمع الغنائم مثلا فلربما وجدوا أنفسهم تحت رحمة الفرسان الفرنسيين الذين اشتركوا فى المعركة أو لم يشتركوا فيهـا • وأن عدم مقـدرة الفرسان الفرنسيين على اختراق موقع ادوارد الدفاعى يمكن أن ينسب الى تقاعس الرماة فى أداء مهمتهم ، ثم فى عدم توافر النظام من جانب الفرسان الفرنسيين • اذ كان عليهم الا يشتبكوا مع العدو الا بعد أن يصلوا الى موقع فى مواجهة الجيش الفرنسى ، وعندما يكونون قادرين على الهجوم على امتداد الجيش •

ومن المرجح أن دور الرمـاة بالأقواس الطويلة من الانجليز كان حاسما • اذ ان اصابة فيليب المؤسفة ــ الجرح الذى كان برقبته وجواده الذى نفق ــ كان من صنع الرماة بالسهام • وبرغم ذلك فان هذه النقطة جديرة بالتفكير مليا ، وأعنى أن المتخصصين المعاصرين فى الشئون الحربية لم يدركوا أن القوس الطويل لعب دوره دون منازع • وفى معركة كريسى كان ادوارد على استعداد أن يستبدل الرامين بالسهام التابعين له بعـدد مساو من الفرسان ، وعلى امتداد حرب المائة عام ، فبرغم استمرار الانجليز فى استخدام الرامين بالسهام فى معاركهم فانهم وكذلك الفرنسيين كانوا مقتنعين بأن الفارس المثقل بالأسلحة والدروع يشكل القوة الضاربة فى ذلك العصر دون منازع •

ولابد أن ادوارد كان مندهشا لسهولة انتصاره مع عظم أهميته • وعلى ما يبدو أنه لم يكن يعتزم سـوى القيام بغارة تدميرية فى الأراضى الفرنسية ، ونظرا لاقتراب فصل الصيف من الانتهاء ، فان ادوارد لم يكن لديه تفكير فى استثمار انتصاره • وفى هذا المقام أبدى ادوارد حكمة وبعد نظره اذ ظلت فرنسا محتفظة بكل قوتها ، وفى استطاعتها حشد جيش فرنسى جديد فى مثل حجم الجيش الذى منى بالهزيمـة ، وربمـا تعلم الفرنسيون من الأخطاء التى ارتكبوها فى موقعة كريسى •

ولم يكن لدى ادوارد رغبة سوى فى العودة الى انجلترا • ومع ذلك فقد كان فى حاجة الى ميناء لركوب متن السفن ، وميناء آخر ليقوم بعمل رأس جسر للحملات الحربية فى المستقبل الى القارة الأوروبيـة • لذلك تحرك جيشه الى كاليه Calais فى اقليم بولونيـا Boulogne الذى يتاخم اقليم الفلاندر الى الجنوب • وكان ميناء كاليه أفضل الموانى على امتداد كل شـواطىء البحر فيما بين اقليمى الفلاندر وبريتـانى Brittany كما أنها مدينة يصعب الاستيلاء عليها • اذ ان الخنادق العميقة والسور المزدوج ــ كل ذلك جعلها منيعة وفى مأمن من هجـوم مباشر • وأدرك ادوارد أن عليه أن يعـرض كاليـه الى المجاعة حتى الاستسلام ، ولهذا السبب أحاط تلك المدينة بسد ليقطع عنهـا المواد

التموينية ، هذا في الوقت الذى قامت فيه سفنه باعتراض سبيل كل الاتصالات البحرية اليها عن طريق البحر • وعلى ذلك قام جيشه الذى زاد تعداده عن خمسة عشر ألف مقاتل ، بمحاصرة المدينة طوال فصلى الشتاء والربيع • كما استطاع فيليب حشد جيش فى يوليو التالى وتحدى ادوارد فى الخروج من خلف استحكاماته التى بناها على وجه السرعة من الأشجار والأحجار والملاط ومواد البناء الأخرى والدخول فى معركة • بيد أن ادوارد رفض ذلك • اذ كان ادوارد يدرك أن الوقت فى صالحه ، وبالفعل كان كذلك ثم استسلمت كاليه فى الرابع من أغسطس سنة ١٣٤٧ م • • ثم ترك ادوارد حامية فى المدينة ، ورجع الى انجلترا فى أكتوبر •

وماذا يعنى انتصار ادوارد المبين فى كريسي بالنسبة لانجلترا وفرنسا على وجه التحديد ؟ ان أهم النتائج الفورية لانتصار ادوارد هو احتلال كاليه ، اذ ثبت أن له أهمية بارزة • فطوال المدة التى سيطر فيها الانجليز على هذه الميناء (حتى سنة ١٥٥٨ م) ، ظلوا فى مأمن من أى غزو فرنسى • وأمدت كاليه الانجليز برأس جسر عبر البوغاز من دوفر Dover وفاقت كلا من اقليمى فلاندر وجاسكونى البعيدين ، وابان الفترة التى عرفت بحرب الوردتين (١٤٥٥ ــ ١٤٨٥ م) والتى تلت حرب المائة عام (١٣٤٦ ــ ١٤٤٦ م) كان لامتلاك ادوارد لكاليه الفضل فى تحقيق أعظم انتصار على سكان لانكستر •

ان كريسى تمثل الانتصار الأول والأكبر الذى حققته انجلترا على القارة الأوربية باعتبارها دولة « من أمة واحدة » • وبعد كريسى كان الفرنسيون ، والجرمان ودول القارة الأوربية الآخرون ، أقل تحمسا لطرد الانجليز على اعتبار أن ذلك أمر لا أهمية له • وفى بداية حرب المائة عام كانت انجلترا مقتنعة بالاحتفاظ باقليم جاسكونى كاقطاعية تابعة للتاج الفرنسى مع توقف جهود الموظفين الفرنسيين ، واحكام السلطة الانجليزية فى ذلك الاقليم • وبعد كريسى رأى الانجليز أن من حقهم الاحتفاظ بجاسكونى باعتبارها ملكا لهم ، وكذلك الأجزاء الفرنسية الأخرى التى كسبوها بالحرب • وباختصار فان انتصار ادوارد فى كريسى أكد استمرار الصراع المعروف باسم حرب المائة عام • اذ تبع ذلك الانتصار انتصار آخر فى بواتيه Poitiers سنة ١٣٥٦ م ، مما جعل الانجليز مقتنعين أنه برغم النقص الملحوظ فى تعداد سكانهم وفى مواردهم ، فانهم كانوا قادرين تماما على السيطرة على قدر من مساحة فرنسا يعادل الذى سيطر عليه الفرنسيون أنفسهم •

٨ ـ معركة انقره

اسمه تيمور ... ولد فى قرية الأمير ايلجار Ilgar فى بلاد كيش Gesh وهى احدى مدن بلاد شرق بحر قزوين ، على بعد يومين من سمرقند .. وكان (تيمور) ووالده من الرعاة .. ويقول البعض ان والده كان حدادا فقيرا ، بيد أن تيمور كان مفرطا فى الذكاء وقوى البنية . ودفعه الفقر الى مزاولة قطع الطرق ، وأصيب بجرح أثناء هذه العمليات أدى الى حدوث عاهة . ففى احدى الليالى « دخل حائط من حوائط سجستان قد أوى اليه بعض رعاة الضأن ، فاحتمل منها رأسا وأدبر ، فشعر به الراعى وأبصر ، فاتبعه للحين ، وضربه بسهمين ، أصاب بأحدهما فخذه ، وبالآخر كتفه » .. وبذلك أضيفت عمليتى التشويه والعاهة الى فقره ، وميله الشديد لالحاق الأذى بالآخرين ، وحقده الشديد ، حيث انطلق يعيث الفساد ضد كل العباد رواه (١) .

هذا ما رواه ابن عربشاه عن تيمور . وكان ابن عرب شـــاه قد انتقل بالقوة الى سمرقند ومعه والدته واخوته ، مع آلاف آخـــرين من التعساء ، عندما سقطت دمشق فى يدى تيمور سنة ١٤٠١ م . وفى ذلك الحين جعل تيمور من مدينة سمرقند أكبر وأجمل وأهم مركز تجارى فى أواسط آسيا . وعلى الرغم من أن ابن عرب شاه وصل الى سمرقند كأحد الأسرى فان الحظ تبسم له اذ تلقى تعليمه فى سـمرقند ، وسافر كثيرا وعمل مستشارا للسلطان أحمد جلال يار فى بغداد . واذا كان عرب شاه احتفظ منذ صباه بأى احساس بالمرارة تجاه تيمور لتحويله أسرته الى عبيد ، فان هذا الاحساس تفاقم سنة ١٤٠١ م عندما استولى تيمور على بغداد ، وأجبر جلال يار على الهروب الى بايزيد ، سلطان الأتراك العثمانيين طلبا للحماية . ولقد خاض تيمور معركة أنقرة ضد بايزيد .

ويبدو أن عربشاه ليس مصدرا ملائما للمعلومات عن حياة تيمور ، ومع ذلك قبل العلماء الكثير من تحليلاته باعتبارها صحيحة بصفة عامة . ويعتقد ابن عرب شاه أن تيمور ينتمى الى أصول متواضعة ، ومن المحتمل

أنه ينتمي الى الرعاة ، وأنه ولد سنة ١٣٣٦ م بالقرب من كيش (شهر زاب الحديثة) التى تبعد خمسين ميلا جنوب سمرقند ، فى اقليم شرق بحر قزوين ، وتحول الى قاطع طريق فى شبابه وفى مكان ما. ابان حياة العنف أصيب بجروح نتج عنها اصابته بالشلل فى ذراعه الأيمن وساقه اليمنى . ولابد أنه أصيب بتلك الجروح من أحد الرعاة فى ثورة غضب ويقول المؤرخ العربى الشهير ابن خلدون ، الذى زار تيمور فى معسكره خارج دمشق ، ان تيمور اعترف له بذلك . وبسبب عاهته أطلق عليه تيمور الأعرج (من الاسم الفارسى تيمورلنك) وقد تأكد ذلك سنة ١٩١٤ م عندما نبش قبره فى سمرقند . وكما ذكر عربشاه ، انطلق تيمور يعيث فى الأرض فسادا . وهو قول صحيح . اذ عرض شعوبا كثيرة للذبح والتقتيل وأحدث خرابا كثيرا ابان بناء امبراطوريته مثل سلفه المغولى جنكيزخان (٣) .

لايعرف الغربيون الكثير عن البلد الذى ولد به تيمور . وكان الاسكندر الأكبر قد خاطر بالذهاب الى ذلك الاقليم غير المعلوم سنة ٣٢٩ ق.م ، قبل الاتجاه جنوبا صوب الهند . ومنذ القرن الثانى عشر بدأت البعثات التبشيرية النسطورية ترفع الستار التى حجبت تلك الأراضى عن أوربا . وكان جنكيزخان أشهر قادة المغول والشخص الوحيد الذى أجبر العالم المسيحى على الاهتمام اذ شملت الامبراطورية التى أقامها والتى عمل أبناؤه وأحفاده على زيادة رقعتها بلاد الصين ووسط آسيا وبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين وجزءا من بولندا والمجر والجزء الأكبر من روسيا . ولكن الامبراطورية المغولية ظلت محتفظة بكل قوتها لفترة قصيرة من الزمن فحسب وأخذت فى التدهور منذ نهاية القرن الثالث عشر ولم يقدر البقاء الا لدولة مغولية واحدة . وكان هناك تقليد ينص على أن يمارس رؤساء القبائل المحليون سلطتهم ، وفقا للسلطة العليا الممنوحة لهم باعتبارهم من سلالة جنكيزخان . ولم يكن مسموحا الا لسلالة جنكيزخان بأن تحمل لقب خان . ومن المحتمل أن الأمراء المحليين الذين انتشروا حول العالم المغولى حكموا قبائلهم ، وحاربوا جيرانهم كممثلين عن الخان وان ظلوا فى عزلة عنه نسبيا .

تلك كانت الحالة فى شرق بحر قزوين ، وعندما ولد تيمور الذى تنحدر أسرته التركية من سلالة المغول . وظل تيمور دائما يبدى تبجيلا لذكرى جنكيزخان . ومنذ الصغر كان تيمور مولعا بحياة الجندية حيث كانت الفرصة متاحة هناك فى أرض غير مستقرة وغنية وخاصة شرق بحر قزوين . وكانت هناك مدن مزدهرة مثل سمرقند ، وبخارى اللتين عملتا على زيادة أهمية البلاد واجتازت القوافل المحملة بالبضائع طريق الحرير

القديم بين غرب آسيا والصين بصفة مستمرة • وبمرور الوقت انضم تيمور الى جيش الأمير وفاز بالحظوة عنده الى حد أنه تزوج من حفيدته • وشهدت السنوات التاليـة تعاونا بينـه وبين صهره حسين ، فى بسط نفوذهم على اقليم شرق بحر قزوين • وتلت ذلك خطوة مهمـة فى حياة تيمور عندما قتل صهره وتزوج من زوجته التى كانت احدى قريبـات جنكيزخان ـ وهو الرابط الوحيد الذى تمسك به تيمور فى انضمامه الى أسرة الخان الشهيرة ـ وفى سـنة ١٣٧٠ م انتخبـه الأمراء وريثـا لشغاطاى (الابن الثـانى لجنكيزخان) وحاكما على اقليـم شرق بحـر قزوين •

وقضى تيمور السنوات التالية فى تدعيم سيطرته على اقليم شرق بحر قزوين ومد نفوذه على خانات تركستان وخورستان • وشكل معظم هذا الاقليم الامبراطورية التى تركها جنكيزخان الى ابنه الثانى شغاطاى الذى اعتبر تيمور نفسه وريثا له • وكان موقع هذه الامبراطورية جنوب بحيرتى أرال وبلخ تقريبا • وما أن نجح تيمور فى اخضاع هذه الأراضى الشاسعة حتى وقع فى أفدح الأخطاء فى حيـاته ، وفقـا لما قاله أرنولد توينبى Arnold Toynbee (٤) • فبدلا من تكريس جهوده لاعادة انشاء الامبراطورية الأوربيـة الآسـيوية التى أقامها جنكيزخان وفرض السلام على القبائل الرحل المختلفة التى عاشـت على الترحـل فى هذا الاقليم الشاسع فانه وجه كل اهتماماته الى الغرب والجنوب وروسـيا والقوقاز وايران والهند بل وسوريا حتى أضاع وقته فى الحملات الحربية المدمرة والمثيرة للذعر ، وضم الأراضى وهو الأمر الذى ذهب أدراج الرياح فى لحظة وفاته تقريبا •

قاد تيمور جيشه شمال بحر آرال لكي يجبر أتراك كازاخستان على الخضوع لحكمه • وبتحركه الى هذه المنطقة دخل فى صراع مع خـانات القبائل الذهبية والقبائل البيضاء ، الذين امتد نفوذهم غربا الى روسيا وما خلفها • وكانت القبيلة البيضاء القبيلة الأولى التى التقى بها تيمور لقربها منه ، ووجد تيمور الفرصة للتدخل عندما هرب اليه توختاميش أحد الأمراء من الطبقة الحاكمة طالبا حق اللجوء • وأمده تيمور بالجيوش لعدة سنوات لمحاربة خان القبيلة البيضاء • وبعد عدة محاولات غير موفقة فقد فيها تيمور ثلاثة جيوش استطاع توختاميش هزيمة الخان وأعلن نفسه حاكما على القبيلة البيضاء (١٣٧٨ م) • وبعد ذلك بسنوات ثلاث هزم توختاميش خان القبيلة الذهبية ، واستولى على موسكو بالخيانة ، وأعلن نفسه خانا على كل القبيلتين الذهبية والبيضاء •

غير أن نجاح توختاميش جعله ينسى ولى نعمته وسيده دفعته طموحاته فى اقامة امبراطورية أكبر الى الدخول فى مفاوضات مع سلطان مصر من أجل اقامة تحالف ضد تيمور • وعلى الفور دخل تيمور فى حرب ضد توختاميش بسبب الخلاف حول حدود اقليم خوزستان وشرق القوقاز فى بداية الأمر ثم بسبب بحر قزوين نفسها • ودفعت مغامرة توختاميش الجريئة به الى بخارى ، بيد أنه وجد المدينة قوية التحصين لدرجة أنه وجد استحالة الاستيلاء عليها • ودخل الرجلان فى معارك مريرة ، غير أنها لم تكن حاسمة • وكان آخرها فى أبريل ١٣٩٥ م فى القوقاز • وانتصر تيمور على جيش خصمه وقضى عليه •

وفى ذلك الحين تحرك تيمور صوب روسيا للاستيلاء على موسكو • وبعد التخلص من توختاميش كان دوق موسكو هو أقوى رجل فى روسيا وكان قد مد نفوذه على الامارات المجاورة له وعلى نوفجورد Novgord الى الشمال • وعند اقتراب تيمور من مدينة موسكو استعدت المدينة على قدم وساق للدفاع عن نفسها بل وأرسلت الى الكاتدرائية فى فلاديمير Vladimir فى طلب أيقونه سيدتنا (مريم ابنة عمران) (*) للحصول على بركة السماء ومساعدتها • وربما من قبيل المصادفة أن انسحب تيمور بجيشه عن مدينة موسكو وعاد ثانية الى مدينة سمرقند فى اليوم نفسه الذى وصلت فيه الأيقونة • ورغم ذلك فقد ترك تيمور الانطباع بأنه استولى على مدينة موسكو وغزا روسيا • ولقد قبل العديد من العلماء المحدثين هذه المعلومة من الناحية النظرية • ومن المحتمل أنه كان فى مقدرته الاستيلاء على موسكو ، ولكن بعد أن يكون ضرب حصارا طويلا حولها وتكبد خسائر جسيمة • ومن الواضح أنه وضع فى اعتباره شجاعة المحاربين من الروس وحلفائهم ومقدرتهم القتالية • ولاشك أنه علم أن توختاميش لم يتمكن من الاستيلاء على تلك المدينة من قبل الا بالخيانة •

على أية حال ، عاد تيمور الى شرق بحر قزوين حيث مارس عمليات السلب والنهب ، وهو فى طريقه وقام بهدم كل مراكز التجارة الكبرى فى جنوب روسيا مثل سارای Sarax وآزوف Azov وتانا Tana واستراخان Astrakhan وسواها جميعا بسطح الأرض • وكان تخريب مدينة سارای شديدا لدرجة أنه لم يبق سوى الأنقاض • وأصيبت خاقانية القبيلة الذهبية بضربة اقتصادية مميتة كنتيجة لحملة تيمور فى روسيا • اذ ان الطرق التجارية التى كانت من قبل تمر ببحر قزوين الى الصين والهند تحولت فى ذلك الحين جنوبا

(*) ما بين قوسين من عند المترجم •

عبر شرق بحر قزوين • ولم تسترد القبيلة الذهبية مركزها المهيمن مرة ثانية أبدا وتدهورت تدريجيا نتيجة لما فعله تيمور المفزع •

ان حمـــلات تيمور ضـــــد توختاميش قد أفضت الى تحوله الى فاتح عالمي وكتب ادجـــار آلن بو Edgar Allan Pow أن تيمور قال متأملا : « انى ســـــاكن كوخ ، ولكن عرش نصـف العـــالم تحت سيطرتي » (٥) • وبحلول سنة ١٣٩٥ م قضى تيمور على توختاميش وفتح أفغانستان ومولستان ـ ويضم هذا الاقليم الشاسع بلاد الجاتي Jats (شعب هندى أوربى يقيم فى البنجاب بالهند) (*) ويمتد جنوب بحيرة بلغ الى حدود الصين وخورستان وجورجيا ، والعـــراق • وكان قد توجه الى العراق سنة ١٣٩٣ م • وعند اقتراب تيمور من العراق هرب أحمد جلال يار سلطان العراق الى برقوق سلطان مصر طلبا للحماية دون أن يبدى أى مقاومة لتيموز • وعندما أرسل تيمور السفارات الى القاهرة طالبا تسليم أحمد جلال يار اليه • لم يكتف برقوق برفض تسليمه أحمد جلال يار وانما أعدم أحد أعضاء وفد تيمور • واستمر برقوق فى تحديه لتيمور الى أن توصل الى نوع من التفاهم والاتفاق مع بايزيد السلطان التركى ، من أجل اقامة جبهة موحدة ضد تيمور • ومن الواضح أن العلاقات ظلت قائمة بين مصر والعثمانيين الأتراك غير أن دورهم جاء فيما بعد •

وفى ربيع سنة ١٣٩٨ م لم يقد تيمور جيشـــه لمحاربة العثمانيين الأتراك أو سلطان مصر عدوه الرئيسى ، وانما صوب الهند • وطالما أن الهند لم تكن تشكل خطرا على امبراطوريته ، فان التفسير الوحيد لذهابه اليها هو كميات الغنائم الهائلة التى توقعها تيمور وجيشـــه هناك • ولسنوات كثيرة قام أمراء المغول بغارات على شمال الهند • وعلى الرغم من أن هذا الاقليم كان به الكثير من المدن الغنية هنا وهناك ، فانه افتقر الى الوحدة السياسية • وهذه المنطقة وما بها من مناخ دافىء ووديان مورقة جعلها موضـــع اغـــراء بصفة خاصة الى تيمور والمغول • وفى شهر أغسطس وصل تيمور الى كابول فى أفغانستان حيث وردت الوفود التى أرسلها حكام الولايات المحيطية بها يعلنون ولاءهم واستسلامهم بعد أن أصيبوا بحالة من القلق • وفى شهر سبتمبر وصـــل تيمور الى نهـر الهندوس Indus River • وفى شهر ديسمبر ضرب الحصار حول مدينة دلهى الكبيرة • ثم قام بذبح أكثر من مائة ألف من الأسرى الذكور الذين جمعهم ، وهو فى طريقه الى الجنوب خشية أن تصدر منهم متاعب ابان حصار دلهى •

(*) ما بين قوسين من عند المترجم •

كان من الممكن أن يستولى تيمور على مدينـــة دلهى دون صعوبة كبيرة ، الا أن حاكمها الضعيف ســـهل عليه الأمر ، اذ خرج بجيشه خارج أسوار المدينة ، والتقى مع تيمور . أما تيمور الذى كان على علم بأن جيشه سيلتقى بالفيلة ، أشـعل النيران فى حزم الحشـــائش الجافة ، والأعلاف التى كانت على ظهور الجمال والجاموس ودفع بها جميعا تجاه الفيلة ، التى لاذت بالفرار مذعورة . وهكذا تم الاستيلاء على مدينة دلهى وهى المدينة الرئيسة ، فى شمال غرب الهند بطريقة أسهل كثيرا مما كان متوقعا . ومن المحتمل أنها كانت أكبر مخزن للغنائم التى لم يحصل عليها المغول من قبل فى أى وقت ، « ان الثروة التى جمعتها أجيال من السلاطين اختفت فى أيام قلائل فى أيدى التتار » (٦) . وتعرضت دلهى نفســـها لعمليات سلب ونهب مجردة من كل رحمة لمدة ثلاثة أيام ، وبعدها صدر تحذير لكل من يجرؤ على تحدى ارادة تيمور . وبلغت كميات جماجم القتلى ارتفاع الأبراج .

وفى مايو ١٣٩٩ م عاد تيمور من الهند الى سمرقند . وكان قد بلغ الثالثة والستين من العمر . ووضـــع تيمور فى اعتبـــاره ، مسألة كبر سنه ، واصابته بعاهة فى ساقه فرضت عليه أن ينتقل فى محفة من حين الى آخر واصابته كذلك عدة أمراض وضايقته لذلك كله توقع المرء أن يبقى تيمور فى عاصمته الجميلة . بيد أن تيمور كان بدويا عنيدا وعنيفا ولم تعجبه حياة المدن على الاطلاق بما فيها ســـمرقند عاصمته . ومازال هناك امبراطوريتان لابد من قهرهما ، مصر والأتراك العثمانيون . ونظرا لأن الأسرتين الحاكمتين فى كل من الامبراطورتين انحـــدرتا مـــن نفس السلالة التى انحدر منها مقاتليه فان هاتين الامبراطوريتين عرضتاه الى أخطر اختبار اجتازه طوال حياته .

وفى ذلك الحين كشف تيمور عن نفسه بأنه مجرد من الرحمة ، ولا يدانيه فى ذلك الا قلة فى التاريخ . اذ لم يكن يســـمح لأى شىء أن يعترض سبيله من أجل تحقيق طموحاته ، حتى لو كان صهره حسين الذى بفضل مساعدته تمـكن من الفوز بالسيطرة على شرق بحـــر قزوين . اذ لم يكد حسين يحقق هدف تيمور حتى سارع تيمور بعزله . وعمل تيمور على تنمية سلوك التجرد من الرحمة عند رجاله . اذ بعد أن جمع الصناع المهرة والعلمـــاء والفتيـــات ومن شابههم من البشر « النافعين » ، فصلهم عن باقى سكان أى مدينة تقع فى أيدى رجاله ، وأرسل كل هؤلاء الى سمرقند ، أما ما بقى من سكان تلك المدينة ، فقد ذبحهم الجنود اذ ان كل هؤلاء لم يكن لهم قيمة تزيد على قيمة الدجـــاج عندهم . ونظرا لأن مدن الأعداء ليس لها فائدة لتيمور ورجاله من البدو فان القليل منها ترك

دون الاصابة بأذى • ويذكرنا هذا بالرأى القاسى لتاكيتوس Tacitus المؤرخ القديم فى كتابه اجريكولا Agricola فى القسم المتعلق بغزو روما لبريطانيا ، « انهم أحدثوا الدمار والخراب ويطلقون عليه السلام » (٧) •

ان تجرد تيمور من الرحمة كان أحد الأسلحة التى استخدمها ضد أعدائه • وكان يجبر أهالى المدن التى يرغب فى امتلاكها بالابلاغ عن كل ما فى حوزة هؤلاء الذين قاوموا قواته _ فقام بهدم المدن وتسويتها بالأرض وذبح الأهالى وحول بعضهم الى عبيد ودفن الآلاف أحياء فضلا عن اقامة أهرامات من جماجم قتلاه • لذلك استسلمت مدينتا حماه وحمص دون مقاومة • وكان تيمور متعجلا فى الاستيلاء على دمشق فى ذلك الحين ، هذا فى الوقت الذى تحرك فيه جيش من مصر لذلك لم يتحمل تأخر الحصار • وتعرضت دمشق الى السلب والنهب والتدمير بالرغم من أن المدينة استسلمت • اذ ان تيمور قد أشار بتدمير المدينة منذ البداية • ذلك لأن اهتمامه الأول كان منصبا على الاحتفاظ بسعادة محاربيه ، ولا شيء يجعلهم أكثر سعادة من السلب والنهب ، وجمع الغنائم ، حيث عودهم تيمور على السماح لهم بذلك عن طواعية بعد احتلال أى مدينة •

على أن تاريخ السلب والنهب والقتل يشير الى تفسير حالات تيمور المستمرة • اذ ان الأمر الوحيد الذى جعل رجاله يشعرون بالرضى هو جعلهم فى حالة تأهب واتاحة الفرصة لهم للاستيلاء على المدن وجمع الغنائم • فلم تكد تنتهى حملة عسكرية بالنصر وجمع الغنائم والاسلاب والقتل حتى تتلوها حملة أخرى بعد وقت قصير • وعندما يضع المرء فى اعتباره حقيقة أنه برغم اقتراب تيمور المصاب بعاهة فى ساقه من سن السبعين • وكان يعد لمهاجمة الصين للمرء أن يستنتج أنه اما قد أصبح عبدا لطموحاته التى لا حد لها فى أن يحكم العالم أو أن ذلك بناء على رغبة جيشه فى السلب والنهب • ولو أنه حاول وضع نهاية لحملاته العسكرية لافلت منه زمام السيطرة على جيشه •

كان ولاء تيمور الظاهرى للاسلام يثير الدهشة وبخاصة أنه كان رجلا فى غاية القسوة ومجردا من أى مبادىء • فقبل كل معركة كان يسجد كما يفعل المسلمون تماما ، وبعد النصر كان يتضرع لله شكرا على تحقيق النصر • وكان يزور المساجد القريبة منه ابان حملاته العسكرية ، ويبرر حملاته العسكرية بأنها ضد الكفرة والنصارى والمسلمين الذين لا يتبعون التعاليم الحنيفة للاسلام • ومع ذلك فان هذا كان من قبيل الخداع والرياء اذ لابد أنه كان يأمل من صلاته ودعائه الى الله أن يمد جنوده بنصر من عنده باعتبارهم يؤمنون بالدين

الذى تظاهر بالايمان به • على أن العلماء المتعاقبين أيدوا رأى « ادوارد جيبون » مؤرخ أواخر القرن الثامن عشر فيما يتعلق بمصداقية عقيدة تيمور أنها كانت ، « احتراما مبنيا على الايمان بالخزعبلات القائمة على أقوال العرافين النبوءات ، وأقوال القديسين والمنجمين ، وأنهـا كانت وحدها المحركة لسياسته » (٨) •

وبالاضافة الى اشاعة الذعر والتحدث باسم الدين استعمل سلاح التجسس على العدو كوسيلة لكسب المعارك • اذ كان جهاز التجسس الذى احتفظ به مزودا بالرجال القادرين على التحدث بلغات الشعوب المختلفة الذين سيحاربهم • فعلى سبيل المثال تفرض عليهم الضرورة أن يتظاهروا بأنهم يهود ويتحدثون عن التلمود • كمـا كانت تمر الشهور التى يجمع فيها الجواسيس المعلومات قبل أن يتحرك تيمور للقاء العدو • ووفقا لما ذكره عرب شاه فان هؤلاء الرجال كانوا يعرضون عليه حوادث وأخبار البلاد البعيدة ويصفون له الأمور التى لها أهمية وشهرة ويعرفونه أوزان السلع وأسعارها ويحددون له مراكز البريد والمدن وخرائط الطرق السهلة والوعرة والمنازل وأماكن الاقامة والمسافات طويلها وقصيرها والممرات الضيقة والمساحات الشاسعة والحدود ، وتحديد المسافات شرقا وغربا ، وأسماء المدن والقرى ، والفنادق والمنازل والخانات ، والعشائر وشعب كل مكان وقادتهم ، وأمرائهم ، وعلية القوم والشخصيات البارزة والنبلاء ، والأغنياء ، والفقراء ، والاسم ، والكنية ، واللقب ، وأسرة كل فرد والحرفة التى يمارسانها ، والأدوات التى يستخدمونهـا وبهـذه الطريقـة يبـدى اهتمامه بكل هذه المعلومات ، وبفضل بعد نظره اسـتطاع اخضـاع كل الممالك الى سلطانه (٩) • وبفضل احتفاظه بهذه المعلومات لم يكن تيمور قادرا على تحريك قواته بسرعة غير عادية فحسب ، وانما كان قادرا على التحديد المسبق ، قبل ضرب الحصار على أى مدينة ، لنوعية الثروة التى يتوقع الحصول عليها ونوعية الفنانين الذين يحتاج اليهم فى سمرقند •

واحتفظ جيش تيمور بنفس خصائص ونظم جيش سلفه جنكيز خان بصفة أساسـية اذ كان هذا الجيش بدويا فى أغلب الأحوال ، وتركزت قوته فى الفرسـان الذين يستخدمون السـهام ، والذين تمرسـوا على المتطلبات الجسمانية لركوب الخيل لمسافات طويلة فى أقصر وقت ممكن ، وتحدى أشد الظروف قسوة • وتمرن هؤلاء الرجال منذ طفولتهم ، على ممارسة مهارتين برعوا فيهما عندما صاروا محاربين ، وأعنى بهما ركوب الخيل والرمى بالسهام • ويقال ان صيد الحيوان كانت الرياضة الوحيدة التى مارسها هؤلاء البدو لأنهم استطاعوا ركوب الخيل واستخدام نبالهم • وبسبب قدرتهـم على الحركة بسرعة ، وعلى التحمل غالبـا ما كانوا

يركبون خيولهم على ضوء القمر أو بمساعدة المشاعل الكبيرة ـ فان جنود تيمور كثيرا ما انقضوا على جيش العدو ومدنه قبل أن يتوقع ذلك العدو بكثير • بل ان الجواد المغولى كان قويا كراكبه ، ويستطيع المرء التعرف على الطرق التى سلكها جيش تيمور من خلال الهياكل العظمية للخيول التى نفقت ابان ركوبها •

واستبقى تيمور النظام العشرى الذى استخدمه جنكيزخان فيما يتعلق بالناحية الادارية • اذ قسم رجاله الى مجموعات من عشرة رجال ، ومائة رجل ، وألف رجل ، وعشرة آلاف رجل ، وجعل لكل مجموعة قائد خاص بها • وكان لكل رجل مكانه المحدد ، الذى لم يكن فى استطاعته مغادرته مهما كانت الظروف • وحمل الفارس الرامى بالسهام سيفا ذا حد واحد وطرفه معقوف وحاد ، وقاسا وكنانة للسهام وترسا • ووضع الفارس على رأسه خوزة مدببة ، وارتدى قميصا به دروع ، وترك شعره فى شكل ضفيره صغيرة تتدلى من مؤخرة الرأس • ولحماية دابته ، وضع حول صدرها وكتفيها بعض وسائل الحماية • وكانت هناك دابة احتياطية لكل فارس لمواصلة العمل اذا ما احتاج اليها • ولجأ تيمور الى استخدام جنود المشاة ، وهو الأمر الذى لم يلجأ اليه جنكيزخان ، على الرغم من أنهم مارسوا فى العادة أعمالا حربية غير القتال المباشر • اذ قام هؤلاء المشاة بالعمل على اجتياز دفاعات العدو المحيطة بمعسكره سرا ، وحفر الأنفاق تحت مواقعه ، وتشغيل وحراسة آلات الحصار ، وتشغيل الآلات القاذفة للهب أو الزيت الملتهب ، والسلالم المصنوعة من الحبال ، والأخشاب الخاصة بعمل السقالات ، والأدوات والوسائل الحربية • ونظرا لأن تيمور لم يبد على الاطلاق أنه افتقر الى معدات الحصار عندما كان يصل الى مدينة معادية ، فان تعداد الرجال المكلفين بتلك الأدوار المساعدة ربما كان يضاهى تعداد المقاتلين أنفسهم • واستخدم تيمور البارود ، فى نسف الأسوار لا كسلاح نارى يستخدم فى البنادق •

وأما أعداء تيمور ، تركيا ومصر ، فقد قرر تيمور أن يقهر مصر أولا ويخضعها لارادته • ومر هذا البلد العريق بفترات عظمة وتدهور ، وفى عهد تيمور كان فى حالة ازدهار تحت حكم السلطان المملوكى • ان المماليك الأول قدموا الى مصر كرقيق وكانوا من الأتراك والجراكسة ، الذين جلبوا من روسيا ، والقوقاز ، ووسط آسيا لتدعيم الجيش المصرى • وليكونوا حرسا شخصيا للسلطان • وفى سنة ١٢٥٠ م حل المماليك مكان الأسرة الأيوبية المتدهورة ، تحت حكم سلطانة من بينهم • وبعد ذلك بوقت قليل قضوا على جيش مغولى ، على بعد حوالى ثلاثين ميلا شمال بيت المقدس (سنة ١٢٦٠ م) • ثم اقتلعوا جذور الامارات الصليبية الباقية فى

سوريا • وعلى الرغم من أن العهد المملوكي فقد كثيرا من نشاطه وحيويته التي ظهرت في بداية عهده ، فان السلطان برقوق استطاع أن يتحدى تيمور بالقدر نفسه الذى سلكه أسلافه ضد الغزاة المغول منذ قرن ونصف من الزمان •

وكان من حسن حظ تيمور ، في صيف ١٤٠٠ م ، عندما بدأ السير غربا في حملة للاستيلاء على سوريا ، ان برقوق كان قد فارق الحياة • اذ مات في العام السابق وترك عرشا مترنحا لابنه الصغير فرج • ونتيجة للصراع على خلافة السلطنة في مصر ، كان فرج موفقا في الاحتفاظ بعرشه ، اذا تجاوزنا عن ذكر الهزيمة على يد تيمور الذى لا يقهر • على أية حال ، لم يكن تيمور منتظرا وفاة برقوق لحسم المسألة مع عدو أعد العدة لدحره • وكان برقوق متهما بقتل أحد مندوبيه • واذا كانت هناك ذريعة لمهاجمة مصر ، فقد استطاع أن يجد مبررا في رفض فرج الاعتراف بسيادته ، واعادة الفارين الذين هربوا من بلاط تيمور •

وكما حدث ، كانت تركيا وليست مصر هي التى عانت أولا من هجوم تيمور في صيف ١٤٠٠ م • وكان بايزيد قد اجتاح الامارات في شرق الأناضول التى كانت تحت قيادة تيمور ، بما فيها مدينة سيفاس Sivas على نهر هاليز Halys River • ولا ريب أن تيمور وضع في اعتباره خطورة التحرك جنوبا تجاه سوريا قبل الاستيلاء أولا على سيفاس ، والقضاء على خط الدفاع البارز ، الذى بطريقة أو بأخرى يمكن أن يهدد مؤخرة جيشه ، اذا ما قرر بايزيد أن يأخذ على عاتقه القيام بعمل هجومي من تلقاء ذاته •

وشهد أوائل شهر أغسطس وجود تيمور وجيشه أمام أسوار مدينة سيفاس • غير أن استحكامات المدينة كانت من المناعة الى حد أنها صمدت لمدة شهر تقريبا ، اذ نجح المدافعون عن المدينة في التصدى للهجمات المتكررة ، التى قام بها رجال تيمور والخراب الذى أحدثته النيران ، وآلات القذف بالأحجار (المنجانيق) (*) • على أن الأمر الذى شكل خطورة شديدة في النهاية كان العمل البطيء ، وان كان عملا شاقا قام به آلاف من المدربين على اجتياز الأسوار بحفر الخنادق من تحت أسوار المدينة ، وكان معظمهم من العبيد • وعندما سقطت المدينة في نهاية الأمر تم جمع الأطفال معا في مكان واحد ، وداستهم حوافر خيول الفرسان المغول • وقام رجال تيمور بدفن المدافعين الأرمن أحياء ، وحملوا معهم آلافا من الفتيات للانضمام الى حريم المغول • أما من بقى من الرجال

(*) ما بين قوسين من عند المترجم •

والنساء فقد تم ذبحهم ، باستثناء المسلمين الذين استطاعوا فدية أنفسهم ٠

عند ظهور تيمور ، ذهب سلطان بغداد الى بايزيد طلبا للنجاة ، بيد أن تيمور لم يتجه صوب الامبراطورية العثمانية ٠ اذ قرر أن يتعامل مع بايزيد فيما بعد أن يحسم الأمر مع مصر فى الجنوب ٠ وكانت حلب هدفه الأول ، فهى ثانى المدن السورية بعد دمشق فى الحجم والرفاهية والازدهار ٠ غير أن تيمور الشديد الحذر أبطأ من تقدمه عندما اقترب من المدينة لمعرفته بتجمع جيش كبير للقائه ، ويضم متطوعين بعضهم من أقصى الجنوب قرب بيت المقدس ٠ وربما فسر المدافعون عن حلب بطء تقدم تيمور على أنه ضعف ٠ لذلك قرروا لقاء تيمور خارج المدينة ، مما عجل بالقضاء عليهم ٠ وأباح تيمور لرجاله سلب ونهب المدينة لمدة ثلاثة أيام وبعدها ذبح سكانها وقام بهدمها ٠

ان المصير المرعب الذى انتهت اليه مدينة حلب دفع مدينة حماة على الاستسلام فورا ثم تبعتها كل من حمص وبعلبك ، وفى أوائل سنة ١٤٠١ م كان تيمور على مقربة من دمشق ، ووضع تيمور خطة للقضاء على تلك المدينة المهمة نظرا لأن حجمها الكبير وثروتها يمكنان سلطان مصر من الحصول على قاعدة ممتازة يستطيع منها قيادة الحملات الحربية شمالا ضد امراطوريته ٠ على أن تيمور سارع فى استغلال الوقت نظرا لأن الاضطراب والخلافات بين سلطات المدينة ــ السوريون والمصريون ــ ساعدت على جعل مهمته أكثر سهولة ٠ وجاء فرج من مصر ومعه جيش ، بيد أنه فعل ذلك وهو يعانى من قدر هائل من الهواجس والشكوك لأنه يخشى الهزيمة على يد تيمور التى قد تكلفه ضياع عرشه المترنح ٠ وما أن وصل فرج الى دمشق وتناوش مع جيش تيمور حتى سارع بالعودة الى القاهرة عند سماعه أن العديد من الأمراء قد عادوا ثانية الى القاهرة دون اذنه ٠

وأغلقت دمشق أبوابها واستعدت لمواجهة هجوم تيمور ، فى الوقت الذى استمرت فيه المفاوضات مع القائد المغولى ، الذى أقام معسكره خارج أسوار المدينة مباشرة ٠ وأفضل المصادر التى أمدتنا بما حدث هو المؤرخ العربى الشهير « ابن خلدون » ، الذى ذهب الى دمشق مع السلطان فرج ، وظل بالمدينة ٠ ويبدو أن تيمور عبر عن رغبته لمشاهدة العالم ، وعلى ذلك نزل ابن خلدون ، اليه بواسطة حبل متدل من فوق سور المدينة ، ذلك لأن المجموعة التى رفضت مناقشة شروط تيمور كانت قد أغلقت أبوابها ٠ ووفقا لشهادة ابن خلدون فانه تباحث مع تيمور لمدة خمسة وثلاثين يوما ، وانشغلا فى مناقشات علمية تتعلق بمجموعة مختلفة

من الموضوعات • وطلب تيمور من ابن خلدون أن يعد له دراسة جغرافية عن المغرب ، اقليم شمال افريقيا غرب مصر تقريبا ، على أن يذكر لـه الجبال ، والأنهار ، والمدن •

كانت الفدية الأولى التى وافق تيمور على قبولها ثمنا لحرية المدينة مليونا من الدنانير • وعندما قدم اليه قادة المدينة هذا المبلغ ، طالب بعشرة ملايين من الدنانير ، ثم أصر على أن تقدم اليه ثروة كل التجار والأثرياء الذين هربوا من المدينة ، وكذلك كل الدواب والأسلحة • وبعد أن تأكد تيمور من عدم مقدرة المدينة على الدفاع عن نفسها ، اتهم السكان بأنهم خارجون على تعـاليم الاسلام الحنيف ، وأذن لمحاربيه بممارسـة عمليات السلب والنهب وجمع الغنائم ، وسواء بفعل فاعل أو مصادفة ، اشتعلت النيران بالمدينة وتحولت فى وقت قصـير الى رمـاد مصـحوب بالدخان • ومن بين المنشآت الشهيرة مسجدها الكبير الذى ضم آلافا من الذين احتموا به • لقد ماتوا بعد أن انهار عليهم سقف المسجد • وباستثناء العمال المهرة والحرفيين ، قام تيمور بذبح أو تحويل باقى سكان المدينة الى رقيق •

وبعد سقوط دمشق ، أرسل تيمور قوة للاستيلاء على أنطاكية ، فى الوقت الذى قاد فيه معظم جيشه الى سيفاس • وربما كانت لديه النية للهجوم المباشر على بايزيد ، بيد أنه نظرا لعدم مقدرة جيشه على احتلال بغداد ، فانه قرر المسير اليها بنفسه • واستغرق حصار بغداد ستـة أسابيع ، قبل الاستيلاء على المدينة • وكان قد مر حوالى قرن ونصـف قرن تقريبا عندما استولى هولاكو ، حفيد جنكيز خان على تلك المدينـة وخربها (سنة ١٢٥٨ م) • أما على عهد تيمـور فقد عانت من عمليات سلب ونهب أكثر ضراوة بكثير عما حدث فى عهد هولاكو • وباستثناء عدد قليل من المبانى الأثرية القديمـة ، فان كل ما بقى عندما هاجـم تيمور والمغول بغداد كان حوالى واحد وعشرين كوما عاليـا من رءوس تسـعين ألفا من سكان المدينة الذين ذبحوهم • وفى ذلك الحين أصبح تيمور مستعدا لاكراه عدوه على الدفاع عن نفسه ، وأن يضعه فى موقف يستحيل الفرار منه ، ذلك العدو وهو أشد الأعداء خطوره ، انه بايزيد سلطان الأتراك العثمانيين •

كان للأتراك العثمانيين معرفة تامة بالمغول ، ففى الحقيقة ، كان من جراء هجوم المغول عليهم أن اضطروا الى الاتجاه غربا من بلاد تركستان • وفى أوائل القرن الرابع عشر ، شقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى ، تحت قيادة قائدهم عثمان الذى حملت قبيلتهم اسمه ، وأقاموا امارة خاصة بهم فى الجزء الشمالى الغربى من شـبه الجزيرة (بيثينيا Bithynia) •

واستطاع أورخان بن عثمان مد نفوذ الحكم العثمانى على الجزء الأكبر من آسيا الصغرى بضم ما بقى من ممتلكات الأتراك السلاجقة · وكان هؤلاء السلاجقة قد انتقلوا الى تلك المنطقة منذ ثلاثة قرون قبل العثمانيين ، فى القرن الحادى عشر ، وشيدوا امبراطورية قوية لهم ، بلغت أوج قوتها عندما ضمت سوريا وآسيا الصغرى ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين · وتنتهى تقاليد السلاجقة والأتراك العثمانيين الى أصول قبيلة الغز نفسها ·

وفى سنة ١٣٤٥ م اتخذ أورخان خطوة حاسمة أدت الى امتداد حدود الامبراطورية العثمانية الى أوربا عندما تزوج من ابنة حنا الخامس كانتاكوزينوس Cantacuzenus المطالب بالعرش البيزنطى فى القسطنطينية · واستولت قواته ، التى أرسلها الى أوربا لمساعدة صهره ، بمساعدة قوات أخرى سنة ١٣٥٤ م ، على برزخ جاليبولى · وفى سنة ١٣٦١ م استولى على أدريانوبل Adrianople عاصمة اقليم تراقيا ، التى ظلت منذ ذلك الحين عاصمة تركيا الأوربية الى أن استولى الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٠٣ م · وفى سنة ١٣٨٧ م استولى الأتراك على مدينة سالونيكا Salonika ذات الميناء المهم · وقدر للأتراك البقاء فى أوربا ·

ان الذى سهل نجاح الأتراك الباكر هو وجود حالة من التفكك السياسى فى اقليم البلقان · على أن هناك عوامل عديدة أدت الى هذا التفكك وساعدت على تفاقمه ، وأحد هذه العوامل يمكن تسميته بالآمال القومية لعديد من شعوب ذلك الاقليم ، للتطلع لاقامة امبراطوريات صغيرة خاصة بهم · فالبغار ، والبوسنة ، والصرب ، والمجر ، والولش ، كلهم جميعا كانت لهم طموحات فى حكم أنفسهم بأنفسهم ، داخل حدود مشتركة عادة مع جيرانهم · وانقسم السكان أيضا بالمنطقة بالنسبة لولائهم الدينى ، فالكثير منهم كانوا من المسيحيين اللاتينيين ، وغالبيتهم كانوا من اليونانيين الأرثوذكس · ولم يحمل أى فريق منهم مشاعر الحب نحو الفريق الآخر ·

أما الامبراطورية البيزنطية ، التى كانت في وقت ما تمارس سلطة فعالة على الجزء الأكبر من الاقليم ، فكانت أضعف المجموعات فى ذلك الحين · اذ أنها لم تسترد نشاطها على الاطلاق منذ سنة ١٢٠٤ م عندما اقتحم الصليبيون (الحملة الصليبية الرابعة) ، ووضعوا حدا لوجودها · وفى سنة ١٢٦١ م قامت حركة انتعاش الامبراطورية ، بيد أنها كانت طفيفة ولم تكن سوى تذكرة للعالم بالعظمة السابقة لمدينة القسطنطينية · اذ أن الخلافات بين الأسر الحاكمة جعلتها فى حالة من الضعف على الرغم من تعرض وجودها للخطر على يد الصرب من الغرب والأتراك العثمانيين من الشرق · وفى ذلك الحين نجح البنادقة وأهل جنوة فى تحويل اتجاه معظم الأعمال التجارية الى صالحهم ·

ويرجع الفضل الى مراد الأول (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩ م) ، الذى بنى الدولة العثمانية على قاعـدة صلبة ومنها استطاعت فرض سـيطرتها على البلقان وآسيا الصغرى • وفى سنة ١٣٨٧ م ، وبمساعدة المحاربين من الولايات المسيحية التابعة له فى البلقان ، استطاع مراد اضعاف امارة كارامان Karaman التى كانت أقوى الامارات فى آسيا الصغرى والتى لم تكن تحت سيطرته • وباخضاع امارة كارامان ، دانت كل آسيا الصغرى لسلطة مراد فيما عدا مدينة سيفاس التى استطاع حاكمها الاعتماد على المغول فى الحصول على بلغاريا والبوسنة • وفى يونية ١٣٨٩ م ، وفى معركة كوسوفو Kossovo قوى مراد الأول دعائم حكمه على كل المنطقة عندما قضى على جيش متحالف من شعوب البلغار والولش Wallachians والبوسنة ، والصرب •

ان النصر الباهر الثمن الذى أحرزه الأتراك فى كوسوفو ، كان بداية لفترة من الهيمنة التركية قدر لها البقاء لمدة أربعة قرون • وقبيل المعركة اغتال وطنى من الصرب مراد الأول ، ولذلك كانت كوسـوفو بداية أيضا لعهد بايزيد خلفا لشقيقه ، حيث عرف بايزيد فى التاريخ باسم «الصاعقة» نظرا لسرعته وشدة بطشه بالأعداء • وفى سنة ١٣٩٠ م ضم بايزيد شقيقة حاكم الصرب الى حريمه • وربما كانت هذه الخطوة أهم الخطوات التى اتخذها ، لأنها أتاحت له مساعدة الفرسان الذين يحملون دروعا ثقيلة ، وأسلحة كثيرة من أهالى الصرب • واستغرق الأمر عدة سنوات لاخضاع أمراء آسيا الصغرى ، الذين أعلنوا الثورة عند اشاعة نبأ مقتل مراد ، وأخـيرا خضعوا لسيطرة الأتراك • وبحلول سنة ١٣٩٣ م عندما انتهى بايزيد من اخضاع آسيا الصغرى ، نجح أيضا فى القضاء على الثوار البلغار وحرمهم من الحكم الذاتى • بل ان بايزيد أجبر الامبراطور البيزنطى على هدم التحصينات الجديدة التى أقامها حول مدينة القسطنطينية •

ان ازدياد القوة التركية وتقدمها تجاه الدانوب فى ذلك الحين أثار اهتماما عاما فى غرب أوربا • على أن أكثر الذين انزعجوا لذلك التوسع التركى كان سيجيزموند Sigismund ملك المجر ، الذى تقع مملكته فى طريق التوسع التركى • وعلى الرغم من أن سيجيزموند حقق بعض المكاسب الطفيفة ابان مقاومته للأتراك ، فانه أدرك مدى التهديد الخطير الذى فرضه الأتراك عليه وعلى مملكته • كما اهتم الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى اهتماما شديدا (١٣٩١ ـ ١٤٢٥ م) ، اذ وجد المسلمين وقد طوقوا عاصمته ذاتها ، كما اهتم أيضا البابا بونيفيس التاسع Boniface IX الذى وجد أن المد الاسلامى يبتلع أراضى مسيحية جديدة عاما بعد عام • واستجابة الى نداءات بونيفيس ، ومانويل ، وسيجزموند تجمع جيش من أكبر الجيوش الصليبية التى احتشدت فى بلاد كثيرة من غرب أوربا ،

وانضم فرسان من انجلترا ، وفرنسا ، وايطاليا ، وبولندا ، وبوهيميا ، والمانيا الى أهالى المجر تحت قيادة سيجزموند ، الذى كان فى انتظارهم فى مدينة بودا Buda ولوحظ عدم وجود مقاتلين من المسيحيين من امارات البلقان رغم أنهم اشتركوا فى المعركة التالية فى نيقوبوليس Nicopolis تحت أعلام بايزيد •

ان مسألة تعداد القوات الصليبية التى تجمعت عند بودا فرضت نفسها كمشكلة عادية عند دراسة مصادر التاريخ الوسيط • ان مدى عدم الاهتمام بمثل تلك المصادر يظهر فى أحدها الذى قال ان عدد الجيش المسيحى بلغ مائة ألف مقاتل ، وأن خسائر هذا الجيش بلغت مائتى ألف ، بيد أن الكتاب المحدثين يقدرون تعداد الجيش الصليبى بحوالى مائة ألف مقاتل • انهم قبلوا الأعداد التى ذكرها المؤرخون ، ولم لا ؟ لقد ثبت أن معركة نيقوبوليس لها أهمية كبرى• أما المؤرخ ديلبروك Delbruck فقد خفض عدد كل الجيش الصليبى الى ما بين تسعة آلاف وعشرة آلاف مقاتل ، اشترك منهم فى القتال سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل • وعلى الرغم من أنهم جميعا كانوا من الفرسان المدرعين ، فلم يرد ذكر شىء عن الجنود المشاة ، وانضم اليها القوارب التى بها أهالى البندقية وجنود للمساعدة فى القتال بعد تحركها من البحر الأسود وأبحرت فى نهر الدانوب •

وعندما علم بايزيد بوجود الجيش الصليبى فى بودا ، فك الحصار عن القسطنطينية ، وبدأ استعداداته للقاء الجيش المسيحى • ومنذ اللحظة الأولى لم يكن بايزيد متلهفا على لقاء العدو • اذ كان راغبا فى اتاحة الفرصة للصليبيين للتقدم فى عمق بلاده • وبعد أسبوعين من اعداد جيشه للحرب تحرك بأقصى سرعة لدرجة أنه قضى على القوات الاستطلاعية التى أرسلها الصليبيون لجمع المعلومات • وبذلك أدهش الجيش الصليبى ، الذى كان ضاربا حصارا حول مدينة نيقوبوليس •

كانت مدينة نيقوبوليس القلعة التركية الرئيسية على نهر الدانوب• ونظرا لافتقار الصليبيين الى أدوات الحصار ، فانهم تمركزوا حول المدينة على أمل اجبارها على الاستسلام جوعا • وقبل أن يدرك المسيحيون ما قد حدث اتخذ بايزيد موقفا دفاعيا على بعد حوالى خمسة أميال جنوب نيقوبوليس على تحد (سهل واسع مرتفع) (*) عرضه حوالى نصف ميل وتحميه من الجانبين وديان صغيرة ضيقة وشديدة الانحدار • وأصبح على الصليبيين مهاجمته من أسفل الوادى •

وعلى الرغم من ذلك لم يزعج هذا التطور كثيرا من الصليبيين ولا سيما

(*) ما بين قوسين من عند المترجم •

الفرنسيين . اذ كانت لديهم ثقة لا حد لها في ابادة الرعاع الذين لا يعرفون شيئا عن النظام . وتوقع الفرنسيون كذلك المقدرة على التصدى لهم . وذكر المؤرخ المعاصر فرواسار Froissart « لقد تحركوا لالحاق الهزيمة بكل الأتراك والتقدم صوب الامبراطورية الفارسية ونظرا لتفوق العدو عليهم فى تخطيطه الجيد ، الأمر الذى ألحق بطلائعهم الهزيمة، وباحتلاله موقعا دفاعيا قويا ، فانهم اختلفوا فيما بينهم بشأن من ينال شرف شن الهجوم الأول على المسلمين والحاق هزيمة منكرة بهم » .

على أن سيجزموند لم يشاركهم تلك الثقة . اذ الواقع أن الافراط فى الثقة عند حلفائه سببت له وللمجريين التابعه له ألما نفسيا مبرحا . فقد تعلم المجريون من التجربة شراسة المحاربين الأتراك ، وكانوا على علم أن هؤلاء الأتراك بسطوا سيطرتهم على شعوب البلقان ليس بمحض الصدفة ، وانما بالجهد ، والحملات المتواصلة ضد جنود كانوا من أشد جنود العالم بأسا . وحاول سيجزموند كثيرا بأن يكون هو وأتباعه من شعب المجر أول من يتصدى للعدو ، ذاكرا أنه سبق له الدخول فى معارك مع هؤلاء الأعداء ، بالاضافة الى أن جيشه المجرى كان يضم فرسانا يستخدمون سهاما مثل السهام التى يستخدمها الجيش التركى . بيد أن الفرنسيين أصروا على أن يكونوا أول من يقوم بشن الهجوم العسكرى ولسوء حظهم ، فعلوا ما أرادوا .

وهناك العديد من أوجه التشابه بين المعركة التى دارت رحاها فى نيقوبوليس بين الصليبيين والأتراك وبين تلك التى دارت فى كريسى Crecy بين الانجليز والفرنسيين . وأكثر أوجه هذا التشابه أن المنتصرين فى كل من المعركتين احتلوا مواقع دفاعية قوية مما أجبر العدو على الاقتراب من أراضى أكثر انخفاضا . وعلاوة على ذلك ، فان الفرنسيين ، فى موقعة كريسى لم يشنوا هجومهم فى شكل تكتل منظم ، وانما على شكل هجمات متقطعة وعلى موجات ، وهو ما فعله الصليبيون فى موقعة نيقوبوليس . وثالث وجه للتشابه ، وهو أن المنتصرين فى الحالتين كانوا متفوقين قليلا من ناحية أعداد القوات .

وتقابل الباحث المشكلة نفسها فى تحديد حجم الجيش التركى فى موقعة نيقوبوليس كما هو الحال بالنسبة للجيش المسيحيى . اذ قدمت المصادر المسيحية المعاصرة للقارىء أعدادا مبالغا فيها ، ولا شك أنها حاولت تبرير الهزيمة المنكرة التى منى بها الجيش الصليبى بطريقة ملطفة . وبالنظر الى الاستراتيجية التى اتبعها الصليبيون ، أو بالأصح نقاط الضعف فيها ، فلا يبقى ضرورة الى ذكر التفوق العددى للأتراك لتفسير انتصارهم . ان الاشارة الى أن عدد الجيش التركى كان حوالى أربعمائة ألف مقاتل

كما ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أمر غير مقبول تماما ، وكذلك أيضا أنه كان مائة ألف مقاتل هو أمر غير واقعى وهو الذى افترضه العديد من العلماء المحدثين .. ويميل المؤرخ الحديث ديلبروك Delbruck أن يكون حكما حذرا فى استخدامه الاحصاءات التى قدمها المؤرخون فى العصور الوسطى ، قام بتخفيض أرقامهم عن الجيش التركى الى ما بين أحد عشر ألفا واثنى عشر ألفا . ويتيح هذا الرقم ميزة بارزة فى القوى البشرية بالاضافة الى الموقع الدفاعى الذى سيطر عليه وزاد من قوة تفوق بايزيد .

ان اختلاف نوعية المحاربين الذين كانوا تحت قيادة بايزيد ربما كان يمثل قدرا من التفوق ، اذ ان المسيحيين فى الولايات التابعة للسلطان ضموا فيما بينهم فرسانا وجنود مشاة . وفيما يتعلق بالمعدات والأسلحة ، فان الفرسان الصليبيين كانوا مسلحين بأسلحة ومعدات ثقيلة ، على الرغم من قلة عددهم . وغالبية الحلفاء المسيحيين الذين تحالفوا مع السلطان بايزيد جاءوا من الصرب Serbia حيث كان حاكمها يمت بصلة النسب للسلطان . ويقال ان هؤلاء الصرب حاربوا بشجاعة فى معركة نيقوبوليس وأنقرة فيما بعد .

وضم المحاربون الأتراك فى جيش بايزيد جنودا على قدر من النظام بالاضافة الى عدد آخر أقل تدريبا . ومن بين الآخرين يمكن ذكر الفرسان خفيفى العدة . وهم نوع من الفرسان غير النظاميين الذين يتقدمون الجيش الرئيسى ، لكى يوقعوا الفوضى فى جيش العدو ، والعمل على اعاقته عن العمل ، أو يقوموا بشن الغارات المتكررة على جناحى جيش العدو . وأحيانا يقوم هؤلاء الفرسان خفيفى العدة ، بالعمل كأدوات لجذب العدو للمعركة ويتظاهرون بالهروب بعد أول لقاء مع هذا العدو . عند ذلك يندفع العدو الى الأمام على أمل احراز نصر سهل ، دون أن يتوقع أنه قد وقع بالفعل فى فخ نصبه الطرف الآخر .

ان القوة الحقيقية للجيش التركى فى أواخر القرن الرابع عشر كانت تكمن فى جماعة السيباهيز Sipahis والانكشارية Janissaries

وجماعة السباهيز هم فرسان تحميهم دروع ، وينسب الى أورخان استخدامهم فى الجيش لأول مرة . وقاموا فى بداية الأمر بمهمة الحرس الشخصى للسلطان . وبتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه وكان القوس والسهم سلاحهم الرئيسى ، أو على الأقل السلاح الذى استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة . وما أن تنفد سهامهم ، ويصبحوا على مقربة من العدو ، فانهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة الوحيدة الحد ، وكذلك الخناجر . ان قتال التلاحم لم يتناسب مع الفارس الثقيل العدة فى غرب أوربا ، بيد أن السرعة

واستخدام السهم غالبا ما يكفيان لتحقيق النصر قبل أن يطبق هؤلاء الفرسان على العدو ٠

على أن القسم الفريد فى جيش بايزيد كان الانكشارية أو « القوات الجديدة » ٠ ان غالبية هؤلاء المحاربين تم انتزاعهم من أسرهم منذ صباهم كنوع من الضريبة التى فرضها السلطان على تلك الشعوب التى أخضعها لارادته ، وكان معظمهم من المسيحيين ، وتمت تنشئتهم فى مساكنهم الخاصة ، وتلقوا تدريبات على درجة عالية حتى صاروا متخصصين ٠ وتولى الدراويش تلقينهم مبادىء الاسلام ولم يسمح لهم بالزواج أو تكوين أسر ، ولم يكن هناك لأحد سيادة عليهم سوى قائدهم السلطان ٠ وحاربوا كمشاة استخدموا السهام ٠ واذا ما استطاع قائد ماهر أن يزامن هجوم الانكشارية مع هجوم السيباهي Sipahis كان النصر حليفه ٠ ومن ثم جعلا الجيش التركى من أفضل جيوش العصر ، ان لم يكن أفضلها جميعا ٠ وعلى الرغم من أن أروع صفحات تاريخ الانكشارية سجلت لهم فى المستقبل ، فان عددهم فى نهاية القرن الرابع عشر بلغ حوالى خمسة آلاف مقاتل ٠ ويبدو أنهم لهم الفضل فى انتصار السلطان فى موقعة نيقوبوليس ٠

وقبل حدوث المعركة بين الجيش المسيحي والجيش التركى فى نيقوبوليس ظهرت للعيان نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الصليبى ٠ كان الجيش الصليبي يفتقر الى وجود قيادة موحدة ، فرغم أن سيجزموند ملك المجر القائد العام بصفة رسمية ٠ لكنه اذا لم يكن قد سمح للفرنسيين بأن يكونوا أول المهاجمين للعدو على سبيل المثال ، لقام الفرنسيون رغم أنف الجميع ، بتنفيذ رغبتهم ٠ كما لم يكن سيجزموند متأكدا على الاطلاق من أن الولش Walichians سكان اقليم ترانسفاليا الذين كانوا ضمن رعاياه ، سيحترمون أوامره ٠ وباختصار كان جيشه به نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الاقطاعى التقليدى ٠

وقام سيجيزموند بمحاولة أخيرة يائسة لاقناع الفرنسيين بالسماح له وللمجريين التابعين له بأن يكونوا أول من يتقدم صوب العدو وذلك بارساله قائد جيشه الذى توسل اليهم شخصيا ٠ بيد أن الفرنسيين أصروا على تحقيق المجد لأنفسهم ٠ وعلى الطريقة الفروسية التقليدية هاجم الفرنسيون طليعة الجيش التركى المكون من قوات غير نظامية من الفرسان والرامين بالسهام ، ومن المحتمل أن الآخرين كانوا من الانكشارية ٠ وطلب سيجزموند الابطاء فى تقدمهم ، والانتظار حتى يتقدم اليهم الجيش الرئيسى. ولكن دون جدوى ٠ وكما كان متوقعا ، لم يجدوا صعوبة فى تشتيت شمل الفرسان الأتراك الذين التقوا بهم ٠ أما الأمر مع الانكشارية فقد كان مختلفا ٠ اذ لم يتوقف الفرنسيون عن التقدم فحسب ، وانما وجدوا

أنفسهم فجأة محاصرين من الجانبين ، كما هاجمتهم قوات السيباهي الذين ظلوا مختفين خلف أحد التلال . وفي مدى قصير تمت محاصرة الفرنسيين وابادتهـــم .

وفي الوقت الذي تحرك فيه سيجزموند وجيشه وحلفاؤه من الألمان والبولنديين ، كان قد سبق السيف العذل. أما الولش وأهالي ترانسلفانيا فانهم لم ينتظروا حتى يقاتلوا . اذا ما أن شاهدوا الخيــول التي كان يمتطيها الفرنسيون فوق التل ، تتقدم بسرعة الى الخلف دون راكبيها حتى غادروا ميدان المعركة بكل بساطة . وكان سيجزموند من بين القلة التي لاذت بالفرار . اذ كان مضطرا الى ترك ميدان المعركة والهروب مستخدما قاربا في نهر الدانوب . وعلى الرغم من أن المعركة انتهت بالقضــاء على الجيش الصليبي ، فان القتال كان شرسا . ويقال ان بايزيد استشاط غضبا لفداحة الخسائر في الأفراد لدرجة أنه أمر بذبح كل الأسرى الذين زادت أعمارهم عن العشرين ، وتحويل من هم دون ذلك السن الى عبيد ، مع استثناء عدد قليل يمكن الحصول على فدية عنهم .

ان القضــاء على الجيش الصليبي في نيقوبوليس أفســح المجــال للاستعداد للمعركة الفاصلة بين بايزيد وتيمور . واذا ما أدخل المرء في اعتباره شخصية الرجلين ، أدرك أن معركة حتى الموت تنتهي بمنتصر دون منازع ، باتت أمرا لا مفر منه . اذ لم يستطع تيمور أن يهدأ له بال الا بعد أن يدين له بالولاء كل الحكام على امتداد حدود امبراطوريته . أما بايزيد فلم يقنع بأقل من حكمه لامبراطورية تمتد من الدانوب الى نهر الفرات وربما الى نهر النيل .

قــام تيمــور بتفجــير الموقف . اذ بعد أن عاود بايزيد حصاره للقسطنطينية بوقت قصير ، طالب تيمور بتسليمه أحمد جلال يار ، سلطان بغداد . بيد أن بايزيد الجرىء قص لحية مندوب تيمور على الفور ، وأرسل رسالة مهينة الى تيمور . وورد في رسالته كما ذكر عربشاه أنه يعرف أن هذا القول سيدفعه الى مهاجمة بلاده فان لم يفعل تكون زوجاته مطلقات طلقة بائنــــة . ويقـــال ان تيمـــور رد على ذلك القول متعجبــا : ان ابن عثمان أصيب بالجنون من ولعه بالسبايا اذ أنهى رســالته بذكر النساء ، لأنه وفقا لما ذكره ابن عربشاه كان من عادة المغول أن ذكر المرأة جريمة واهانة لا تغتفر ، الى الحد أنهم لا ينطقون كلمة امرأة ويتجنبون ذلك بكل حــرص ، فيقولون ، اذا أنجب أحــدهم أنثى : « ولدت احدى المحجبات ، أو ربة بيت ، أو محجبة أو أى شيء من هذا القبيل » (١٢) .

تشجع العالم المسيحي لاقتراب اللحظة المصيرية عندما أصبح الصراع بين بايزيد وتيمور واقعا لا محالة . اذ ان ما كان يتمناه البابوات وأوربا

المسيحيـــة منذ أمد بعيـــد ، أن تنشب الحرب بين المسلمين والمغـــول ، وأضحت تلك الحرب وشيكة الوقوع • وشعرت القسطنطينية بالارتياح وتنفست الصعداء ، عند اقتراب المعركة ، لأن أسوارها كانت واقعة تحت الحصار للمرة الثانية • اذ بدأ حنـــا الوصى على عرش القسطنطينية ، المفاوضات مع تيمور ، وفعل الشىء نفسه شارل الخامس ملك فرنسا • بل حتى امارة طرابيزون الصغيرة أرسلت اليـــه ما يعبر عن تقديرها له وتعاطفها معه معلنة استعدادها للسماح له باستخدام مينائهـــا الوحيد وكذلك وعده أهالى جنوه الذين يديرون منطقة بيرا Pera ، الجزء الذى يقع عند القرن الذهبى من القسطنطينية ، بارســـال سفنهم ، ومنع أى امدادات عسكرية تركية تحـــاول العبور من أوربا الى آســـيا الصغرى اذا ما شن بايزيد حربا هناك •

لا شك أن تيمور لم يول تلك التعهدات أدنى أهمية • اذ كان يدرك أن الممالك المسيحية لا يعنيها شىء سوى أن يقضى بأيزيد وتيمور على بعضهما البعض • على أية حال ، فلن تتحرك أى دولة من تلك الدول المسيحية الا بعد أن يصبح من الواضح للعيان أى الجانبين كتب له النصر •

وفى أواخر ربيع ســـنة ١٤٠٢ م قام باستعراض كبير لقواته فى سيناس حيث أمرهم بالتجمع للاستعداد النهائى للمعركة ضد بايزيد • ووصلت اليه التعزيزات من كل أنحاء امبراطوريته • وكان معظم المحاربين من الفرســـان الرامين بالسهام ، وارتدى بعضهم معاطف عليهـــا صفائح معدنية ، والبعض الآخر ارتدى بدلة حربية عليها دروع وكذلك دروع على خيولهم • أما هؤلاء الذين أتوا من سمرقند فكان منظرهم نابضا بالحيوية بسبب معداتهم المثيرة للاعجاب ، وبذلك قدموا الدليل المقنع على ضخامة كميات الغنائم التى جمعها تيمور فى عاصمته ، وعن التقدم فى الصناعة على أيدى الفنانين الذين أحضرهم الى هناك • ولكل مجموعة أعلامها الخاصة بها ـ منها القرمزى ، والأصفر ، والأبيض ، والأرجوانى ، والألوان الأخرى ـ التى توافقت مع ألوان السروج ، والملابس ، والتروس ، وجعب السهام ، والأحزمة ، والتروس الصغيرة المستديرة •

حشد بايزيد جيشه ، بدوره فى مدينة بروسا Brusa عاصمة آسيا الصغرى التركية • وتجمعت هناك قواته التركية من الانكشارية والسيباهى ومعهم الفرسان ثقيلو العدة من الصرب ، والفرسان الآخرون والمشاة الذين أرسلهم الأتباع المسيحيون فى أقاليم البلقـــان • وجـــاء محـــاربون ، ربما متساوون فى العدد مع القوات « الأوربية » من الامارات المختلفة فى آسيا الصغرى ، بعضهم كان من رعايا الأمراء المغول الذين هربوا الى تيمور عندما اجتاح الأتراك أراضيهم • ولم يكن هناك قوات مصرية ، اذ تجاهل فرج طلب بايزيد لتقديم المساعدة •

ومن مدينة بروسا قاد بايزيد جيشه تجاه الشرق • وسلك بايزيد طريقا اجتاز خلاله الممرات الضيقة والوديان حول توقات Tuqat وهو طريق مواز تقريبا لمجرى نهر الهاليز River Halys على بعد حوالى خمسة وسبعين ميلا الى الجنوب • ان الطريق الذى سلكه بايزيد كان أقصر الطرق الى الأقاليم الشرقية لآسيا الصغرى • وكانت معلومات بايزيد أن تيمور سيتقدم من خـــلال ذلك الطريق • وكان من المفروض أن ينتظر بايزيد تيمور فى معسكره الوافر المياه فى أنقرة Anqora وألقى الكتاب المحدثون اللوم على بايزيد لعدم قيامه بذلك • بيد أن بايزيد كان لديه ثقة فائقة فى مقدرة جيشه على هزيمة تيمور ، وعمل على تقوية هذه الثقة ما قد حدث مؤخرا فى نيقوبوليس • اذ لم يستسغ بايزيد فكرة تحرك تيمور فى أراضى دولته وتعريض مدنها وقراها للسلب والنهب • وربما خشى بايزيد أيضا من أن يستغرق تيمور وقتا طويلا الى أن يقرر الدخول فى المعركة ، وهو الأمر الذى لا يستطيع أن يتحمله بايزيد الا بصعوبة • اذ كلما طالت الفترة قبل خوض تلك المعركة ، واستمر تيمورمعسكرا بقواته فى آسيا الصغرى كلما أتيحت فرصة أكبر للأمم المسيحية فى اعداد جيش صليبى جديد •

وكان فى استطاعة تيمور أن يؤجل الهجوم • اذ بالنسبة اليه لا يوجد خطر ثورة يتم تدبيرها من خلفه • لذلك ترك بايزيد ليقوم بتسديد الضربة الأولى • وكان تيمور على علم أن بايزيد لا يستطيع الانتظار وربما فعل شيئا ينم عن الحماقة فى تلهفه على حدوث المعركة • فبدلا من أن يقود تيمور جيشه غربا على امتداد أقصر الطرق ، الذى سوف يجعله يصطدم وجها لوجه مع بايزيد ، فانه قرر أن يسلك الطريق الأطول ، والأسهل على امتداد نهر الهاليز Halys River وفى الطريق عبر وادى هذا النهر يستطيع رجاله الحصول على الكثير من الغنائم لأنفسهم ، والعشب الوافر لخيولهم • كما أن هذا الطريق غير المباشر بعض الشىء سيجعله على مقربة من مؤخرة جيش بايزيد ، مما يغلق الباب فى وجه الأتراك أمام أى تراجع اذا ما كسب تيمور المعركة •

وبعد ستة أيام من بدء المسير من سيفاس وصل تيمور ورجاله الى منتصف الطريق الى أنقره ، ونعنى بذلك أنه وصل الى قيصرية ، حيث استراح رجاله هناك لمدة أربعة أيام • وبعد مرور أربعة أيام أخرى وصلوا الى قيرشهر Qirshahr ثم وصلوا الى أنقره بعد ثلاثة أيام أخرى ، حاول خلالها تيمور حث رجاله على الانطلاق بسرعة اضطرارية بهدف مباغتة الأتراك • وما أن وصل تيمور الى المعسكر الذى كان قد غادره بايزيد منذ أقل من أسبوعين ، حتى أحاطه بالخنادق ، والأسوار القوية ، وقطع امدادات

المياه عن المدينة ، وضرب حصارا حولها • وكان تيمور على وشك شن هجوم نهائى على أسوار المدينة عندما علم أن بايزيد قد عاد بجيشه ، وفى طريقه الى الاقتراب من ناحية الشرق •

ان عودة بايزيد وجيشه ثانية الى أنقرة كانت عملية مروعة • اذ كان رجاله متعبين تماما عندما وصل الخبر الى بايزيد أن تيمور قد سلك طريقا جانبيا تجنبا للقائه ، ولم يكن أمام السلطان من خيار سوى أن يأمر رجاله بالاستدارة والعودة الى أنقرة • وتحققت مخاوف السلطان بشأن استيلاء تيمور على المعسكر الذى أقامه بايزيد ، وكذلك مسألة منع المياه عن المدينة • وهكذا كان الموقف بالنسبة للجيش التركى باعثا على اليأس تماما • اذ بلغ رجال بايزيد حد الانهاك والمعاناة من شدة العطش ، ولم يكن هناك أمل فى الحصول على ماء • « لقد خسروا المعركة قبل أن تبدأ » (١٣) •

والتقى الجيشان فى يوم الجمعة فى الثامن والعشرين من شهر يوليو ١٤٠٢ م ، شمال شرق مدينة أنقرة ، فى سهل شيبوكاباد Chibukabad ومن المحتمل أنه المكان الذى أحرز فيه بومبى Pompey النصر على الميثرابين Mithradates سنة ٦٥ ق•م ولم يجرؤ بايزيد على الانتظار ليأخذ رجاله للحصول على الماء • فأسند قيادة الجناح الأيمن لجيشه الى صهره لازارافيك من صربيا Lazaravic of Serbia ، وأمده ببعض الفرسان الأتراك لمساندة فرسانه ثقيلى العدة • وأسند الجناح الأيسر الى ولده سليمان ، وتكون هذا الجناح من قوات من مقدونيا ومن آسيا الصغرى • ومعظم هؤلاء الجنود الذين كانوا فى الجناح الأيسر من جيش بايزيد كانوا من امارات تابعة لسيادة تيمور فى وقت ما•أما قلب الجيش فقد تكون من الانكشارية والسيباهى ، وتحت قيادة بايزيد نفسه • ووضع بايزيد بعض الفرسان فى الاحتياط •

كان جيش تيمور الذى واجه جيش بايزيد يضم ثلاثين فيلا من الهند فى الصفوف الأمامية • واستعمل الجيشان النار الاغريقية ، غير أن تلك النار الاغريقية أو الفيلة لم تلعب دورا حاسما فى المعركة • انها كانت صراعا بين جيشين من الفرسان • وربما لم تحدث معركة أكبر منها استخدمت فيها الفرسان » (١٤) •

كانت لهذه المعركة نتائج مهمة لأنها حدثت بين أقوى رجلين فى العالم، ومال كل من الكتاب المعاصرين والمحدثين الى الافراط فى تحديد أعداد الرجال فى كل من الجيشين • ويذكر العالم جروسيه Grusset أن حوالى مليون مقاتل اشتركوا فى تلك المعركة • ويذكر شيتلتبرجر البافاراى

الذى عاصر هزيمة المسيحيين فى Bavarian Schiltberger
نيقوبوليس وانتقل الى خدمة الأتراك - ان عدد جيش بايزيد بلغ مليونا وأربعمائة ألف مقاتل ، وأن جيش تيمور زاد عن ذلك الرقم بحوالى مائتى ألف مقاتل • وأكثر الأرقام اعتدالا كان حوالى عشرين ألف مقاتل تقريبا لكل من الجانبين • ان الاتجاه المعارض لذكر أعداد أكثر من ذلك يستند الى أن القوات التى تزيد عن ذلك الرقم لا يمكن لها التحرك عبر أناطوليا على نمط جيش تيمور وبايزيد ، كما لم يكن فى استطاعة جيش مغولى يزيد تعداده عن عشرين ألفا أن يجد مكانا له فى المعسكر المحصن فى أنقرة •

ومع ذلك ، فلم يكن حجم القوات أو شجاعتها هى التى حسمت المعركة ، أو ربما معاناة جيش بايزيد من العطش والاجهاد • وانما يعود ذلك الى تفوق تيمور على بايزيد فى التخطيط للمعركة ، كما تفوق بايزيد على الصليبيين فى التخطيط فى موقعة نيقوبوليس • اذ وضع تيمور قواته الى الغرب من قوات بايزيد ، كما أتاح تيمور لقواته الفرصة للراحة والتحفز للقتال • وفوق كل ذلك أمر تيمور أتباعه بالتغلغل بين القوات المغولية فى جيش بايزيد طوال الأشهر السابقة على المعركة ولجح هؤلاء الأتباع فى التأثير عليها لصالح تيمور • حيث وعد هؤلاء المحاربون بالتخلى عن بايزيد فى اللحظة التى تبدأ فيها المعركة • وربما كانوا حلفاء مشاكسين لبايزيد فى المقام الأول ، وأنهم عرفوا أن ولاءهم لابد أن يكون لتيمور • وبالاضافة الى ذلك لابد وأنهم شعروا أن تيمور سيكتب له النصر ، وعرفوا كيف يكافىء القائد المغولى قواته بسخاء • ومن المحتمل أيضا أنهم لم يستسيغوا فكرة محاربة زملائهم المغول •

وفى حوالى الساعة العاشرة صباحا بدأت المعركة على أصوات الأبواق ودقات الطبول • ومن المدهش أن المعركة ظلت محتدمة حتى الغسق ، ذلك لأن الذى حسم الموقف بوضوح هو فرار المحاربين المغول فى الجيش التركى • ولابد أن ذلك حدث فى أوائل المعركة • وأول من غادر أماكنهم هم الساروخان Sarukhan والايدين Aydin والمنلشيا Menlesha والكيرميان Kermiyan ثم تبعهم سكان الامارات الشرقية الأخرى • ولو أن الفارين اكتفوا بترك المعركة ، لما سبب ذلك خطورة شديدة ، اذ ان الذى أحدث الطامة الكبرى هو استمرارهم فى القتال ، وهاجموا الجناح الأيسر للجيش التركى ، الذى كان تحت قيادة سليمان بن بايزيد من الخلف ، فى الوقت الذى كانت تسدد فيه قوات تيمور الرئيسية الضربات العنيفة والمتكررة على هذا الجناح من الأمام • وفى الوقت نفسه تقدم لازاروفيك وأتباعه من الفرسان ثقيلى العدة من الصرب الى الأمام فى مواجهة العدو الأمر الذى دفع بايزيد الى ارسال تحذير لهم بالانسحاب المنظم خشية أن يطوقهم العدو • وعندما علم

لازاروفيك بوضع سليمان الحرج ، قاد فرسانه ليؤمن ويغطي انسحاب ابن السلطان • كما أن آخر مجموعة من الأتراك استمرت في القتال كانت قلب الجيش ، حيث ظل بايزيد والانكشارية والسيباهي يقاتلون بشراسة حتى النهاية •وقبل الغروب تماما قرر بايزيد الهروب ، بيد أن جواده تعرض لاصابة قاتلة ، ومن ثم وقع في الأسر •

وأرسل تيمور قوة لتعقب سليمان ، الذي هرب الى بروسا Brusa ومعه قدر كبير من كنوز والده • وفي اللحظة التي وصل فيها جيش تيمور الى بروسا ، كان سليمان قد غادرها ، لذلك اكتفى المغول بسلب ونهب ذلك المركز التجاري المهم واشعال الحرائق بها • وبدون أدنى معارضة ، فانتشرت القوات المغولية في آسيا الصغرى الى مضيق الدردانيل Hellespont ينهبون ما يقابلهم في طريقهم ، وسار تيمور من خلفهم على مهل تماما • وبحلول شهر ديسمبر وصل تيمور الى مدينة سميرنا Smyrna ، احدى ممتلكات القديس حنا ، وآخر القلاع المسيحية في آسيا الصغرى • وكان الأتراك قد فشلوا في محاولاتهم العديدة للاستيلاء على المدينة ، بيد أن تيمور لم يقض سوى أسبوعين تقريبا أمام أسوارها • وكالعادة يعود الفضل الى جنود تيمور المتخصصين في اجتياز استحكامات العدو سرا اذ عجلوا بحسم الأمر عن طريق حفر نفق تحت الاستحكامات • وعندما سقطت الاستحكامات ، أعمل رجال تيمور السيف في رقاب الحامية والسكان •

وعاد تيمور في ذلك الحين الى سمرقند • لقد أنجز ما قد خطط لتنفيذه • ووافقت القسطنطينية ، وبيرا Pera على دفع الجزية (*) الى تيمور ، وكذلك فعل سليمان بن بايزيد ، وفرج سلطان مصر • ويقال أن تيمور عامل بايزيد معاملة طيبة ، على الرغم من أن تيمور كان يسجن بايزيد ليلا ، ويسمح له بالتجول نهارا في محفة يحملها اثنان من الخيول ، ومحاطة بشبكة حديدية • ولابد أن هذه الشبكة الحديدية تشير الى القصة الباكرة عن أن بايزيد ظل حبيسا في قفص من حديد ، وأنه مات من سوء المعاملة ، وهي القصة التي رفضها جيبون Gibbon باعتبارها قصة خيالية • ومع ذلك يبدو أن صحة بايزيد تدهورت على الفور ، ومات أوائل مارس ١٤٠٣ م • ولم يمهل القدر تيمور طويلا بعد ذلك • اذ لم يكد يصل الى مدينة سمرقند حتى بدأ استعداداته الفورية لارسال حملة الى الصين • وغادر المدينة في أواخر ديسمبر ١٤٠٤ م ، بيد أنه شعر بالمرض بعد وقت

(*) الجزية tribute هي مبالغ من المال كانت تدفع بصفة منتظمة مقابل عدم الاعتداء • وكانت روما تفرضها على الشعوب الخاضعة لها ـ المترجم •

قصير ومات فى التاسع عشر من يناير • ودفن فى سمرقند فى تابوت من الأبنوس •

ان النتيجة الرئيسية للمعركة الكبرى التى دارت فى أنقرة ، كانت فترة الراحة التى نعمت بها القسطنطينية لمدة خمسين عاما بفضل انتصار تيمور • وكان من الممكن أن تسقط هذه المدينة الكبرى فى أيدى الأتراك سنة ١٤٠٢ بدلا من سنة ١٤٥٣ م • وعلى الرغم من أن سقوطها الفعلى كان أمرا حتميا ، فان الخمسين عاما مكنت غرب أوربا من استرداد أنفاسها بعـد الكارثة التى حدثت فى نيقوبوليس Nicopolis ولو لم يتوقف طريق الأتراك فى الغزو فى موقعة أنقرة ، لما اقتصر الأمر على احتلالهم القسطنطينية ، فى وقت قصير ، فحسب ، وانما كان من الممكن أن يمتد الى احتلال بودابست Budapest وفيينـــا • Vienna ، أيضـــا • ومن المهم أيضا أن الأتراك نقلوا عاصمتهم الآسيوية ، بعد هزيمة أنقرة من بورسا Brusa الى أدريا نوبل Adrianople ، وهى خطوة شجعتهم على تركيز جهودهم فى التوسع فى أوربا بدلا من الشرق الأدنى •

PREFACE

1. Fletcher Pratt, *The Battles That Changed History* (New York : Hanover House, 1956, p. 12.
2. Helen Waddell, *The Desert Fathers* (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1957), p. 35.
3. J. Otto Maenchen-Helfen, *The World of the Huns* (Berkeley : University of California Press, 1973), p. xxvi.

CHAPTER 1 : MEDIEVAL WARFARE

1. See H. Mattingly, trans., *Tacitus on Britain and Germany* (Harmondsworth : Penguin Books Ltd., 1951), p. 112.

CHAPTER 2 : THE BATTLE OF CHALONS.

1. Dante, who refers to Attila as a "scourge on earth," has him plunged in a river of boiling. blood *Inferno*, XII, 135ff
2. Jordanes, *The Origins and Deeds of the Goths,* trans. by Charles Mierow (Princeton : Princeton University Press, 1908), pp. 39-40.
3. *Ammianus Marcellinus*, trans. by John Rolfe, *The Loeb Classical Library* (Cambridge : Harvard University Press, 1939), III, pp. 381-87.
4. J. Otto Maenchen-Helfen, *The World of the Huns* (Berkeley : University of California Press, 1973), p. 204.
5. They may be more precisely classified as Indo-Iranian nomads. They were the only non Germanic people of the migration period to make important settlements in in western Europe.
6. The exact "legal" relationship of the Vandals with the empire remains a point of dispute. They may have enjoyed the status of *foederati.* See Frank M. Clover, (Flavius Merobaudes, A Translation and Historical Com-

mentary," Transactions of the American Philosophical Society, 61 (1971), pp. 52-54.

7. From a fragment (*Fragmenta Historicorum Graeconum*) cited by Maenchen-Helfen, *The World of the Huns*, p. 38.

8. Jordanes, The Goths, p. 57.

9. C.D. Gordon, The Age of Attila (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1960), p. 95.

10. Ibid., p. 96.

11. This was a title held by the leading generals in the eastern Roman Empire. In the western empire it became the rule in the fifth century, for only one man to have that title. He was, therefore, the commander in chief.

12. "I disregard the often told melodramatic story of the vicious Princess Honoria, her clandestine engagement to Attila, and what follows from it. It has all the earnmarks of Byzantine court gossip." Maenchen-Helfen, *World of the Huns*, p. 20.

13. Jordanes, *The Goths*, pp. 57-58.

14. The *laeti* were Germans who had been settled on lands within the empire. In return for these lands they were to do military service. *Foederati* were troops supplied by allied peoples along the frontier who were pledged to defend that frontier.

15. Of four Frankish units listed in the *Notitia Dignitatum* in c. 425, all were cavarly regiments. See Bernard S. Bachrach, *Merovingian Military Organization* (Minneapolis : University of Minnesota Press, 1972), p. 14.

16. "I refrain from trying to reconstruct the tactics of the battle ; and such attempt only leads to arbitrary suppositions. The confused and contradictitory information of Jordanes reveals that he himself had no understanding of how the battle took its course." Ulf Tackholm,

"Aetius and the Battle on the Catalaunian Fields." *Opuscula Romana*, 7 (1969), p. 267.

17. Bernard S. Bachrach, *A History of the Alans in the West (Minneapolis* : University of Minnoesota Press, 1973), p. 66.

18. This is how Jordanes describes the situation : "The battlefield was a plain rising by a sharp slope to a ridge, which both armies sought to gain, for advantage of position is a great help. The Huns with their forces seized the right side, the Romans, the visigoths and their allies the left, and hen began a struggle for the yet untaken crest." Jordanes, *The Goths*, p. 61.

19. Charles Oman in his *History of the Art of War* (London: Methuen, 1898), p. 21, credits the defeat of Attila to the Visigothic cavalry, which rode down the more lightly armed Hunnic horsemen.

20. *Cambridge Medieval History (Cambridge* : University Press, 1963), I, p. 398.

CHAPTER 3 : THE BATTLE OF THE YARMUK

1. J. J. Saunders, *A History of Medieval Islam* (New York: Barnes. and Noble, 1965), p. 14.

2. Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (London : Macmillan, 1970), p. 25.

3. Ibid., p. 19.

4. Andreas N. Stratos, *Byzantium in the Seventh Century* (Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 19, 2, p. 43. Also see Hitti, *Arabs*, p. 26.

5. Hilli, *Arabs*, p. 145.

6. See the description of Khalid's maneuver, p. 72.

7. Philip K. Hitti *The Origins of the Islamic State*, a translation of the *Kitab Futuh Al-Buldan* (Beirut : Khayats, 1966), p. 211.

8 . Stratos, *Byzantium*, p. 49, n. 162.

9. Stratos, Byzantium, p. 47, n. 50.

10. Hitti, *Arabs*, p. 150.

11. Omar, in Mecca, must have been confident his Arabs

would destroy the Byzantine army, since here at this critical stage in the campaign he demonted Khalid, his ablest general, and gave the command of the Arab forces to another. See note 13.

12. Of such Arab allie, Edward Gibbon observed : "Their service in the field was speedy and vigorous ; but their friendship was venal, their faith inconstant, their enmity capricious." *The Decline and Fall of the Roman Empire* (New York : Random House, 1932), III, p. 64.

13. Khalid had actutlly been relieved of his command by Omar just before the battle, but Abu Ubayda, the man who replaced him, kept this information a secret until vistory had been won, lest the transfer of authority arouse dissension among the Arab cheiftains. Omar did not doubt Khalid's generalship, rather his lack of administrative ability, which the conquered area would most need in the years to come.

CHAPTER 4 THE BATTLE OF HASTINGS

1. Frank Stenton, *Anglo-Saxon England* (Oxford : Clarendon Press, 1943), p. 588.

2. A castle of the simple mott and *bailey type is shown in the* 1957), p. 16.

3. A cattle of the simule motte and *bailey type is shown in* the Bayeux Tapestry. The motte was a mound of earch surmounted by a palisade and wooden keep and girdled by a ditch. Around this was a coutyard, called a *bailey*, which was in turn protected by a ditih and a palisade. Here the garrison had its quarters and supplies. Under heavy attack the men would men inside the *motte* area.

4. The chronicler savs Harold "was pierced in the eyes," although this is doubted.

5. See G.N. Garmonswav, trans., *The Anglo-Saxon Chronicle* (London : J.M. Dent and Sons Ltd. ,1933), p. 199.

CHAPTER 5 : THE BATTLE OF HANTTIN

1. As quoted in T.SR. Boase, *Kingdoms and Strongholds of the Crusaders* (London : Thames and Hudson, 1971), p. 126.

2. See Charles Oman, *A History of the Art of War* (London: Methuen 1898), pp. 306-14, for this quotation and those immediately following.

3. Oman, Art of *War*, p. 67.

CHAPTER 6 : THE BATTLE OF BOUVINES

1. William, Eleanor's first son by Henry, died in infancy. *Four* sons reached maturity : Geoffrey, Henry, Richard, and John.

2. The wound was caused by a bolt shot from a crossbow.

3. See also J.F. Verbruggen, *The Art fo Warfare in Western Europe during the Middle Ages* (New York : American Eisevier, 1976), pp. 223-28, who suggests 5,000 or 6.000 foot soldiers for Philip's army, 7,500 for Otto's.

4. Ibid., p. 228.

5. Ibid., p. 236. Verbruggen believes 169 imperial knights were slain.

CHAPTER 7 : THE BATTLE OF CRECY

1. The staple was essentially the principle maket or trading center.

2. A son, born posthumously, died five days after birth.

3. One chronicler says the rain reduced the tensile qualities of the crossbow cords. See Charles Oman, *A History* of the Art of War (London : Methuen, 1898), p. 610, note 1.

4. Edouard Perroy, *The Hundred Years War* (London : Capri-corn Books, 1951), p. 119.

CHAPTER 8 : THE BATTLE OF ANGORA

1. See J. H. Sanders, trans., *Tamberlane, or Timur the Great Amir,* from *The Arabic Life by Ahmed Ibn Arabshah* (London : Luzac and Co., 1936), pp. 1-2.

2. See Walter J. Fischel, *Ibn Khaldun and Tamperlane* (Berkeley : University of California Press, 1952), p. 47.

3. The terms Mongol. Tatar, and Tartar are used indiscriminately, although Mongols and Tatars were originally distinct tribes in Mongolia. *Tartar* is a corruption of *Tatar.* The term was applied to Mongols by medieval Christians possibly because they looked upon these Mongols as demons from the underworld *(tartarus).*

4. Arnold Toynbee, *A Study of History* (abridgement of volumes 1-7) (New York : Oxford University Press, 1946, vol. 1, 345.

5. Thomas Ollive Mabbott, ed., *Collected Works of Edgar Allen Poe* (Cambridge : Harvard University Press, 1969), vol. 1, p. 33.

6. Hilda Hookham, *Tamburlaine the Conqueror* (London : Hodder and Stoughton, 1962), p. 198.

7. See H. Mattingly, tarns., *Tacitus on Britain and Germany* (Harmondsworth : Penguin Books Ltd., 1951), p. 80.

8. Edward Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire* (New York, Random House, 1932), vol. p. 1253.

9. See Sanders, *Tamerlane,* pp. 300-301.

10. See Fischel *Ibn Khaldun and Tamberlane*, p. 35.

11. John Bourchier, trans., The Chronicle of Froissart David Nutt, 1903), vol. 6, p. 193 (Modernized).

12. See Sanders, *Tamerlane,* p. 173.

13. Michael Prawdin, *The Mongol Empire : Its Rise and* Legacy, 2nd ed. (London : G. Allen and Unwin, 1967), p. 495.

14. Lynn Montross, *War Through the Ages, rev.* Ad *ed.* (New York Harper, 1960), p. 219.

BIBLIOGRAPHY

CHAPTER 1 : MEDIEVAL WARFARE

Bachrach, Bernard S. *Merovingian Military Organization* 481-751. Minneapolis : University of Minnesota Press, 1972.

Beeler, John, Warfare in Feudal Europe, 730-1200. Ithaca : Cornell University Press, 1971.

Blair, Claude *European Armour circa* 1966 *to circa* 1700. London : H. Milford, 1915.

Cleator, P.E. *Weapons of War*. New York : Crowell, 1968.

Creasy, Edward. *The Fifteen Decisive Battles of the World.* London : H. Milford, 1915.

Delbruck, Hans. *Geschichte Der Kriegskunst.* Dritter Teil. Das Mittelater. Berlin : W. de Gruyler, 1964.

Dupuy, R. Ernest, and Dupuy, Trevor N. *The Encyclopedia of Military History from* 3500 *B.C. to the Present.* New York : Harper and Row, 1970.

Fuller, J.F.C. A Military History of the *Western World.* vol. 1. London : Byre and Spottiswoode, 1954.

of Military History from 3500 *B.C. to the Present.* New New York : Funk and Wagnalls, 1954.

Hewitt, John. *Ancient Armour and Weapons in Europe.* Graz Akademische Druck u. Verlagsanstalt, 1967.

Lot, Ferdinand. *L'art Militaire et les Armées au Moyen Âge en Europe et dans le Proche Orient,* vol. 2. Paris : Payot, 1946.

Mitchell, Joseph B., and Creasy, Edward S. *Twenty Decisive* Battles of the World. New York : Macmillan, 1964.

Montross, Lynn. War Through the Ages, rev. ed. New York : Harper, 1960.

Oman, Charles. *A History of the Art of War* н *The Middle Ages from the Fourth to the Fourteenth Century*, vols. 1 and 2. London : Methuen, 1924.

Pratt, Fletcher. The Battles That Changed History. New York : Hanover House, 1956.

Verbruggen, J. F. *The Art of Warfare in Western Europe During the Middle Ages.* Uew York : American Else-vier, 1977.

Wise, Terence. *Medieval Warfare.* New York : Hastings House, 1976.

Zook, David and Higham, Robin. *A Short History of Warfare.* New York : Twayne, 1966.

CHAPTER 2 : THE BATTLE OF CHALONS

Bachrach, Bernard S. *A History of the Alans in the West.* Minneapolis : University of Minnesota Press, 1973.

Bury, J. B. *History of the Later Roman Empire,* vols. 1 and 2. New York : Macmillan, 1958.

Cambridge Medieval History, vol. 1, The Christian Roman Empire and the Foundation of the Teutonic Kingdoms. Cambridge : Cambridge University Press, 1936.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman* Empire.

Gordon, C.D. The Age of Attila Ann Arbor : University of Michigan Press, 1960.

Hodgkin, Thomas. *Italy and Her Invaders,* vol. 2 Oxford : Clarendon Press, 1892.

Hutton, Edward. *Attila and the Huns.* London : Constable, 1915.

Jones, A.H.M. *The Later Roman Empire,* 284-602. Oxford : B. Blackwell 1964.

Jordanes, *The Origins and Deeds of the Goths,* translated by Charles Mierow. Princeton : Princeton University Press. 1908.

Maenchen-Helfen, J. Otto. *The World of the Huns*. Berkley : University of California Press, 1973.

Thompson, E.A. *A History of Attia and the Huns*. Oxfod : Clarendon Press, 1948.

CHAPTER 3 : THE BATTLE OF THE YARMUK

Thompson, E. A. *A History of Attia and the Huns*. Oxford : Capricorn Books, 1949.

Cambridge Medieval Histor, vol. 4, The Eastern Roman Empire. Cambridge : Cambridge University Press, 1923.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman* Empire.

Glubb, John Bagot. *The Great Arab Conquests*. London : Hodder and Stoughton, 1963.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs*. London : Macmillan, 1970.

Jenkins, Romilly. *Byzantium : The Imperial Centuries A.D.* 610-1070. New York : Random House, 1966. !

Saunders, J. J. *A History of Medieval Islam*. New York : Barnes and Nobles, 1965.

Shaban. M.A. *Islamic History A.D.* 600-750. Cambridge : Cambridge University Press 1971.

Startos, Andreas N. *Byzantium in the Seventh Century*. Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 1972.

Vryonis, speros. *Byzantium : Its Internal History and Relation with the Muslim World*. London : Variouni Reprints, 1971.

CHAPTER 4 : THE BATTLE OF HASTINGS

Brooke, Christopher. *Europe in the Central Middle Ages*, York : Collier, 1965.

Brokke, Christopher. *Europe in the Central Middle Ages*, 962-1154, New York : Rinehart and Winston, 1964.

Broke, Christopher. *From Alfred To Henry* III, 871-1272. Edinburgh : T Nelson, 1961.

Douglas, David C. *William the Conqueror.* Berkeley : University of California Press, 1964.

Hollister, C. Warren. *Anglo-Saxon Military Institutions.* Oxord : Clarendon Press, 1962.

Hollister, C. Warren. *Anglo-Saxon Military Institutions.* New York : Wiley, 1969.

Korner, Sten. *The Battle of Hostings, England, and Europe,* 1035-1066. Lund : C.W.K. Gleerup, 1964.

Loyn, H. R. The Norman Conquest. London : Hutchinson, 1965.

Poole ,Austin Lane *Medieval England.* Oxford : Clarendon Press, 1958.

Sayles, G. O. *The Medieval Fundations of Englanl.* London : Methuen, 1948.

Stenton, Frank. *Anglo-Saron England.* Uxford : Clarendon Press, 1943.

Stenton, Frank. *The Bayeux Tapestry.* London : Phaidon Press, 1965.

CHAPTER 5 : THE BATTLE OF HATTIN

Baldwin, M.W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem,* 1140-1187. Amsterdam : Adolf M. Hakkert, 1969.

Boaes, T.S.R. *Kingdoms and Strongholds of the Crusalers.* London : Thames and Hundson, 1971.

Brundage, James A. *The Crusades : A Documentary Survey.* Milwaukee : Marquette University Press, 1969.

Gabrieli, Francessco, trans. *Arab Historians of the Crusades,* London : Routledge and Kegan Paut, 1969.

Hindley, Geoffrey. *Saladin.* London : Constable : 1976.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs* London : Macmillan, 1970.

La Monte, John L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem,* 1100 *to* 1291. Cambridge: Medieval Academy of America, 1932.

Lone Poole, Stanley. *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. Beirut* : Khayats, 1964.

Mayer, Hans Eberhard. *The Crusades*, translated by John Gillingham. Oxford : Oxford University Press 1972.

Munro, Dana C. The Kingdom of the Crusaders. New York : Appleton-Century, 1935.

Setton, Kenneth M., ed. *A History of the Crusades*, vol. 1. The First Hundred Years, edited by M.W. Baldwin *Philadelphia* : University of Pennsylvania Press, 1955.

Smail. R.C. *Crusading Warfare*, 1097-1193. Cambridge : Cam-Cambridge University Press 1956.

CHAPTER 6 : THE BATTLE OF BOUVINES

Appleby, John T. *John ,King of England.* New York : Knopf. 1959.

Barraclough, Geoffrey, *The origins of Modern Germany*. Oxford : B. Blackwell, 1947.

Cambridge Medieval History : VI, Victory of the Papacy. Cambridge : Cambridge University Press, 1929.

Fawtier, Robert. *The Capetian Kings of France*, translated by Butler and Adam. New York : St. Martin's Press, 1962.

Hampe, Karl. *Germany under the Salian and Hohenstaufen Emperors, translated by Ralph Bennett.* Oxford : B. Blackwell 1973.

Cambrideg Medieval History, VI, Victory of the PaPacy. Cambridge : Cambridge University Press, 1929.

Fawtier, Robert. *The Capetian Kings of France*, translated bv Butler and Adam. New York : St. Martin's Press,. 1862.

Hampe, Karl *Germany under the Salian and Hohenstaufen Emperors, translated by Ralph Bennett.* Oxford : B. Blackwell, 1973.

Kantorowicz, Ernest. *Frederick II,* translated by E. Lorimer. London : Constable, 1931.

Packard, Sidney R. *Europe and the Church under Innocent III.* New York Holt, 1927.

Painter, Sidney. *The Reign of King John.* Baltimore : John Hopkins Press, 1949.

Petit-Dutaillis, Charles. *The Feudal Monarchy in France and England,* London : Paul, Trench. Trubner, 1936.

Poole, A.L. *From Domesday Book ta Magna Carta,* EFBS-ETEP. Oxford : Clarendon Press, 1951.

Smith, Charles E. *Innocent III.* H *Church Defender.* Baton Rouge :

Louisiana E. Innocent III : Church Defended. Baton Rouge : Louisiana State University Press, 1951

CHAPTER 7 : THE BATTLE OF CRECY

Burne, Alfred H. *The Crecy War.* London : Eyre and Spottiswoode, 1955.

Cambridge Medieval History, VII Decline of Empire and Papacy-Cambridge : Cambridge University Press, 1923, 1932.

Froissart. Chronicles.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire.*

Hay, Denys. *Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries.* New York : Rinehart and Winston, 1966.

Jenkins, Helen. *Papal Efforts for Peace under Benedict* XII, 1334-42. Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1933.

Lucas, H.S. *The Low Countries and the Hundred Years War.* Ann Arbor : University of Michigan Press, 1929.

McKisack, May. *The Fourteenth Century.* Oxford : Claren don Press, 1959.

Perroy, Edouard *The Hundred Years War.* London : Capricorn Books 1951.

Power, Eileen. *The Wool Trade in English Medieval History.* Oxford University Press, 1941.

Ramsay, James, *Genesis of Lancaster,* 1307-99 vol. I. Oxford : Clarendon Press, 1913.

CHAPTER 8 : THE BATTLE OF ANGORA

Atiya, Aziz Suryal *The Crusade in the Later Middle Ages.* London: Methuen, 1938.

Cambridge Medieval History, vol. 8, The Close of the Middle Ages Cambridge : Cambridge University Press, 1936.

Fischel, Walter *J. Ibn Khaldun and Tamberlane.* Berbely : University of California Press, 1952.

Gibbon, Edward. *The History of the Decline and Fall of the* Roman Empire.

Grousset, René. *The Empire of the Steppes* H *A History of Central* Asia, translated by Naomi Walford. New Brunswick : Rutgers University Press, 1970.

Hookham, Hilda. *Tamurlaine the Comqueror.* Londo : Hodder and Stoughton, 1962.

Inalcik, Halil. *The Ottoman Empire, translated by Norman Itskowitz and Colin Lmber.* London : Weidenfield and Nicolson, 1973.

Lamb, Harold. *Tamberlane the Earth Shaker.* New York : R.M. McBride, 1928.

Le Strange, Buy. *Clavijo's Embassy to Tamerlane* 1403-6. London : G. Routledge and Sons, 1928.

Prawdin, Michael. *The Mongol Empire* H *Its Rise and Legacy.* London : G. Allen and Unwin, 1967.

Tamerlane, or Timur the Great Amer, translated by J. H. *Sanders* from *The Arabic Text By Ahmed Ibn Arabshah.* London : Luzac, 1936.

Vernadsky, George. *The Mongols and Russia.* New Haven : Yale University Press, 1953.

Waugh, W.T. *A History of Europe from* 1378 *to* 1949. New York : Methuen, 1932.

فهـرس



يضم هذا الكتاب بين صفحاته سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى تركت كل واحدة منها بصماتها التاريخية .

والكتاب جديد في فكرته . ألفه الأستاذ جوزيف داهموس أستاذ تاريخ العصور الوسطى بالولايات المتحدة الأمريكية . ثم قدم المؤلف فصلاً رائعاً عن الحرب والأسلحة في العصور الوسطى في الشرق والغرب . وقد انصف المؤلف بذكره معركتي اليرموك وحطين ضمن تلك المعارك الفاصلة . وليس من المبالغة في شيء القول بأن هذا الكتاب جامع وشامل ؛ إذ قدم المؤلف الأسباب والأحداث والنتائج بمنهج علمي سليم .

٣٣٥ قرشــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب